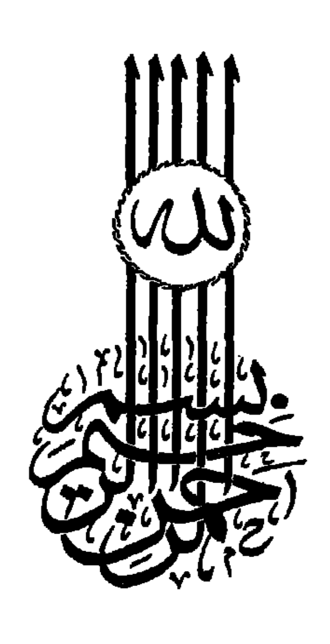


مصطفى أمين

نجمة الجماهير

العصر الحديث
للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

العصر الحديث
للنشر والتوزيع
تليفون : ٨١٤٧١٦
٨١٤٦٩٧
ص . ب : ١٤/٥٦٤٥
بيروت - لبنان

عاد الفنان الصغير إلى بيته . . المهنئون في انتظاره يشدون على يديه ويقولون له : مبروك ! . . مبروك ! . .

أصدقاؤه يوزعون الشربات ، جيرانه يطلقون الزغاريد ! . . الأيدي كلها تمتد لتشد على يده مهنئة مباركة ! . . الحارة الصغيرة انقلبت إلى فرحٍ كبير . . . كل أهل الحارة يشعرون أنهم نالوا شرفاً ما بعده شرف ومجداً ليس وراءه مجد . .

إن حارة السد البراني دخلت التاريخ ! . . ودخلت معها الحواري والأزقة المجاورة ، ودخل معها سكان الحي كلهم ! . . .

نعم مبروك ! . . ألم تعلن الصحف أن الفنان الصغير المغمور سوف يتزوج نجمة الجماهير ! . . هذه الممثلة الكبيرة التي لا تخلو الصحف من صورها . . هذه الفنانة العظيمة التي يتغنى الناس باسمها . . هذه المرأة المشهورة التي تقدم لخطبتها الأمراء والوزراء وأصحاب الملايين فرفضت أيديهم الممدودة ، وداست على ملايينهم ومناصبهم وأوسمتهم ونياشينهم واختارت الفنان الصغير ابراهيم ، وفضلت أن تصاهر حارة السد البراني على أن تصاهر الأسرة المالكة أو الباشوات والوزراء ! . .

وأهل الحارة ينظرون إلى ابراهيم كأنهم ينظرون إلى بطلٍ

فاتح !.. ألم يستطع أن يفتح قلب هذه الفنانة العظيمة التي أبت أن تفتح قلبها للغزاة والفاتحين ؟..

ألم ينتصر على كل المنافسين وينتزع هذه المرأة كما فعل الشاطر حسن في قصة ست الحسن والجمال ؟ .. ألم تتحدث الصحف عن حارة السد البراني التي أنجبت ابراهيم لهذه المناسبة السعيدة ؟.. ألم تنشر صورة عم محمود البقال الذي يبيع لابراهيم بالشكك ؟.. ألم تنشر حديثاً لعم معروف المكوجي الذي كوى البدلة التي ارتداها إبراهيم يوم خطبته لنجمة الجماهير ؟.. ألم يصبح الأسطى عبد العال الحلاق نجماً من نجوم الإذاعة عندما جاءت المذيعة تجري معه حديثاً عن ابراهيم ، ورأيه في ابراهيم ، والطريقة التي يقص بها شعر ابراهيم ؟.. ألم تهتم المجلات النسائية بـ« القصة » التي صنعها الأسطى عبد العال في شَعْر ابراهيم وقالت إنها « موضة الموسم » !..

في يوم وليلة أصبحت حارة السد البراني أشهر حارة في الدولة ! .. السيارات الأنيقة الفاخرة أصبحت تدخلها لأول مرة وتطل منها فتيات جميلات ويشرن فيها إلى الشقة التي يقيم فيها العريس ابراهيم !.. ومصلحة التنظيم عرفت فجأة عنوان حارة السد البراني .. فجاءت تزورها مرة عربات النظافة تجمع القمامة وظهر فيها الكناسون ينظفون الحارة ، وظهرت عربة الرش وراحت تتمهل وهي تخترق الحارة والأطفال يجرون وراء الماء الذي ترشه على اليمين والشمال !..

إن حارة السد البراني لم تر هذا « العز » أبداً !.. إنها لم تشهد من قبل مندوبي الصحف والمصورين والرسامين ومندوبي وكالات الأنباء والصحف السينمائية !.. إنها شعرت لأول مرة في تاريخها أنها

أصبحت أكثر من زقاق ، وأعظم من حارة ! . . إن شارع عماد الدين ، وشارع قصر النيل ، وشارع سليمان ، لا يتحدث عنها الناس كما يتحدثون اليوم عن حارة السد البراني . . الحارة التي أنجبت الشاب الذي نشرت صورته الصحف في صفحاتها الأولى إلى جوار نجمة الجماهير !

وهكذا أصبح كل فردٍ من سكان الحارة يشعر أنه أصبح شخصية هامة . . وأن له نصيباً في هذا النصر العظيم الذي حققته الحارة . . وكل واحد منهم أصبح يشعر بفخر أنه يسكن بحارة السد البراني . . وكل واحد منهم واقف أمامه صحفي أو مندوب جريدة يسأله أسئلة أو يقوم معه بتحقيق صحفي عن الحارة وسكانها وحياتها وذكرياتها ، وطفولة « ابراهيم » فيها ! . .

وكان سكان الحارة يعيشون سنين طويلة في ذل محمد أفندي هدايت كاتب محكمة السيدة . . لقد حدث بطريق الخطأ أن نشرت إحدى الصحف اسمه في أثناء تحقيق إحدى الجنايات . . . وحرص هدايت أفندي على أن يحمل في جيبه نسخة الجريدة التي نشرت اسمه في نصف سطر ، وحرص على أن يخرج الجريدة ويطلع عليها كل السكان ، الذين يقرأون والذين لا يقرأون . . الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم . . ويومها شعر السكان بضآلتهم وبأهمية هدايت أفندي ، وبتفاهتهم وبعظمته . . وكان هدايت أفندي يحتفظ بالجريدة في جيبه طوال هذه السنين حتى بهتت الجريدة وتآكلت حروفها . . ولكنه كان يصر على أن يخرجها من جيبه في كل مناقشة ليؤكد لسكان حارة السد البراني أنه الشخصية الخطيرة الوحيدة في الحارة التي تهتم بها الصحف التي اعتادت ألا تنشر إلا أسماء أقطاب العالم والكبراء والعظماء ! . .

أمـا اليوم فـإن سكان حـارة السد الـبراني يشمخـون بـأنـوفهـم جميعاً ! . . إن كل واحد منهم لا يقل أهمية عن هدايت أفندي . . بل إن كثيرين منهم أهـم منه بمـراحل ، بعـد أن أصبحت حارتهم وابن حارتهم حديث الملايين . . بعد خطبة ابراهيم إلى الفنانة الأولى سهير حسين . .

وهم من أجل هذا حـريصون عـلى أن يظهـروا جميعاً بـالمظهـر الـلائق بهم بعد أن أصبحـوا جميعاً أصهـار نجمة الجـماهير ! . . إن « الجـلابيب » الممزقـة القذرة اختفت فجـأة من الحارة . . الأطفـال الحفاة أصبحوا يرتدون الأحذية في الحارة . . ولم يعودوا يصرخون في الحارة كما كانوا يفعلون في الماضي . . إن « تيم الأسد النفيس في الغزل والترقيص » اضطر أن يترك ميدان اللعب في الحارة وانتقل إلى حارة أخـرى حتى لا يقلل من وقار الحـارة التي أصبحت تستقبـل الـزوار والصحفيـين والمصورين والفضـوليين ! . . إن الحـاج محمود البقـال أصلح زجاج نافذة محله المكسور . . لقـد بقي اللوح مكسوراً عـدة سنوات ، وكان الحاج محمود يبقي هـذا الـكسر كنصب تذكاري لشقاوة أولاد الحارة الذين ضربوا الكرة خطأ في اللوح ، ومنذ ذلك اليـوم حرص الأولاد عـلى أن يلعبوا في النـاحية الأخـرى من الحارة بعيداً عن محل الحاج محمود ، ولكنه مع ذلك أبى أن يصلح الزجاج المكسور ، ولم يهتم بالبرد القارس يدخل منه فيرتعش الزبائن لأنه أراد بهذا الإهمال في التصليـح أن يعلن احتجاجـاً صامتـاً على قلة أدب الأولاد الـذين أخـطأوا طـريق الجـول فـاستقـرت الكـرة في دكـان البقال ! . . ولكن الحاج محمود نسي هذه « الأسيـة » ورضي من تلقاء نفسه إصلاح الزجاج ، لكي تصبح « بقالـة الأمانـة » كاملة زينتهـا

أمام الضيوف الذين يحضرون إلى الحارة لمناسبة خطبة ابراهيم إلى نجمة الجماهير ! . .

إن الحارة كلها في فرحٍ دائم منذ إعلان خطبة ابراهيم ! . . حتى بنات الحارة سعيدات بالنبأ السعيد . . إن واحدة منهن لم تطمع في أن يخطبها ابراهيم . . إن واحدة لا تجرؤ أن تعتبر نفسها منافسة لسهير . . على العكس إن كل واحدة من بنات الحارة تتصور أن ظهور إسم حارة السد البراني على خريطة العالم لأول مرة سيتيح لها زيجة سعيدة . . كأن إبراهيم حطم الجدران التي كانت تخفي حارة السد البراني عن العالم ، وكأنه نقل حارة السد البراني من حي السيدة زينب إلى الزمالك ، وجاردن سيتي ، وجعل بناتها المنسيات تتسلط عليهن الأضواء والأنوار ! . .

كانت الحارة كلها سعيدة أنها « ناسبت » ملكة ! . . وكانت سهير ملكة فعلاً ! . . كانت تتربع على عرش المسرح بلا منازع . . وكانت الدنيا تتحدث عنها باعتبارها الكوكب الذي سطع في سماء الفن وحنى الجميع رؤوسهم لها ! . . وكانت سهير لا تظهر في مكان عام إلا ويحتشد الألوف حول سيارتها يصفقون لها ويهتفون ! . . وكانت البضائع الجديدة تسمى باسمها فظهرت زجاجات عطر باسم« سهير » وظهر حرير جميل باسم « حرير سهير» وظهرت شوكولاتة تحمل « صورة سهير » ! . .

وعندما كانت دار سينما السيدة تعرض فيلماً لسهير كان ميزان المدفوعات يختل في دكان الحاج محمود ، لأن أهل الحارة جميعاً يتوقفون عن الدفع ويلجأون إلى الشراء بالشكك ، ليتمكنوا من حجز تذاكر في فيلم سهير الجديد ! . .

ولكن منذ أسابيع عاشت حارة السد البراني في حلم ! . . إن سهير انتقلت من الشاشة إلى الحارة ! . . ولم يعودوا يرونها من بعيد وإنما هم يرونها بأعينهم . . يرونها وهي تنتظر إبراهيم في سيارتها على مدخل الحارة . . ثم رأوها بلحمها ودمها وعظمتها تضع يدها على سقاطة بيت إبراهيم ، وتدق السقاطة إلى أن تفتح لها « خالتي أم عزيز » ، وترحب بها ، وتدعوها للدخول لتزور ابراهيم الذي كان مريضاً بالأنفلونزا . . ويومها خرجت الحارة عن بكرة أبيها تنتظر سهير وتصفق لها وتهتف ، ووقفت سهير تلاعب الصغار ، وتلاطف الكبار ، وأحست الحارة أن هناك صداقة بين سهير العظيمة وابراهيم الصغير ، ولكن أحداً لم يتصور أنها علاقة ترتفع إلى علاقة حب ! . . إن المتفائلين منهم تصوروا أنه تواضع من الفنانة العظيمة أن تشجع الفنان المغمور . . ولكن عندما قرأوا العناوين الضخمة في الصحف عن الخطبة رقصوا من الفرح ! . . تصوروا أن الحارة حققت نصراً عظيماً ! . . تصوروا أن كل واحد منهم هو الذي خطب النجمة الكبيرة ومحبوبة الجماهير ! . .

وكان هذا النبأ أشبه بعصا سحرية مست حارة السد البراني . . أثرت في كل شيء في الحارة . . كأنها حولت أنقاضها إلى قصور ، وبيوتها القديمة المتداعية إلى عمارات شاهقة ، وسكانها المغمورين المنسيين إلى أشخاص جدد يختلفون كثيراً عما كانوا عليه قبل أن تشير إليهم أعمدة الصحف وعناوين الأخبار ! . . لقد كان مفهوماً بطبيعة الحال أن يصبح المعلم سلطان الجزار صاحب البيت الذي يقيم فيه إبراهيم أكثر رقة وأدباً ولطفاً . . لم يعد يطالبه بالإيجار المتأخر . . لم يعد يشتمه ويشتم الفنانين والأراجوزات ويلعن اليوم «المهبب» الذي أجر فيه غرفة في السطوح لبهلوان لا يدفع الإيجار بانتظام ! . . أصبح

المعلم سلطان يقرىء إبراهيم السلام في صعوده ونزوله ، ولكن الذي لم يكن مفهوماً أن يوزع المعلم سلطان عطفه السامي على باقي السكان ، وأن يلاطفهم ، وأن يتبادل معهم النكات !.. وهو أمر غريب بالنسبة لسكان المنزل رقم « ٧ » بحارة السد البراني ، الذين لا يذكرون طوال هذه السنين وجه المعلم سلطان إلا عابساً مقطباً ، يسب الحاضرين والغائبين ، الذين يسددون الإيجار في موعده ، والذين يماطلون في السداد .. ولكنه الآن أصبح رجلاً آخر في معاملته للسكان ، وفي تحيته للأطفال ، وفي ابتسامته التي ولدت فجأة على شفتيه ، فبدت خلف شاربه المفتول الكثيف غريبة في مكان لم يشهد من قبل مثل هؤلاء الغرباء !..

***

و« سنية » بنت « أبو عوف أفندي » الساعي بالبوستة حولها النبأ السعيد إلى فتاة أخرى !.. لم تعد تتحدث عن يوسف صبي المكوجي بأنه عريس لقطة ، وبأنه فتى العصر الذي وصل إلى باب الحارة في ليلة القدر ، وإنما هي تتحدث عن حظ يوسف الحسن لأنه تقدم لخطبتها قبل إذاعة النبأ الهام ، وإنه لولا أنها أعطت « كلمة » لما رضيت بالمكوجي أو حتى شيخ المكوجية !..

أما « أبو عوف أفندي » فهو يرى أن الموقف قد تغير ، وأنه إذا كان قد قبل نسب يوسف صبي المكوجي في الماضي ، فقد كان السبب في هذا أن حارة السد البراني كانت تحت الأرض وكانت بعيدة عن خط التنظيم .. أما الآن فقد صعدت حارة السد البراني إلى فوق الأرض ودخلت في خط التنظيم .. وهذا يقتضي تغييراً في الاتفاق الاقتصادي الذي عقده أبو عوف أفندي مع أم يوسف والدة صبي

المكوجي ! . . لقد قبل في الماضي مهراً قدره ثلاثون جنيهاً ولكنه اليوم لا يقبل مهراً أقل من مائة جنيه ! . .

إن « أبو عوف أفندي » مضطر أن يشتري جهازاً ملائماً لأن المفروض أن « سهير » سوف تجيء وتزور « سنية » التي التقت بها على السلم مرتين أثناء زيارتها « لابراهيم » . . ومن غير المعقول أن تجيء النجمة « سهير » إلى زيارة منزل حقير لم يدفع « يوسف » في تأثيثه أكثر من ثلاثين جنيهاً ! ثم إن « أبو عوف أفندي » تورط عندما قبل ألا يقيم « يوسف » فرحاً ويكتفي بكتب كتاب . . . ولكن الآن لا يستطيع « أبو عوف أفندي » أن يقبل مثل هذا الهوان ! . . إنها فرصة لإقامة فرح كبير تحضره سهير ويحضره إبراهيم . . ويجب أن نذبح خروفاً ، ويجب أن نجيء « بعالمة » تزف سنية ! . .

وتجيء « الحاجة خضرة » زوجة « أبو عوف » وتشترك في المناقشة الدائرة . . وترى أن « عوض أفندي » ليس رجل الملمات . . لا ينفع ولا يسد . . إن الموقف أخطر من أن يحل برفع مهر « سنية » من ثلاثين جنيهاً إلى مائة جنيه . . إن المسألة مسألة مبادىء لا مسألة تفاصيل . . هل « الولد يوسف » يليق بمقام « سنية » في ظروفها الجديدة أم لا ؟! . . هل من الحكمة المضي في زيجة كهذه ما دامت البنت بدأت تتردد ، وبدأت تُقارن بين صبي المكوجي ، والأفندية الصحفيين الذين ملأوا الحارة وراحوا يوجهون إليها كلمات الغزل ، والتحية ، والإطراء في صورة أسئلة وأجوبة ، لمناسبة خطبة الموسم بين « سهير وابراهيم » ؟ . . و« الحاجة خضرة » تخشى على ابنتها «سنية» من الفتنة . . . إن المسكينة لم تكن رأت قبل الآن في الحارة هذا العدد الضخم من الأفندية ، والبهوات . . وكانت تتصور أن

« يوسف » صبي المكوجي هو أكثر شباب الحارة أناقة بعد « إبراهيم » ! . . ولم يكن « ابراهيم » معروضاً في يوم من الأيام في سوق الزواج في الحارة . . كان الجيران يعرفون أنه يعمل في « التياترو » والذين يعملون في المسارح لا يتزوجون ولا يفكرون في الزواج . . ولكن الانقلاب الضخم الذي حدث في الحارة بخطبة «ابراهيم » غيَّر وبدَّل في المقاييس ، وأصبحت « الحاجة خضرة » ترى أن من التسرع التمسك بمثل هذا الزواج غير المتكافىء بين « سنية » و« يوسف » صبي المكوجي ! . .

ويعترض « أبو عوف » أفندي ويقول أن « سنية » أعطت كلمة ، وهو أعطى كلمة ، ولو كانت المسألة كلاماً بين النساء لأمكن فسخ الخطبة ، ولكن المسألة ارتفعت إلى مستوى كلام الرجال وأن كلمة الرجال لا يجوز أن تنزل الأرض ، حتى ولو أن العريس نفسه نزل الأرض نتيجة الزلازل ، والبراكين التي حدثت في الحارة فرفعت« سنية » إلى فوق وأنزلت « يوسف » إلى سابع أرض !. . ومن هنا يرى « أبو عوف » أن المسألة أدق من أن يبت فيها بقرار حاسم ، وأنه يفضل أن يلجأ إلى السياسة ، وأن السياسة هنا هي كسب الوقت ، ومحاولة فرض شروط جديدة يعجز « يوسف » عن الوفاء بها . . وبذلك نكون تمسكنا بكلمة الشرف ، ويكون « يوسف » هو الذي عجز عن القيام بتعهداته ! . .

وتجلس « الحاجة خضرة » . . « توشوش » ورق الكوتشينة وتمضي تتمتم بكلمات وهي ترصها في صفوف متوازية على « الكنبة » التي تجلس عليها ، ثم تصرخ قائلة : إن الورق لا يكذب ، وإنه يقول : إن هذا الزواج لا يمكن أن يتم، وإن « سنية » أمامها ثلاثة مواعيد وبعد ذلك نصرة قوية ! . .

ويسأل « أبو عوف » أفندي عن الثلاثة مواعيد . . وهـل معنى ذلك أن تنتظر « سنية » ثلاث سنين ؟! . .

وتشيح « الحاجة خضرة » بوجهها وتؤكد أن الثلاثة مواعيد هم ثلاثة خطاب وأن الرابع هو الخـطيب الكبير المقـام الذي سيخـطب « سنية » ، وأن إيراده سيكون عشرة أضعاف إيراد صبـي المكوجي على أقل تقدير ! . .

وإذا كانت المناقشة حامية في بيت « أبو عوف » أفندي فإنها أكثر عنفاً في دكان عم محمود البقال . . إن معركة قامت بين « عـويس » الساعي بديوان المحاسبة و« صميدة » المحولجي بالسكة الحديـد . . إن « عويس » يقول : إن « إبراهيم » سوف ينتقل إلى القصر الذي تملكه « النجمة سهير » في جاردن سيتي . إنه انتهز عطلة يوم الجمعة وذهب بنفسه ومر على القصر ، وهو يصف ضخامته . . إنه يبدو أكبر من ديـوان المحـاسبـة ! . . وفيـه حـديقـة أكـبر من حـديقـة ديـوان المحاسبة . . والبواب الجالس على الباب يتقاضى مرتباً أكبر من مرتب رئيس فراشي ديوان المحاسبة ، ومن الطبيعي أن لا تنتقل « سهـير » من مثل هذا القصر الضخم لتعيش في الغرفة الصغـيرة التي يسكنها « إبراهيم » في حارة السد البراني ! . .

ويثور« صميدة » المحوجلي على « عـويس » . . إن « إبراهيم » رجل ، والرجـل لا يقبل أن يعيش عـلى حساب ست ! . . وانـه ما دامت « سهير » قبلت أن تتزوج « ابراهيم » فيجب أن تنتقل إلى بيت « ابراهيم ». . ولو أن « سهير » أرادت أن تعيش في القصور لقبلت الزواج من الأمراء ، والباشوات ، الذين جاؤوا يـطلبـون يدها ! . .

ويتهم « عـويس » صديقـه « صميدة » بقلة العقـل ! . . كيف يعقل أن تقيم « سهير » في عشة فراخ ؟! . .

ويثور « صميدة » من جديد ويقول إن بيت « إبراهيم » ليس عشة فراخ ، وانه غرفة نظيفة محترمة لا ينقصها إلا حمام ! . . وإن « المعلم سلطان » صاحب البيت سوف يبادر ويحول إحدى الغرف إلى حمام ، وبذلك تتحول غرفة « ابراهيم » إلى شقة معتبرة . . ويقول « صميدة » إن شقيقه « شاكر » الكهربائي ، مستعد أن يرفع سقاطة الباب على حسابه الخاص ، ويركب بدلاً من السقاطة جرساً كهربائياً . . وبذلك يتحول منزل « المعلم سلطان » إلى بيت لا يقل شأناً عن بيوت العظماء والكبراء . . تضغط على الزر فيدق الجرس في غرفة « ابراهيم » ! . .

ويتدخل « المعلم محمود البقال » في المناقشة ويحاول أن يقسم البلد بلدين ، فهو يوافق « صميدة » على أنه لا يجوز « لابراهيم » أن ينتقل إلى بيت العروس ، بل الأصول أن تنتقل العروس إلى بيت العريس . . ولكنه يتفق مع « عويس » على أن غرفة «ابراهيم» الصغيرة لا يمكن أن تصلح بيتاً لنجمة عظيمة مثل « سهير » ، وأن الأمر يقتضي أن تبني « سهير » بيتاً في حارة السد البراني ، ويقترح « المعلم محمود » أن تشتري « سهير » بيت ست « زبيدة الخياطة » في أول الشارع ، فالست « زبيدة » محتاجة إلى قرشين وهي ترغب في بيع بيتها لتنفق على ابنها الذي سافر إلى ألمانيا لإتمام دراسته في الهندسة ، وهكذا تحل « سهير » مشكلة « زبيدة » وتشتري بيتها ، وتهدمه ، وتبني على الأرض « فيللا » عظيمة تليق بمقام « سهير » ، وفي الوقت نفسه تكون « الفيللا » على الشارع ، وبذلك تستطيع سيارة « سهير » الكاديلاك أن تقف على باب « الفيللا » . . أما الآن فإن هذه السيارة الضخمة لا تستطيع أن تدخل إلى حارة السد البراني

إلا بصعوبة ، ولهذا فإن « سهير » كانت دائماً تقف بسيارتها على ناصية الشارع ! . .

ويعجب « عويس » بالفكرة ، ولكن « صميدة » يتردد في قبولها . . هل يجوز « لابراهيم » أن يقبل أن تبني له « سهير » بيتاً ؟ . . ولكن « المعلم محمود » يهزأ بهذا الاعتراض ، ويقول إنه عندما يتزوج الرجل والمرأة تزول هذه الفوارق ، وتصبح نقودها نقوده ، وبيتها بيته ، وإنه يكفي أن يصر « ابراهيم » على أن يبقى في الحارة التي تحبه ويحبها ، وأن انتقال « سهير » إلى الحارة هو اعتراف كامل منها بالخضوع والولاء « لابراهيم » ! .

وتدخل « الست زبيدة » لتشتري من « المعلم محمود » بقرشين زيتون ، وبقرشين بيض ، وبقرش كمون . . ثم تطلب إليه أن يؤجل الدفع إلى أن تقبض ثمن الفستان الذي صنعته « لسنية » ابنة « أبو عوف أفندي » .

ويبتسم « المعلم محمود » ويوافق على الشكك ، ثم يبشر « الست زبيدة » بأن « الأزمة فرجت » وأن بختها من السماء ، وأنه وجد لها مشترياً لبيتها . . ويعرض « المعلم محمود » على « الست زبيدة » مشروعه الخطير ، ويضيف إليه حواشي وذيولاً وكأنه أصبح في لحظة مهندساً للمباني ، ومصمماً للأثاث ! . .

وتقول « زبيدة » إنها تطلب في البيت مبلغ ألف وخمسمائة جنيه ! . .

ويصرخ فيها «الحاج محمود» قائلاً :

ـ يا ولية بلاش طمع ! . . أنتِ قلتِ لي من أسبوعين انك

تتمنين أن تبيعي البيت بتسعمائة جنيه . . تدفعين ثلثمائة للدائنين ، وتخصصين الباقي للإنفاق على ولدك « إسماعيل » في ألمانيا !

وتتضايق « الست زبيدة الخياطة » من قوة ذاكرة « الحاج محمود البقال » ! . . وتنكر أنها قالت أنها تقبل مبلغ تسعمائة جنيه ! . . إن الذي قالته إن السمسار عرض عليها تسعمائة جنيه وإنها رفضت! . .

ويقسم « الحاج محمود » بالسيدة زينب وبالطلاق بأن « الست زبيدة » كاذبة ! . .

وتُحْرج « الست زبيدة » وتُعاتب « الحاج محمود » . . لماذا هذا الحماس ما دامت « سهير » هي التي ستدفع المبلغ ؟ . . و« سهير » غنية تستطيع أن تدفع بدل الألف ألفين وثلاثة آلاف ! . .

ويستعيذ « الحاج محمود » من طمع الطامعين ويقول : « إن « سهير » بعد أن خطبت إلى « إبراهيم » أصبحت ابنة الحارة ، وأصبح من واجبه أن يحافظ على مالها كما يحافظ على مال « إبراهيم » . . وأنه يكفي أن تشتري « سهير » البيت بمبلغ تسعمائة جنيه ، وتحل أزمة « زبيدة » . . ومن يعلم فقد تعجب « سهير » بخياطة « زبيدة » للفساتين ، وقد تجعلها خياطتها الخاصة ، وقد تتحول « زبيدة » من خياطة حارة السد البراني إلى صاحبة محل كبير للخياطة وتفصيل الفساتين ! . . »

وتبرق عينا « الست زبيدة » وتهز رأسها علامة الرضا والقبول ، وتمضي تتحدث عن كفاءتها في صنع الفساتين ، وكيف أنها لا تقبض في الفستان أكثر من خمسين قرشاً للتفصيل ، وان فساتينها أجمل من فساتين « شيكوريل » و« شملا » ، وإنما المسألة هي حظوظ ونصيب ! . .

ويطلب « الحاج محمود » من الصبي « عليوة » أن يقف في الدكان ليذهب مع « الست زبيدة » يعاين المنزل ، ويقف « صميدة » و« عويس» ويمشيان وراء « زبيدة » و« محمود » في طريقهما إلى المنزل المعروض للشراء . .

وبدأ « الحاج محمود » يشرح مشروعاً لهدم المنزل ويتكلم وكأنه مهندس خبير عن المدخل الجديد ، والدور الأرضي ، والدور الثاني ، ولون البياض ، ولون النوافذ ، إن « الحاج محمود » يتذكر فجأة أنه دخل في كل هذه التفاصيل والرسومات ولكنه نسي شيئاً واحداً ، وهو أن يعرض المشروع على « سهير » ! ولكنه لا يجرؤ أن يحدث « سهير » في مثل هذا الموضوع الدقيق . . إن كل الكلام الذي دار بينه وبين « سهير » لم يتعد جملة واحدة قالتها له « سهير » وهي خارجة من منزل « ابراهيم » : « إزيك يا حاج محمود » ! . . ويومها أطرق « الحاج محمود » إلى الأرض وقال : « رضا يا ست » ! . . وفهم « الحاج محمود » من هذه التحية أن « ابراهيم » حدث « سهير » عنه ، وأنه هو البنك الوحيد الذي يعامله « ابراهيم » ،ويقدم له السلف ، والضمانات ، ويقبض الكمبيالات ، والرهونات ! ولكن ، هل تكفي هذه التحية لكي يستطيع « الحاج محمود » أن يفاتح « سهير » في أمرٍ كهذا ! . . ويرى « عويس » الساعي بديوان المحاسبة أن المسألة تحتاج إلى « محاسبة » ! . . أي أنه يجب على « الحاج محمود » أن « يُحاسب » وهو يثير مثل هذا الموضوع ، وأنه من الخير للمشروع أن يُفاتح فيه « ابراهيم » أولاً ، ولكن « صميدة » يرى أن الوقت غير مناسب لمفاتحة « ابراهيم » في مثل هذا المشروع فإن القران لم يتم بعد ، ولا يصح أن تُثار هذه المسائل في أثناء الخطبة ، بل يجب تأجيلها إلى ما بعد الزواج ! . .

ويدب الخلاف من جديد ! . .

إن « الست زبيدة الخياطة » ترى أن المسألة لا تحتمل التأجيل ! . . وأن خير البر عاجله ! . .

و« صميدة » يصمم على أن إثارة المسائل المالية تؤدي دائماً إلى خلافات بين الأزواج ، وأنه لا يصح ولا يجوز من أجل مصلحة « الست زبيدة » المالية أن يحدث سوء تفاهم بين « سهير » و« ابراهيم »! . .

ويقول « عويس » : « إن الذي يعلمه أن الحب قوي جداً بين « سهير » و« ابراهيم » ، وأنه لا يمكن لقوة على الأرض أن تضعف هذا الهوى العظيم ، ولكنه مع ذلك يؤثر من باب الذوق تأجيل الحديث في هذا الموضوع مع « ابراهيم » ، ولكنه يرى أن يتصل « الحاج محمود » بـ « حسن أفندي الاسكندراني » ويقترح عليه أن يرسم مشروع « فيللا » تسكنها « سهير » و« ابراهيم » في مكان بيت « الست زبيدة » . . وبذلك عندما يجيء الوقت لعرض المشروع على « سهير » يكون « الحاج محمود » قد جهزت لديه صورة كاملة للمشروع العظيم ! . . »

ويودع الثلاثة « الست زبيدة » وهم يطمئنونها بأن كل شيء سيتم على خير . . ثم مضى الثلاثة يكملون مناقشاتهم في مشروع « الفيللا » وكيف أنه ممكن بناء عمارة سكنية فوق « الفيللا » من ستة أدوار لا من دورين فقط . . . ويمضون يتحدثون عن الفرح والزفاف والمعازيم والواجب الذي يجب أن تقوم به الحارة في فرح « سي ابراهيم ».

***

ويسمع « ابراهيم » وهو يغلق نافذة غرفته اسم « سهير » واسمه يتردد على شفاه « الحاج محمود » و«صميدة » و«عويس» ويسمع كلمات الفرح والزفاف والمعازيم ، تتردد على ألسنة الثلاثة ، ويسرع « إبراهيم » يغلق زجاج النافذة وهو يتنهد .

إن الحارة كلها تتحدث عن فرحه . . عن سعادته . . عن هنائه . . عن عروسه . .

وهو وحده الذي يعرف أنه في مأتم .

هؤلاء الجيران الذين يوزعون الشربات . . لو علموا الحقيقة لوزعوا القهوة السادة ! . .

هذه الأيدي التي امتدت إليه في الحارة تشد على يده مهنئة مباركة تردد كلمة مبروك . . مبروك . .

آه لو يعلمون أن اليد التي صافحوها مهنئين خلت من أجمل شيء فيها . . من دبلة الزواج .

لم يتنبه أحد لذلك . . لم يعرف أحد في الحارة ، ولا في البيت أنه كان يحمل جثة على ظهره وهو يتلقى التهاني ، ويستمع إلى الزغاريد . . إنها جثته هو . . جثة العريس الذي يحتفل كل فرد في الحارة بخطبته « للنجمة سهير » . .

وعندما دخل على أطراف قدميه إلى غرفته كان كل شيء يبدو مظلماً قاتماً كئيباً .

وعندما أضاء النور لم ير نوراً . . شعر كأن الليل والسواد والظلام رفضت أن تترك الغرفة وبقيت فيها ، وأن النور لم يضيء ، كل شيء في الغرفة بدا كأنه يعرف قصة نكبته ! . . الجدران يراها

وكأنها شاحبة . . الفراش الخالي كأنه يبكي . . قميص نومه المعلق يبدو فوق الشماعة كأنه رجل مشنوق ! .

الجماد في الغرفة يحس ببلواه . .

والأحياء خارج الغرفة يزغردون ويغنون ويتحدثون عن الفرح المقبل والعريس الجديد . . ماذا يفعلون لو خرج « ابراهيم » إليهم وألقى القنبلة ؟ . . انتهت الزفة قبل أن تبدأ . . ماتت الفرحة قبل أن تولد . . . إنهار كل شيء وتحطم . . الراية التي علقها « أبو عوف » على شقته ابتهاجاً بالخطبة السعيدة يجب أن تنكس . . الأثواب الجديدة التي بدأ أهل الحي يعدونها استعداداً للفرح لن يرتدوها . . الأحلام الحلوة التي تملأ قلوب أصدقائه ومعارفه سوف تتبخر .

ولكن قلبه لا يطاوعه على أن يخرج ويقول لأهل الحارة الحقيقة . ليتركهم يناموا حالمين مع السعادة . . وليبقَ هو وحده ساهراً مع الشقاء . . ماذا يخسر لو مد في عمر سعادتهم ساعات . . إنهم سيقرأون في صحف الصباح النبأ المشؤوم بالخطوط العريضة ، والعناوين الحمراء ، والسوداء : « فسخ خطبة سهير وابراهيم » . .

فلماذا يقدم موعد إذاعة الفاجعة . . لماذا لا يعطي أهل الحارة ليلة سعيدة أخيرة فوق الليالي السعيدة التي عاشوا فيها طوال الأسابيع الأخيرة . . لماذا لا يترك للصحف مهمة القيام بدور « البوم والغربان » تحمل نبأ نهاية الحلم للحارة التي عاشت في أجمل الأحلام ؟! . .

ولكنه في حاجة إلى أن يحدث أي إنسان . . إن الكارثة أثقل من أن يحملها على كتفيه وحده . . إن غرفته الضيقة لا تتسع له وللكارثة

معاً . . لقد فكر أن لا يعود إلى بيته ومضى يمشي في الشوارع على غير هدى . . ولكنه شعر كأنه غريب يسير وسط غرباء . . إنه في هذه اللحظة في حاجة إلى أشخاص يعرفهم ويعرفونه ، يحبهم ويحبونه . . إنه يرى كأن الشوارع كلها شامتة فيه . . كأن المصابيح الكهربائية تبتسم ابتسامة سخرية . . كأن كل طريق مشى فيه يصرخ فيه قائلاً : لماذا أنت هنا ؟ . . من أنت ؟ . . أيها الفاشل المهزوم . . وهو لهذا يتجه إلى بيته . . إلى غرفته . . إنه يريد أن يحدث المقعد الذي جلست عليه « سهير » يوماً . . يريد أن يناجي السرير الذي لمسته « سهير » عندما جاءت تعوده أثناء مرضه . . يريد أن يعترف للمصباح المضيء الذي سهر معه ليالي حبه وهواه وعذابه وضناه ثم سهر ليالي سعادته وهنائه ! . .

كل هذه الجمادات تعرفه . . إنها صديقة له . . إنها لن تشمت فيه ، إنها سوف ترثي له وتبكي له وتبكي معه ! . .

وهو قد عاد إليها ليحدثها . . ليحكي لها ماذا جرى ! . . ليبكي بين ذراعي الكرسي الذي ضم « سهير » يوماً ! ليمسح عينيه في ملاءة السرير التي رأت « سهير » تقترب منها لحظات : إن في هذه الغرفة جلست « سهير » وتكلمت وقالت له يا حبيبي !! ماذا بقي من هذه الكلمة ؟ ! . . هل بقي لها صدى في الأركان ؟ هل لا تزال ذبذباتها محبوسة هنا بين الجدران ؟ . . لا يمكن أن تكون هذه الكلمة ماتت أو ذهبت أو خرجت من الشباك المفتوح ! . . إنه لا يزال يسمعها ، لا يزال يرى حروفها مكتوبة في السقف وعلى الأرض وعلى الباب وفوق الشباك ! . . إنها هنا معه ! . . « يا حبيبي » إنها الكلمة الوحيدة التي بقيت ، وذهب كل شيء وتبخر وانتهى ! . .

لقد عاش في الجنة بضعة أيام وأغمض عينيه ليحلم ، ثم فتحهما ووجد نفسه مطروداً من الجنة !..

ليته ما دخل الجنة !.. ليته عاش طوال حياته محروماً !.. لم يذق فاكهتها .. لم ير أنهارها .. لم يسمع شدو طيورها .. لم يتمتع بكوثرها !.. إنه كان شقياً بالحرمان ، ولكن الحرمان الذي عاش فيه كان خيراً ألف مرة من بقائه في الجنة أياماً ، ثم خروجه منها إلى النار !..

لقد كان أسعد رجل في العالم فأصبح أشقى رجل فيه .. كانت الحياة تبتسم له وكل ما حوله يضحك .. الطيور تغني له ولا تبكي .. الشمس تشرق في وجهه ولا تغيب .. أوراق الشجر الذابلة تخضر من جديد .. الدنيا كلها تحولت إلى لحن راقص .. كل نغمة فيه لو وزعت على دموع الدنيا لجففتها ، ولو سمعتها أحزان الدنيا لانقلبت أفراحاً !..

كل هذا قد ذهب ... راح !.. انتهى !..

في لحظة واحدة استيقظ من ذلك الحلم الجميل الذي لم يدم سوى بضعة أيام على يقظة مروعة !.. الدنيا تعبس .. الحياة تكشر .. الطيور تئن وتنوح .. الشمس لا تطلع .. أوراق الشجر تتساقط وتدوسها الأقدام .. ألحان الحياة تحتضر !..

وراح « ابراهيم » يبكي ؟..

وبحث عن « عوده المهجور » وراح يغني !..

والفنان وحده هو الذي يبكي فناً وكأنه يبكي دماً !.. والفن الصحيح هو دموع يصورها وتسيل من الأنغام ..

واستيقظت أمه ! . .

كانت هذه أول مرة يدخل إلى غرفته ولا يقبل يدها . . لقد نسي الشيء الذي لم ينسه منذ أن عرف كيف يمسك يد أمه ويقبلها . .

وتقدمت هي نحوه وقبلت يده . . فقد كان هذا دورها ! . .

لم يقل لها شيئاً ولكنها فهمت ! . .

فهمت أن العرس تحول إلى مأتم . . والقلب الذي عاش الحب فيه قد تحول إلى قبر . .

وقالت أمه :

ـ اللهم احفظك من كلام الناس ! . .

حقاً . . لقد كان في حاجة إلى هذا الدعاء ! . .

ومضى « ابراهيم » يغني على « عوده المهجور » . .

إنه افترق عن حبيب ، والتقى بحبيب . . إنه هجر « سهير » واتصل « بالعود » الذي تركه كل هذه الشهور الطويلة لا يلمسه ولا يراه . . وفي بعض الأحيان ينسى أنه يعرف كيف يعزف على « العود » ! . . لقد علمه الجوع أن ينسى أنه كان موسيقياً في يوم من الأيام ، وأنه حاول أن يغني ، وأنه فشل وجاع ، ولم يجد أمامه إلا أن يحصل على وظيفة « كومبارس » في مسرح الفن الحديث . .

هذا المسرح الذي لا يعرف الموسيقى ولا يعرف الغناء ، ولكنه يمثل روايات الحب العنيف التي تمثل الأدوار الأولى منها « سهير » . . نجمة الجماهير ! . . من أجل أن يأكل اضطر أن يعتزل الموسيقى . . إن البطن هزمت الروح ! . . إن نداء الجوع كان أعلى صوتاً من نداء

الفن !.. ومن أجل هذا هجر « العود » ونسيه !.. ولكنه الآن يتذكره للمرة الأولى !.. كأنه حبيب جاء ليحل مكان حبيب !.. كأنه الصاحب الذي كان يبحث عنه في الشوارع وفي الطرقات وفي داخل غرفته نفسها ليقص عليه قصة هواه !..

ومضى « ابراهيم » يغني بصوتٍ مكتوم !.. وكأنه كان يلحن السمفونية الناقصة لشوبير.. موسيقى ، وزغاريد ، ورقصاً ، وسعادة ـ أنغاماً وأحلاماً .. وتهاني وأماني .. واللحن يسير إلى النهاية المتسقة مع البداية .. وفجأة ينتهي وتنقطع أوتار « العود» وتبقى السيمفونية ناقصة !..

* * *

كذلك كانت قصة حب « ابراهيم » ! . .

بدأت القصة منذ عامين ونصف عام ! . .

كانت « سهير » واقفة على المسرح تمثل دورها في مسرحية « ذهب حبيبي » ! . .

ولم يكن له دور في هذه الرواية ! . . إنها رواية ليس فيها شعب ، وليس فيها جمهور . . وكل أدوار « ابراهيم » كانت حتى ذلك الحين أن يكون هو الشعب أو الجمهور ، مهمته أن يدخل مع عشرات « الكومبارس » إلى المسرح ويدمدموا أو يزوموا أو يهزوا رؤوسهم ثم ينصرفوا إلى وراء الكواليس ! . . وها هو ذا جالس في الصالة يسمع « سهير » تمثل دور العاشقة في الرواية الجديدة . .

كانت الصالة مليئة بالمتفرجين . . لم يكن بها مقعد خال واحد . . إن المقعد الذي يجلس عليه هو كرسي خيزران أحضره له صديقه « فودة » عامل الصالة . . هو الوحيد الذي لم يشترِ تذكرة ! . .

ولكنه بعد دقائق شعر كأنه هو الذي اشترى التذاكر كلها ! . . أحس كأنه وحده مع « سهير » ! . .

وكأن الناس قد انصرفوا جميعاً ولم يبق سواهما !. . المتفرجون ، والممثلون ، والموظفون ، وكل من في الصالة تركوها لهما . .

هي . . وهو !. .

هي تناجيه. .

وهو يسمع !. .

هي تناديه. .

وهو يجيب . .

* * *

وفي هذه الليلة أحس أن شيئاً قد وُلد في قلبه !. . إنه مولد حب عظيم !. .

ولكن « ابراهيم » كتم هواه عن الناس ، بل حاول أن يكتمه عن نفسه !. . حاول أن يقنع نفسه أنه يتوهم ويتخيل ويحلم . .

وجلس « ابراهيم » وكتب لها رسالة غرام يكاشفها بهواه . . ولكنه تردد أن يرسلها . .

ماذا يحدث لو غضبت « سهير » لأن « كومبارس » صغيراً تافهاً يجرؤ أن يدنس محرابها بهواه !. .

من هو ؟

من يكون حتى يقول لـ «سهير» أنا أحبك ؟!. .

ماذا يحدث لو أن « سهير » سلمت خطاب الغرام لمدير الفرقة . . إنه لن يتردد في أن يفصله فوراً من وظيفته لأنه تجرأ وتطاول على الممثلة الأولى !. .

وإذا لم تسلم « سهير » الخطاب لمدير الفرقة فسوف تطلع زملاءها وزميلاتها عليه ، وسيجعلونه مادة للسخرية والاستخفاف بهذا المجنون الذي يتصور أنه من الممكن أن يحب « سهير » أو تحبه « سهير » ! . .

وكان يذهب كل ليلة إلى المسرح ويجلس في الكرسي الخيزران الذي يقدمه له صديقه « فودة » عامل الباب وكان يسمي بينه وبين نفسه هذه الجلسات مواعيد غرامية . . وكان سعيداً بهذه المواعيد ! . .

لم يكن يرى الناس المحتشدين حوله ، وأمامه ، وخلفه ، وفوقه . . كان يراها هي وحدها . . وكان يتصور كلمات الدور التي تنطق بها « سهير » كأنها موجهة له وحده دون سواه ! . . كان يتصور أن « سهير » تعنيها ، وتتجه بها إليه ، وتحدثه عن الحب حديثاً عذباً يملأ قلبه سعادة وهناء ! . .

وكان يلتقي بـ « سهير » في البروفات . . ويجلس بعيداً عنها . . كان يجلس صامتاً وكان يجد في صمته هذا بلاغة . . وكان يحرص ألا ينظر إليها ولكنها كانت تملأ عينيه . . وكان لا يتحدث إليها ، ولكن كان صوتها يملأ أذنيه ويتبعه أينما سار . .

وكان يشرب فيرى صورتها في الكأس . . وكان يدخن فيرى خيالها في دوائر الدخان . . وكان يحلم فيصادفها في الأحلام . . وكان يفتح الراديو فإذا صوتها يتابعه ولا يغيب عن سمعه . . وكان يمشي في الشوارع فيجد صورتها تغطي لوحات الإعلانات كأنها تشير إليه وتناديه . . وكان يفتح الصحف فيجد صورتها تبتسم له وتحييه ! . .

ولم يقل لمخلوقٍ أنه أحبها ! . . وكان في كثيرٍ من الليالي يجلس إلى جوار قطته « سمسم » ويحدثها ويمرر يده على شعر القطة وكأنه يمرر أصابعه في شعر « سهير » . . ثم يجد القطة تنفر منه مسرعة ! . . إذا كان هذا هو حال القطة معه . . فكيف يكون حال « سهير » ؟ . . وكان يمضي الليالي يحدث نفسه ثم ينتهي بسؤال نفسه : « هل جننت ؟ . . هل معقول أن أحبها ؟ . . كيف لمن على الأرض أن يصعدوا إلى السماء ؟ ! . . »

* * *

وذات يوم شعر أنه اقترب من أبواب السماء ! . .

كان ذلك يوم بدأ الأستاذ فريد كامل المخرج المشهور يوزع أدوار رواية « الحب الأول » وجلس الممثلون والممثلات جميعاً حول مائدة كبيرة جلس على رأسها المخرج الكبير . .

وبدأ المخرج ـ وهو صاحب المسرح أيضاً ـ يوزع الأدوار . .

دور البطلة تأخذه « سهير » طبعاً

دور المغني الأول يأخذه الممثل المعروف أنور حسين . .

ومضى المخرح يوزع الأدوار . . ثم فجأة التفت المخرج إلى « إبراهيم » وقال له :

ـ تعال يا « ابراهيم » ! . .

وتردد « ابراهيم » . . تصور أنه لم يسمع جيداً نداء المخرج ! ولكن المخرج اتجه إليه وقال : « الأستاذ ابراهيم عزيز . . . هذا دورٌ لك ! . . »

وقام « إبراهيم » متعثراً من مقعده واتجه إلى المخرج وإذا بالمخرج يسلم إليه نوتة ويقول :

ـ أنت تمثل دور عاشق « سهير » ! . .

ولم يصدق «ابراهيم» أذنيه . . وراح يتمتم : « عاشق سهير . . عاشق سهير ! . . أنا عاشق سهير ؟!» .

وقال المخرج :

ـ نعم أنت عاشق «سهير» . . إن دورك صغير وهو أن تقف في الفصل الأول وتقول لـ « سهير » :

ـ يا حبيبتي ! . . هذه هي الكلمة التي أريد أن أقولها لك . . إنني مكثت عامين ونصف عام أريد أن أقولها . . لم أجرؤ أن أنطق بها أمامك . . لم أجد الشجاعة أن أقول لك أنني أهواك . . كنت أشعر أنني صغير وأنتِ كبيرة . . أنا تافه وأنتِ عظيمة . . ولكني الآن فقط استطعت أن أتشجع وأنطق بها . . لست أعرف كيف حدث هذا ؟ . . لعل حبي أعطاني القوة والجرأة والشجاعة لأقولها . . لن يهمني ماذا تقولين . . يكفي أن تعرفي أنني أحبك . . وسأعيش أحبك وسأموت وأنا أحبك ! . .

سمع « إبراهيم » المخرج وهو يلقي دوره ، وقد فتح فمه دهشة . .

ورآه المخرج في ذهول فقال له : « مالك مذهول ؟ ! . . »

قال ابراهيم : « هل هذا دوري فقط ؟ ! »

قال المخرج : « نعم . . إنه أربعة سطور فقط . . وفجأة يدق الباب فتسرع وتقفز من النافذة . . ولا تظهر بعد ذلك في أي فصلٍ

من فصول الرواية . . ولكن يجب أن تلقي هذه السطور الأربعة بقوة . . بحرارة . . بإحساس . . إن الرواية كلها تدور على هذه السطور الأربعة فيجب أن يشعر بها المتفرج ويجب أن تبقى كلماتها حية في أذنيه طوال الفصول الأربعة ! . .

وراح « ابراهيم » يتمتم بكلماتٍ غير مفهومة وهو يقرأ لنفسه كلمات دوره . . الدور الذي كتبه مؤلف لم يعرفه ، ولم يتحدث إليه . . لو انه هو الذي اختار كلمات هذا الدور لما اختار غير هذه الكلمات ! . . هي بنفسها الكلمات التي تمنى طوال عامين ونصف عام أن يقولها « لسهير » . . تمنى أن يقولها « لسهير » ويموت . . تمنى أن تسمعه « سهير » وهو يعترف لها بهواه . . وها هي ذي الفرصة قد جاءت . . سيقول هذا « لسهير » في كل حفلة . . إن روايات « سهير » تمثل يومياً لمدة ستين يوماً بلا انقطاع . . سيقول لها ماتينيه . . وسيقول لها سواريه . . إنه يحبها وإنه سيعيش يحبها وإنه سيموت يحبها ! . .

ياما انت كريم يا رب . . كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ . . كيف فتحت السماء أبوابها وسمعت دعاءه . . كيف تحقق الحلم وحدثت المعجزة ؟ ! . .

وأفاق من هذا الذهول على صوت المخرج يقول له :

ـ هذا أول دور لك يا « ابراهيم » . . إذا نجحت فيه فستأخذ دوراً كبيراً ! . .

المهم أن تنطق هذه الكلمات بقوة وبحرارة وبإخلاص . .

وراح « ابراهيم » يكرر لنفسه . . بقوة . . بحرارة . .

بإخلاص . . آه لو يعلم المخرج ! . . إن هـذه العبارات قلتهـا قبل ذلك ألف مرة . . قلتها وأنا متيقظ وأنا نائم ! . . قلتهـا في البيت ، والـشـارع ، والمسرح . . هـذه العبـارات سرت في دمي ، وفي روحي ، وفي كياني . .

ومضى المخرج يوزع أدوار الرواية . . ولكن « ابـراهيم » لم يتنبه إلى شيء مما كان يقوله المخرج . . كان منكفئاً على النوتة الصغيرة التي فيها دوره ! . . كان يقرأ الكلمات وقد أغمض عينيـه . . إنها ليست كلمات جـديدة . . إنها كلمات قـديمة حفـظها من قبـل ، وردها ، وهمس بها ، وأحسها وعاشها ! . . ولكن كيف استـطاع هذا المؤلف العبقري أن يختار هذه الكلمات بالذات . . لا بد أنه أحب . . لا بد أنـه عشق . . لا بـد أنـه أحب « سهـير » مثلما أحبهـا . . إن هـذه الكلمات لا يمكن أن تُقال إلا « لسهير » وحدها ! . .

وارتعش « ابـراهيم » لهـذا الخـاطـر . . أيكـون المؤلف يحب « سهير » . . ولكنه لم يلبث أن طرد هذه الفكرة وقال لنفسـه : لعل هذه هي الطريقة الوحيدة في الدنيا التي يعبر بها الإنسان عن حبه . . إنها نبضات قلب ! . . هذه الكلمات هي صوت النبضات . . وكـل القلوب واحدة . . إن صوت النبض قـد يختلف من قلبٍ لقلب . . ولكن النغمة واحدة . . بعضها بطيء وبعضها سريع ولكن تعبيرها واحد في ملايين البشر ! . . وكذلك هذه الكلمات التي اختارها المؤلف للتعبير عن الحب . . إنها طبيعية ساذجة لا صناعة فيها ولا افتعال كما يحـدث عندمـا تضع أذنـك عـلى قلب إنسـان آخـر وتسمـع دقـات قلبه ! . .

ولكن لماذا اختاره المخرج دون سائر الممثلين والكومبارس ليقوم

بهذا الدور الغـريب . . هل فضحـه حبه وشعـر به المخـرج الذكي فاختاره لهذا الدور ؟ . . هل بدرت منـه بادرة فهم منهـا المخرج أن « ابراهيم » يحب « سهير » ؟ ! . .

وعاد « ابراهيم » يحاول أن يطمئن نفسه ، ويبعد هـذا الخاطـر عن مخيلته ! . . وراح يلوم نفسه على أنه يفكر هذه الأفكار السوداء في لحظة انتصاره العظيم ! . . إن الدور دور ضابط شاب متخرج حديثاً في الكلية الحربية . . ومن الطبيعي أن يختـاره المخرج لهـذا الدور ، فهو أصغر أعضاء الفرقة سناً ، وجسمه الرياضي يجعله صالحاً ليكون ضابطاً صغيراً شاباً ! . .

وانصرف المخرج والممثلون ، ووجد « ابراهيم » نفسه وحيداً في الغرفة ونوتة الدور في يده . . لم يحس بهم وهم يخـرجون ويـتركونـه وحيـداً . . وراح يمشي في الغرفـة جيئـة وذهـابـاً وهـو يـردد كلمات الـدور . . وينـطق كلمـة « يـا حبيبتي » هـامسـاً ! . . ثم بصـوت مسموع . . ثم هاتفاً بأعلى صوته ! . . وأقبل الفراش يحمل الصينية ويجمع فناجين القهوة الفارغة وينظف الطقاطيق . وتوقف لحظة وهو يستمـع « لابـراهيم » وهـو يـردد كلمات : « يـا حبيبتي . . يـا حبيبتي » ! . .

ولم يشعر « ابراهيم » أنه ليس وحده في الغرفة إلا عندما سمـع صوت تصفيق . والتفت مذعوراً ورأى الساعي يصفق وهو يضحك ويقول له :

ـ براڤو يا أستاذ ابراهيم . . لقد مضى عليَّ هنا عشر سنوات ولم أسمع كلمة « يا حبيبتي » جميلة لذيـذة رائعة كـما سمعتها الليلة من شفتيك ! . .

وابتسم « ابراهيم » وشعر براحة وسعادة . . هذا هو صوت الجمور . . إنه أحس به وهو ينطق الكلمة الحلوة . . شعر أنه ينطقها صادقة مليئة بالإحساس والشعور والانفعال ! . .

ومشى في الشوارع في طريقه إلى بيته يردد كلمات الدور ، ويصطدم بالمارة ، فيوبخوه ويلعنوه ولكنه لا يهتم بالتوبيخ واللعنات ، إنه مندمج في دوره الجديد . . إنه مشغول بترديد كلمة « يا حبيبتي . . إنني أحبك . . وسأعيش أحبك . . وسأموت وأنا أحبك » ! . .

ولم يلاحظ « ابراهيم » أثناء اندماجه في دور العاشق نظرات المارة الساخرة وإشاراتهم الضاحكة فقد حسبوه مجنوناً يحدث نفسه . . وعندما وصل إلى باب الحارة لم يحيِّ الجالسين كما اعتاد أن يفعل كل يوم ، ولم يمر على دكان « الحاج محمود » البقال ليعطيه الجريدة الصباحية التي اعتاد أن يتركها له ، لم يتوقف ليشوط الكرة الشراب التي يلعب بها أولاد الحارة كما كان يفعل كلما عاد إلى داره . . ونظرت « الحاجة صبحة » زوجة جاره « شلبي » التمورجي بقصر العيني . . نظرت من الشباك ورأت « ابراهيم » والتفتت إلى ابنتها « خضرة » وقالت لها : « سي ابراهيم باين عليه تعبان شوية » . .

وراح « ابراهيم » يصعد درجات السلم وهو يقول : « يا حبيبتي . . يا حبيبتي . . يا حبيبتي » ! . . ثم أغلق باب غرفته وراح يتجه إلى الشماعة ويناجيها وكأنها « سهير » في ذلك المشهد الأخير من الفصل الأول . . ثم يتجه إلى الكرسي الخيزران ويناجيه وهو يلقي نفس العبارات . . ثم يركع أمام السرير ويحدثه بنفس

كلمات الـدور . . ولم يكن « ابراهيم » يمـل التكـرار . . كـان هـذا الكلام نفسه قد قاله آلاف المرت في نفس المكان . . قالـه همساً . . قاله وهو ينظر حوله خشية أن يسمعه أحد ويظن أنه مجنون لأنه يحب « سهـير » ! . . ولكنه في هـذه المرة يقـوله لأول مـرة بصـوتٍ عـال مسمـوع ! . . إن هـذا دوره في الـروايـة . . إن هـذا عمله الـذي سيتقاضى عليه أجراً ! . .

ما أغرب مصادفات الحيـاة . . الجملة التي كان يـود أن يدفـع حيـاته ليقـولها « لسهـير » سوف يقـولها لهـا ويتقاضى ثمنـاً لها ! . . الكلمة التي كان يحبسها في قلبه سـوف يقولهـا أمام الألـوف ، وربما أذاعها الراديو عندما تذيع الإذاعة المسرحية كما تفعل مع كل مسرحية تشترك فيها « سهير » ! . .

وكان « ابراهيم » ينطق الكلمات وكأنـه يغنيها . . وكـان يتلوها كأنها صلاة . . ويرددها كأنها ابتهال . . ويكررها كأنها مناجاة . . ثم يهمس بها ، ثم يرفع صوته وكأنه يريد أن يسمع الـدنيا كلهـا نداءه « لسهير » . . يا حبيبتي ! . .

ما أسعد حظه . . إن أول دور حقيقي يكلف به دور لا يحتـاج إلى تمثيل . . إنه سيمثل شخصيته هو . . سينطق بالكلمات التي يحس بها . . سيناجي المرأة التي يعبدها . . إنه ليس في حاجة إلى مران . . وليس في حاجة إلى بروفات . . وليس في حاجة إلى مجهود للاندماج في الـدور . . إنه سيتصرف تصرفـاً طبيعياً . . إنـه سينسى الألـوف الجـالسين في الصـالة . . إنـه سيتخيل أنـه هو و« سهـير » وحدهمـا وسيقول لها الكلمات التي تمنى أن يهمس بها في أذنها . .

لن يصدق الناس أن هـذا دوره الأول . . لن يصدقوا أن هذه

أول مرة ينطق بها على المسرح . . لقد سبق أن وقف على المسرح في أدوار بكماء لا يقول كلمة ولا ينطق بحرف . . ولكنه في هذه المرة سينطق . . سينطق الجملة التي تدور عليها الرواية كلها ، بل الجملة التي تدور عليها حياته كلها . .

وكان ينظر إلى الساعة يتعجل الصباح . . ولم يستطع أن ينام . . كان يرى الوقت يمضي بطيئاً كأنه راكب سلحفاة . . كان في الماضي يتوسل إلى الليل أن يبقى ليسمع الليل أنينه وعذابه وحرمانه . . ولكنه اليوم يتوسل إلى الليل أن يذهب ويجيء الصباح ومعه الساعة العاشرة صباحاً حيث موعد البروفات . . وفي الساعة الثامنة صباحاً كان « ابراهيم » واقفاً على باب المسرح . . ووجد المسرح مقفولاً . . إن الفراش المكلف بفتح باب الممثلين لم يحضر بعد . . وراح « ابراهيم » يقطع شارع عماد الدين ذهاباً وإياباً . . ينظر بين وقتٍ وآخر إلى ساعته يتعجل ساعة البروفة . . الساعة التي سوف يثبت فيها كفايته كممثل وكفايته كعاشق . .

ويمشي في شارع عماد الدين . . شارع المجد . .

***

ما أغرب شارع المجد . . إن النجوم لا تسطع في سمائه ، وإنما تمشي على قدميها فوق رصيفه . . الهواء الذي فيه اختلط بأنفاس الحالمين وبزفرات الفاشلين . . أرضه لمست أقدام الخالدين ورؤوس الخاملين . . مشى فيه السكارى يتمايلون ويرقصون بفعل الخمور التي شربوها . . ومشى فيه ملايين كالسكارى وما هم بسكارى . . يتمايلون أيضاً ويرقصون على أنغام حفظوها ، أو عبارات سمعوها من فوق خشبة المسارح المتناثرة في الشارع الكبير . .

وقد رأى هذا الشارع حفاة أصبحوا ركاب سيارات ، كما شاهد أصحاب سيارات تحولوا إلى حفاة . . رأى ثروات تُصنع وثروات تضيع ، ونجوماً تضيء ، ونجوماً تهوي . . وشاهد مؤلفين يحملون القصص وكأنهم باعة متجولون ، يحاولون أن يبيعوا كلامهم بأرخص الأثمان ولا يجدون من يشتريه ، وكم كنس الكناسون أوراقاً ممزقة كانت أحلاماً . . وكم ازدحمت صناديق القمامة بروايات تصور مؤلفوها أنها خالدة . . فإذا هي تخلد مع علب السجائر الفارغة وبقايا الأطعمة التي ألقاها رواد المسرح . . وكم داست الأرجل ألحاناً أو قصائد أو أغاني وضع مؤلفوها فيها عصارة قلوبهم . . كتبوها بدمهم . . ولحنوها بأعصابهم . . وغنوها بأناتهم ، فلم تجد طريقها إلى المسارح ، ولكنها وجدت طريقها في أرض شارع المجد الكبير . .

وكل شيء في الشارع يضيء ويخبو . . أنوار تسطع ثم تنطفىء ، ونجوم هذا الشارع كأنواره تعلو وتهبط . . وهو يبدو شارعاً واسعاً ، ولكنه في الحقيقة ضيق . . لا يتسع إلا لبضعة أشخاص يمشون في وسطه في موكب الناجحين ، ولكن أرصفته فرشت بأشلاء أولئك الذين حاولوا وفشلوا ، أو ظهروا ثم اختفوا ، أو تألقوا ثم هووا . .

وفي هذا الشارع بقايا قلوب . . عاش فيها الحب والغدر جنباً إلى جنب ، والإخلاص مع الخيانة ، والهوى العذري مع الفجور ، وفي زواياه متاجر . . . ولكن أكثر صفقات التجارة بيعت خارج متاجره . . باع ممثلون ملابسهم ليأكلوا ، ورهنوا ساعاتهم ليبقوا في هذا الشارع العجيب ، وباعت غانيات أشياء كثيرة أغلى من الملابس والساعات وأرخص منها . . ليشترين تذاكر الدخول إلى الشارع الكبير . .

وفي زحام الشارع ترى المعجبين والهواة . . أولئك الذين عشقوا الفنانين ، وأولئك الذين عشقوا الفنون . . وأنت تستطيع أن تفرق بين هؤلاء وهؤلاء . . المعجبون في ملابسهم الأنيقة ، والهواة في ملابسهم الممزقة . . المعجبون يبحثون عن الحب ، والهواة يبحثون عن المجد ، ولكن كلاً منهم يمشي في الشارع ليجد في نهايته السراب ! . .

وفي الشارع بعض مقاهي متناثرة . . جلس عليها الموسيقيون وأمامهم آلاتهم الموسيقية . . ينتظرون فرحاً أو حفلة أو صديقاً يدفع عنهم حساب القهوة والشاي . .

وترى صغار الفنانين يمشون في خيلاء كأنهم كبار ، يقلدون النجوم في طريقة سيرهم ، وفي إطلاق شعورهم ، وفي شواربهم ، ولكنهم لا يستطيعون تقليدهم في تمثيلهم وغنائهم . .

ويسمع هنا وهناك ضحكات . . قليلٌ منها صادق ، وكثيرٌ منها تمثيل . . فإن عدد الجياع في هذا الشارع أكثر من عدد الآكلين ، ونسبة الفاشلين أضعاف نسبة الناجحين . . ولكن لوثة الفن تضيع بعد فترة عقول الفنانين ، فتراهم يضحكون بدلاً من الأنين ، ويرقصون وهم يتلوون ، ويتقاذفون الشتائم وهم في الواقع يتبادلون التحيات.

وبين لحظة وأخرى تمر سيارة فاخرة . . ويتطلع الجالسون في المقاهي إلى ركاب السيارة . . وهم لا يجدون دائماً فيها نجماً أو كوكباً ، فإن كثيرين من النجوم لا يجدون أجرة الترام ، ولكن بعض راكبات هذه السيارات الأنيقة تألقن في الخدور أكثر مما تألقن على المسرح ، واكتفين بمعجبٍ واحد عن آلاف المعجبين ، وحولت

بعضهن نفسها إلى مسرح ، تُباع تذاكره كل ليلة ، وترفع فيه الستائر ، ولا تسدل إلا بعد طلوع النهار . .

وهؤلاء الغانيات هن « ممثلات الحب » اختصرن الطريق ، أو خُيِّل إليهن أن هذا هو الطريق ، وانحرفن من شارع المجد إلى حارة الهوى ، يبعن فيها ويشترين . . وهؤلاء المسكينات يبدأن بالسيارات الفاخرة وينتهين بعربات الأوتوبيس . . يبعن بالقطاعي وبأرخص الأثمان ما كان يجب أن يُباع بالجملة بأغلى الأثمان . .

ولكنهن جزء من هذا الشارع لأنهن ضحاياه ، ينتهين دائماً إلى جوار صناديق القمامة إن لم ينتهِ مصيرهن في داخل هذه الصناديق . .

وانتهى من تأملاته ووجد نفسه أمام باب المسرح من جديد . .

وبدأت البروفة . . وأقبل الممثلون والممثلات وفي أيديهم « نوتة الدور » ولكن « ابراهيم » وحده لم يكن في يده نوتة . . لم يكن في حاجة لأن يقرأ دوره في كراسة . . إنه يحفظ كل كلمة في الدور ويحسها . . إنه ينطقها بمشاعره . . بقلبه . . بنبضاته . . إنه يعيشها ويعيش فيها . . إنه عاش ٢٤ ساعة كاملة يرددها ، ويغنيها ويهمس بها ، ويصرخ بها ، وينام وهو يرددها ، ويمشي في الشارع وهو يتلوها ، ويأكل وهي تختلط بالطعام فيحس كأن طعم الطعام تغير . . ازداد حلاوة بكلمات الحب التي سوف يرددها أمام « سهير » .

وأقبلت « سهير » ولمحها « ابراهيم » وهي تقترب فخفض بصره إلى الأرض . . لم يتقدم نحوها . . لماذا يسرع وبعد لحظات سيقترب منها . . سيحيط خصرها بذراعيه . . سيضمها إلى صدره . .

سيهمس في أذنها بكلمات هواه وحبه . . سيعترف لها أمام الممثلين والممثلات بالسر الذي كان يكتمه في صدره . . سيقول لها إنني أحبك . . وسأعيش أحبك . . وأموت وأنا أحبك! .

ويصفق المخرج بيديه معلناً بدء البروفة . . وتسرع « سهير » تأخذ مكانها على المسرح . .

ويتقدم « الريجيسير » نحو « ابراهيم » ليعدل من وقفته بجوار « سهير » . . وتبدأ القصة . .

ويتقدم « ابراهيم » إلى « سهير » فيمد إليها ذراعيه . . ويقترب منها إلى أن يلمسها ويأخذها بين ذراعيه ، ويقول لها : « يا حبيبتي . . . هذه هي الكلمة التي أريد أن أقولها لك ، ، إنني أحبك . . وسأعيش أحبك . . وسأموت وأنا أحبك ! . .

ويشعر « ابراهيم » كأن « سهير » ترتعش بين ذراعيه وهي تسمع نجواه . . وفجأة يصرخ المخرج فيقطع الحلم الجميل .

إن المخرج يصرخ في « إبراهيم » : « موش كده . . مفيش في كلامك حرارة . . مفيش حماس . . مفيش إخلاص . . أنت تمثل . . أنا لا أريد تمثيلاً . . أنا أريد شعوراً حقيقياً » .

ويستنجد « ابراهيم » « بسهير » بعينيه . . لعلها تقول شيئاً . . ولكن « سهير » تقف صامتة . . كأنها هي الأخرى توافق المخرج على أن عبارات هواه ليس فيها حرارة ولا حقيقة ولا إخلاص . .

ويعاود « ابراهيم » تمثيل الدور من جديد . . ولكن المخرج يقاطعه قبل أن ينتهي من ترديد كلماته ويصرخ فيه وهو يقول :

ـ أنت ما تنفعش . . أنت غير مندمج في الدور . . مفيش حرارة . . مفيش حقيقة . . مفيش إخلاص ! . .

ويتقدم المخرج نحوه ويبعده جانباً ثم ينادي الممثل « محمد أبو حسين » ويقول له وهو يعطيه الرواية التي في يده :

تعال يا « محمد » . . خذ أنت الدور ! . .

وينظر « ابراهيم » بحسرة . . إن المخرج لم يأخذ منه الدور فقط . . إنه أخذ منه حياته . . أخذ منه « سهير » . . وها هو ذا يعطي الدور « لمحمد أبو حسين » . أهو الذي يمثل الهوى الحقيقي ؟ . . إنه كثيراً ما يسخر منها ويهزأ بها في غيابها . . هذا الممثل بالذات هو الذي سيُناجي « سهير » . .

ويمسك « محمد أبو حسين » بالنوتة ويقرأ منها الكلمات .

ويشعر « ابراهيم » أن الكلمات تخرج من فم « محمد » باردة متجمدة ميتة . . ولكن المخرج يصيح ويقول :

ـ مضبوط ! . . كويس يا « محمد » ! . . أنت عبرت بصوتك عن الحب أحسن تعبير ! . .

ويفتح « ابراهيم » فمه دهشة ! . . يا لسخرية القدر ! . . هو لا يمثل الحب الحقيقي و« محمد أبو حسين » هو الذي يمثل الهوى الحقيقي ؟ . . هو بارد ليس فيه حرارة العاشق و« محمد أبو حسين » هو الذي يشعر ويحس بالهوى والغرام ؟ . .

* * *

ويجر « إبراهيم » قدميه ويعود إلى الكواليس . . في عينيه دموع تحجرت ، وفي قلبه مأتم للأمل الذي عاش ٢٤ ساعة ثم مات فجأة ! . . مات قتيلاً بسكين المخرج الذي لا يعرف الحب ! . . لو

أنه عرف الحب ! . . لو أنه ذاق الحب لعرف أن كل كلمة قالها وكل عبارة رددها مصنوعة من خفقاته وتنهداته ودمه وأعصابه ! . .

ومضى « ابـراهيم » يـردد لنفسـه : مفيش حـرارة . . مفيش حقيقة . . مفيش إخلاص ! . .

وتكررت البروفات ، و« ابـراهيم » يحـرص عـلى حضـورهـا ، ويحرص أن ينتبه وهو يسمع الممثل « محمد أبـو حسين » يـردد كلماته « لسهـير » . . ويرى المخـرج وهو يهـز رأسه إعجـاباً بهـا ! . . إنه يسميهـا كلماته ! . . إنها في رأيـه ليست كلمات الـروايـة ولا كلمات الـدور . . إن هذه الكلمات كُتبت ليقـولهـا هـو وحـده ! . . ولكن الكلمات سُرقت من فمـه . . سُرقت ولم يستطع أن يـدافـع عنهـا أو يحميها . . وها هو ذا يجد شخصـاً تافهـاً بارداً لا إحسـاس فيه ولا عاطفة يرددها كـالببغاء . . ثم هـا هو ذا يجـد المخرج والممثلين . . و« سهـير » نفسها . . لا يعـترضون ! . . كـأن الممثل الجـديد يـردد كلمات الحب كما يجب أن تكون ! . .

وبدأ تمثيل الـرواية عـلى المسرح ، وكان « ابـراهيم » يجلس في الصالة يسمع غريمه في الدور وهو يناجي حبيبتـه ، فيشعر كـأن هذا الممثل سرق حبيبته منه . . خطفها من بين ذراعيه . . كأنـه يعتدي على حقه الشرعي في أن يناجي « سهير » بعبارات الحب والهيام . .

وذات ليلة أقبل عليه « الريجيسير » يبلغه البشرى ! البشرى التي ظن أنها أشبه بالحلم . . إن الممثل « محمد أبو حسين » مرض فجأة ، واتصل بالمسرح يقـول أنه لن يستـطيع الحضـور الليلة ، وأن مديـر المسرح أمر بأن يمثل « ابراهيم » دور حبيب « سهير » هذه الليلة وأن عليه أن يستعد . .

ويسرع « إبراهيم » يعانق « الريجيسير » ويقبله فيدفعه بيده ويقول : الله ! . . أنا موش « ست سهير » ! . . ويقفز « إبراهيم » يعدو إلى داخل المسرح . ويخلع ملابسه ويرتدي ملابس الضابط ، ويقف أمام المرآة يرى نفسه في دوره الجديد . . ينظر إلى ساعته يترقب لحظة ظهوره على المسرح . . إنه يعرف أن دوره يبدأ الساعة العاشرة و١٧ دقيقة ! . . ويستمر إلى الساعة العاشرة و١٨ دقيقة ! . . دقيقة واحدة ولكنها أجمل من العمر كله ! . . بل تساوي العمر كله ! . . ويتلفت « ابراهيم » إلى الساعة وينظر بحقد إلى عقارب الساعة البطيئة التي لا تتحرك . .

وفجأة يقترب عقرب الدقائق من الساعة العاشرة والربع ويدق الباب ويدخل « الريجسير » يقول له :

ـ الحمدلله ! . . الأستاذ « محمد أبو حسين » وصل دلوقتي وراح يمثل الدور الليلة . . تعبناك يا أستاذ « ابراهيم » ! . .

وينظر « ابراهيم » إلى صورته في المرآة ويبدأ في خلع ملابس الضابط وكأنه ينتزع قلبه من جوانبه ! . .

***

ومضت الأيام . .

إنتهى المخـرج من تـوزيـع أدوار المسرحيـة الجـديـدة « الحب المحـطم » وزع أدوارهـا عـلى الممثلين والممثـلات ولم يعطِ المخـرج « ابـراهيم » دوراً ! . . إن دوره أيضـاً كومبارس يـردد اللحن مـع المجموعة . .

ونظر المخرج إلى ساعته ثم قال وهو يقوم من كرسيه : « موعـد البروفة الأولى غداً الساعة الحادية عشرة صباحاً . . »

وقام الممثلون والممثلات من مقاعدهم ، يسارعون إلى الخروج وبقي مقعدان مشغولان ، مقعد « ابراهيم » ، ومقعد الممثلة الأولى « سهير » . .

ـ وارتعش « ابراهيم » وهو يسمع صوتاً . . صوت « سهير »

كانت « سهير » ممسكة بالنوتة التي فيها دورها وتنظر في سطورها وتتكلم بعبارات هامسة . .

ـ أنا عارفه انك تريد أن تكلمني على انفراد ! . . أنا عارفه انك تـريد أن تقول لي شيئاً في صدرك ، وأنا أريـد أن أقول لـك شيئاً في صدري . . عارفه انك تريد أن تقول . . إنك تحبني ! . . وعاوزاك تعرف أنني أريد أن أقول لك . . إنني أحبك ! . .

وانتفض « ابراهيم » في مقعده ، ونظر إلى « سهير » فوجدها لا تزال تقرأ في نوتة الدور التي في يدها . .

وراح « ابراهيم » يتلفت حوله . . هل سمع صوت « سهير » حقيقة أم أنه تخيل أنه يسمعها ؟ . . هل هي تحدثه هو أم أنها تقرأ دورها في الرواية الجديدة ؟ . .

هل توجه كلامها إلى الجماهير . . أم أن « ابراهيم » هو « جمهورها » الوحيد ؟ . .

مستحيل أنها تقصده هو ! . . لا بد أنها تمثل ! . . لا بد أنها « بروفة » ! . . هل من المعقول أن تقرأ أفكاره ؟ . . أن تنطق بالكلمة التي يريد أن يقولها . . أن تعبر بهذا الأسلوب الساذج البسيط عن الحب العظيم الذي يملأ كل نقطة في دمه وكل خفقة في قلبه ؟ . .

هل من المعقول أن تعبر ممثلة الحب الأولى عن الحب بهذه البساطة ! . . إن كل الكلمات التي تنطق بها في أدوار الحب تقطر هوى وغراماً وفكراً وفلسفة ! . .

إنها قادرة على أن تجعل كل من يجلس في صالة المسرح يتصور أنها تتجه إليه هو دون سواه بكلمات الحب والهوى والغرام ! . . إنها جعلت حياة الملايين من رواد المسرح أشبه بقصص ألف ليلة ! . . إن كل من يسمعها تمثل يعود إلى بيته وهو يحلم بها ويفكر فيها ، وتمضي الأيام وصوت كلماتها الخالدة على المسرح يغني في أذنه ! . . إن كثيرين يحسبون أعمارهم بعدد الليالي التي حضروها في المسرح وهي تمثل أمامهم ! . . وكأن الذين لم يروها على المسرح عاشوا قليلاً ، والذين شهدوا كل رواياتها عاشوا الحياة كلها ! . . فإن الحياة لا

تحصى بالأيام والسنين ، وإنما تعد بسويعات الهناء ، وتمثيل « سهير » هناء! . .

إن « سهير » عندما تقف على المسرح وتمثل دور العاشقة تنصت لها الدنيا ! . . يصبح كل من في الصالة عاشقاً ولهاً . . يحب معها ، ويتعذب معها ويتعذب لها ! . . ولطالما جلس « ابراهيم » في صالة المسرح ورأى المتفرجين ، وأنصت إلى خفقات قلوبهم وهم يستمعون إليها ، فيسمع أرواحهم وهي تردد مقاطع الكلمات التي تنطق بها « سهير » . وكأن كل واحد من المتفرجين يتوهم أنها تناجيه وحده ، وتبتسم له وحده ، وترتمي بين ذراعيه وحده ، وتمسح دموعه بيديها ؟ . .

يا له من « مغفل » إذا تصور أن « سهير » توجه له هو هذه الكلمات الحلوة ! . . إنه يتذكر في تلك اللحظة عندما كانت تمثل دور مرغريت في رواية «غادة الكاميليا » وتلفت إلى المتفرجين ليرى صدى تمثيلها في وجوههم ، فكان كل واحد منهم يحس أن له قلباً ، وأنه أحب ، وأنه سعد ، وشقي ، وأنه تمتع وتألم ! وكأن « سهير » وضعت كأس الهوى في كل يد ، وأذاقت شهد الحب كل فم ، ووصفت لحبيبها « أرمان » موكب الحب فزغردت كل روح ، وغنت كل شفاه ! . . ثم كيف دخل الأب « دوفال » والد مرغريت إلى معبد الحب وحطمه وحطم معه العاشقة مرغريت غوتيه . . في تلك اللحظة يحس كل متفرج رأى الأب وهو يواجه « سهير » ويحطم بعصاه حبها كأنه يحطم قلبه هو . . وتبكي « سهير » في جنازة الحب ، فتبكي معها كل عين . . وكأن هذه الجنازة ليست جنازة عاشقة واحدة ، بل جنازة كل العاشقين في الدنيا . . جنازة الذين

أحبوا والذين يحبون ، بل الذين لم يحبوا أبداً ! . . وعندما راحت « سهير » تمثل العذاب الذي تحس به مرغريت حزناً على مصرع حبها كانت الدموع تسيل من كل العيون ! . .

ذلك أن هذا هو سر « سهير » العجيب . . تنقل المتفرجين بتمثيلها الرائع من الهناء إلى العذاب ، وتحملهم من الألم إلى الأمل ، وتجول بهم ساعات في حانات الحياة ، وتعطيهم من كل خمر قطرة ، ومن كل رحيق رشفة ، وهم حائرون بين الكؤوس أيها يسكر ، وأيها يداوي ! . . أيها يذهب بالعقل ، وأيها يجيء به ! . . إن صدى تمثيلها يحمل الحقائق ويجيء بالأحلام ، ثم يأخذ الخيال الحلو ويترك الحقيقة البشعة ! . .

ويشعر « ابراهيم » بغصة في قلبه ويسائل نفسه : « لماذا لا تكون « سهير » تعتبره « فأراً » تقوم بتجربة دورها الجديد فيه . . كما يقوم العلماء بتجربة اكتشافاتهم في ألوف الفيران ! . . »

وينتفض « ابراهيم » لهذا الخاطر ! . . إننا نتشاءم بطبيعتنا ! . . إننا في النهار نذكر الليل ، وفي لحظات الضحك تخطر لنا ليالي الدموع ! . . إن هذه الكلمات التي نطقت بها « سهير » هي رسالة خاصة له . . له وحده . . ليست إذاعة موجهة إلى الملايين ! إنها حقيقة وليست دوراً مسرحياً ! . . إن قلبه يقول له إنها تحدثه هو ، وعقله يقول له إن من مزايا «سهير» أنها تندمج في أدوارها فينسى المتفرج أنها تمثل ! . . أنها تسيطر دائماً على المتفرجين بقوة وعنف ، تتحكم فيهم ، وهي تجعلهم جميعاً عشاقاً إذا أحبت ، وسعداء إذا أخلصت ، وأشقياء إذا خانت وغدرت ! . . أنها اعتادت أن تجعل المتفرجين أشبه بفرقة أوركسترا ، وصوتها وتعبيراتها وحركاتها هي

عصا رئيس فرقة الموسيقى ، تحركها فتعزف القلوب كلها ، وتهزها فتهز النفوس كلها ، وهي تستطيع بهذه العصا السحرية أن توحد خفقة القلب بين ملايين الذين يرونها على المسرح أو يسمعونها في الإذاعة ، فهي قادرة على أن تؤثر في الأشقياء والسعداء ، فهي تعطي المحروم الأمل ، وتمنح المعذب العزاء ، وتضاعف للسعيد سعادته ، وتوزع على الدنيا كلها مع صوتها ومضات من هناء . .

ويتذكر « ابراهيم » في هذه اللحظة دورها في مسرحية « خنجر في القلب » . . كيف كانت « سهير » في الفصل الأول تتحدث عن النعيم فتتمايل الرؤوس ، وكأنها تحمل كل متفرج في الصالة إلى عالمٍ آخر ، تصور له جنته ، وترسم له فردوسه ، وتتحول كلماتها إلى ناي الهوى يعزف أغنية الوصال ! . . ثم يتذكر « ابراهيم » كيف كانت « سهير » في الفصل الثاني تحمل المتفرج فجأة إلى جحيم الهجر ، وتريه الضنا والعذاب ، فتنحدر دمعة من كل عين بعد أن ارتفعت بسمة إلى كل شفة ، ويحس كل متفرج أن الناي يتحطم، وأن دنيا الهناء تزول ، وأن الشباب تحول إلى مشيب ، وأن الأمل انتهى إلى يأس ، وإذا الحلاوة في كل فم تستحيل إلى مرارة في كل قلب ، وإذا زهرة الحياة تذبل ، وإذا ربيع الهوى يتحول إلى خريف مكفهر . . ثم إلى شتاء قارس . . وما أقسى برد الحياة في شتاء العمر ! . .

ثم كيف تبدأ « سهير » صراعاً لتنزع من المرأة غريمتها الحبيب الذي سرقتها منها ، فإذا كل متفرج في الصالة يشترك في هذا الصراع الهائل ويحارب مع « سهير » ، وكأن كل متفرج يريد أن يقفز من مجلسه لينتزع الحبيب « لسهير » ، ويجيء به لها ، ويضعه بين أحضانها ! . .

ثم إذا « بسهير » فجأة تمزج بين اليأس والأمل ، وتعود بكل متفرج من جديد إلى مقعده ، وتذيقه بعض النعيم وبعض الهناء ، ثم تحول نار الشوق إلى نور الوصال ، وتعيد الحب شاباً مليئاً بالأمل وبالأحلام ! . .

* * *

وفي كل هذه الانفعالات كان « ابراهيم » يتلفت حوله في المسرح ، فإذا هم هو ، وإذا هو هم ! . . كل واحد منهم آلة موسيقية تلعب عليها « سهير » وتلعب بها ! . . كل واحد منهم بكى معها وضحك لها ! . . كل واحد منهم كفن شبابه في جملة حلوة نطقت بها « سهير » ، وبعث حياته في بسمة من بسماتها ! . . كل واحد منهم سكر بتمثيلها وأفاق ، وشرب من روحها وعطش . . كل واحد منهم حمله تمثيلها البديع إلى دنيا أخرى وحياة أخرى ! . .

دارت كل هذه المعاني والأوهام في رأس « ابراهيم » في ثوانٍ ! . . ولكنه أحس كأنه أمضى عمره كله في هذا الشك والهوان . . وهز « ابراهيم » رأسه وكأن هذه الخواطر كابوس مخيف استيقظ منه فجأة . .

وعادت كلمات « سهير » الحلوة : « أريد أن أقول لك أنني أحبك » . . عادت هذه الكلمات ترقص أمام عينيه .

وجمع « ابراهيم » أطراف شجاعته . . وراح يتلفت حوله . . هل سمع صوت « سهير » حقيقة أم أنه تخيل أنه يسمعها ! . . هل هي تحدثه هو أم أنها تقرأ دورها في الرواية الجديدة ؟ ! . .

وتشجع « ابراهيم » مرة أخرى وقال في صوت متهدج ، فيه ثقة وقلق . . فيه أمل ويأس ، فيه حلم وكابوس . . وقال « إبراهيم » :

ـ هل كنت تكلمينني « يا ست سهير » ؟ . .

ونظر « ابراهيم » إلى نوتة دوره التي في يـده حتى لا يرى يـدها وهي تشير علامـة « لا » ! . . حتى لا يرى نـظرة السخريـة في عيني نجمة الجماهير ! . . وفي لحظة تمنى لو أنه لم يسأل هذا السؤال الساذج السخيف ! . . ثـم تمنى ألا تجيب ! . . إنـه يـعـرف الإجـابـة مقدماً ! . . لعلها تسكت وتتركه معلقاً بـين الأرض والسماء ، بـين الهناء والعذاب ! . .

ولكن « سهير » لم تحرك يدها علامة « لا » . . وإنما بقيت تنظر إلى نوتة الدور في يدها ، وقالت دون أن ترفع رأسها :

ـ نعم ! . .

وذعـر « ابـراهيم » ! . . نعم ! . . مستـحيـل أنها قـالـت نعم ! . . لعله لم يسمع جيداً ! . .

لعلها قالت « لا » ، فجاءت في أذنه « نعم » ، وأرادت أن تترفق به وبقلبه فحولت كلمة « لا » إلى « نعم » ! . .

إنه تصور أن نجمة الجماهير ستقوم من مقعدها غاضبة وتشتمه على وقاحته ! . . تصور أنها ستطلب من مدير المسرح أن يرفته لأنه تجـرأ وتصور أنها تعنيـه هـو الصعلوك بجملة « إنني أحبـك » ؟ . . ولكنهـا قالت : « نعم » ! . . ولكن لمـاذا لم ترفـع « سهير » رأسهـا وتنـظر في عينيه ؟ . . هـل هي تسخر منـه ! . . هل هي تخشى لـو رفعت عينيها من نوتة الدور أن تغـرق في الضحك عنـدما تـرى ما ارتسم على وجهه من بلاهة وسذاجة ودهشة ورعب ؟ !

وقرب « ابراهيم » كرسيه بضعة سنتيمترات دون أن يجرؤ على الاقتراب من مكان « سهير » البعيد . .

وأراد أن يقول شيئاً ولكنه لم يجد الكلمات ! . . أراد أن يتقدم ثلاثة أمتار إلى حيث تجلس ، ولكنه شعر أنه أصبح بلا حراك ! . . إن كل شجاعته مكنته من أن يحرك المقعد بضعة سنتيمترات ! . . أراد أن يقول لها : « وأنا أعبدك » ولكن الكلمات ماتت على شفتيه . وأحس « ابراهيم » بالعجز ! . . ثم راح يقاوم هذا العجز . . راح يقول لنفسه : « لا تكن فأراً ! . . حاول أن تكون أسداً ! . . »

وبعد لحظات شعر أنه تخلص من مصيدة الفيران !. . ولكنه لم يستطع أن يصل إلى مرتبة الأسود. .

ومال « ابراهيم » بجسمه على المائدة وقال في صوتٍ متلعثم كالهمس ، فيه تردد ، وفيه خوف ورعشة :

ـ ماذا كنتِ تقولين « يا ست سهير » ؟. . هل كنتِ تقرئين دورك في الرواية الجديدة ؟. .

ورفعت « سهير » رأسها ! . . وشعر « ابراهيم » لحظتها كأنها رفعت الستار عن قصة الحب ! . . رأى في عينها بريقاً عجيباً لم يره في يوم من الأيام ! . . رأى هذه المرأة التي تبلغ من العمر ثلاثين سنة قد تحولت إلى فتاة مراهقة صغيرة . . احمر وجهها وكأنها تنطق ألف باء الهوى للمرة الأولى في حياتها ! . . رأى نجمة الجماهير شخصية أخرى لم يعرفها ولم يتصورها . . شخصية تلميذة عذراء التقت لأول مرة بعاشق صغير مثلها ! . .

ولم يصدق « ابراهيم » عينيه كما كذب قبل ذلك أذنيه ! . . وتصور أنه في حلم وعيناه مفتوحتان ! . . ولكن « سهير » قالت :

ـ كنت أقرأ دوري الجديد في الحياة ! . . حياتي معك ! . . أنا أعرف أنك تحبني ، وأريد أن تعرف أنني أحبك يا « ابراهيم » . .

قالت « سهير » هذه الكلمات في نبرات متقطعة . . بين كل كلمة وكلمة لحظة صمت ! . . كأنها طفلة تتهجى لأول مرة جملة صحيحة ! . .

ولكن هذه الكلمات البسيطة المتقطعة بدت في أذن « إبراهيم » شعراً وغناء وموسيقى ! . . إنه وجد فيها كل البلاغة التي سمعها وقرأها ! . . إنه وجد فيها كل الألحان التي طرب لها . . ولكنه ذهل ! . . كان « إبراهيم » يود أن يقول لها : قولي هذا مرة ثانية ! . . قوليه ! . . ردديه ! . . كرريه ! . . أعيديه ! . .

ولكنه لم يقل شيئاً من هذا ! . . ولم يكن في حاجة أن تقوله « سهير » مرة ثانية ! . . أو تكرره وترردده وتعيده ! . . إن هذه الكلمات توقفت فجأة . . لم تطر في الهواء كما تطير كل الكلمات . . تجمدت في مكانها ! . . تحولت إلى شيءٍ خالد . . باقٍ . . مستمر . . متكرر . . شعر كأن الدنيا كلها سمعته ، وغنته ، وراحت تكرره وترردده وتعيده وكأنه نشيد الزمان ! . .

ولم ينظر « ابراهيم » إلى وجه « سهير » ! . . لم يقل لها كم يحبها ويهواها ؟ ! . . إنه رفع رأسه ونظر إلى السماء ! . . وكأن في عينيه صلاة شكر ودعاء ! . . لم يقل شيئاً ، ولكن عينيه رتلت الصلاة ! . .

وسمع « ابراهيم » صوته يقول : « يا رب » ! . .

وكان « ابراهيم » لا يدري ماذا تعني هذه الكلمة . . أهي دعاء أم شكر ، أم استغاثة ! . .

ولكن « سهير » عرفت ماذا تعني هذه الكلمة فقالت له وكأنها تغني : « يا رب ! . . إنها أحلى من كلمة أحبك ! . . إنها شيء جديد في المناجاة بين حبيبين ! . . إنني مثلت كثيراً من أدوار الحب والهوى ، ولكن لم يحدث لي مرة واحدة أنني سمعت عاشقاً يرد على اعتراف الحب بكلمة « يا رب » ! . .

وارتجف « ابراهيم » في مقعده . . ونظر إلى « سهير » فوجد أن بينه وبين المكان الذي تجلس فيه على رأس المائدة ثمانية مقاعد خالية ! . .

ولكنه لم يشعر بهذه المسافة ! . . كأن لا شيء بينهما ! . . كأن هذه المقاعد الثمانية اختفت فجأة ، وكأنه بجانبها . . لا ! كأنه الآن بين ذراعيها ! . .

وقام من مقعده ليأخذها بين ذراعيه ، ولكنه تردد ، ثم أراد أن يجلس في المقعد المجاور بجانبها ولكنه تردد أيضاً . . وكل ما استطاع في تلك اللحظة أن يفعله هو أنه انتقل من المقعد التاسع الذي يجلس فيه إلى المقعد الثامن . . وبقي بينه وبينها سبعة مقاعد ! . .

وابتسمت « سهير » لهذه الحركة ! . . وأرادت هي الأخرى أن تتحرك من مقعدها فلم تستطع ! . . إنها شعرت أنها تطير . . تطير وهي جالسة في هذا المقعد ! . . إن كل الغرفة تطير بها ، وبمن فيها ، إلى دنيا أخرى . . إلى سماء بعيدة عن هذه الأرض كلها ! . .

ومضت « سهير » تردد كلمة « يا رب » . . وهي تقول : فعلاً « يا رب » ! . . ما أحلى أن نقول « يا رب » في هذه اللحظة العظيمة في حياتنا ! . .

وقال « ابراهيم » هامساً : « لأن الذي بيني وبينك ليس حباً ! إنه صلاة وعبـادة ! . . صـلاة ليس فيهـا تراتيـل ولا ابتهالات . . ولكن فيها أنفاساً ونبضات ! صلاة كنت لا أتصور أنها وصلت إلى السماء ! . . »

* * *

وقالت « سهير » وهي تشد أظافرها بيدها في حركة عصبية :

ـ إنها صـلاة وصلت إلى السماء فعـلاً . . ونزلت إلى الأرض . إنها دعوة استجاب لها الله . .

وقام « إبراهيم » من مقعده ، وانتقل إلى المقعد المجاور ، وبقي بينه وبين « سهير » ستة مقاعد ! . . ومضى « إبراهيم » يقول : « لا بـد أنني دعوت الحب في ليلة القـدر ! . . إن الذي حـدث لي غـير معقـول ! . . إنني أشبه بـرجل جـائـع وجـد أمـامـه فجـأة مليـون جنيه ! . . كان يكفيه لو وجد رغيف خبز واحد ! . . وكان يسعده لو وجد مع الرغيف قطعة جبن ! . . وكان يجن لو وجد أمامه وجبة طعام . . وكان يغمى عليـه لو وجـد نفسه أمـام مائـدة كبيرة مليئـة بـالـطعـام ! . . ولكنـه وجـد مليـون جنيـه تكفي لأن يقيم ألـوف المآدب . . ويحصل على بلايين الأرغفة والجبن والزيتون ! » .

وضحكت « سهير » وقالت :

ـ يظهر أنك جائع يا « ابراهيم » ! . .

ولم يضحك « ابراهيم » ، إنه انتقل إلى المقعد المجاور في حركة غير إرادية ، وبقي بينه وبين « سهـير » خمسة مقـاعد خـالية ، وراح يقول :

- إنني جائع جداً ! . . جـائـع إلى هذا الهـوى العظيم ! . . إنني أشعر كأنني لم أذق طعاماً طوال حياتي ، ورأيت نفسي أمام مأدبة كبـيرة . . لا أعرف مـاذا آكل أولاً ! . . كـل شيء في المأدبـة أتمناه وأحلم به ! . . لا أعرف كيف يبدأون في المآدب الكبرى ! . . أي أصناف يأكلونها أولاً ! . . هل أبدأ بالحلوى . . أم بالخضار ! . . أخشى أن يفـوتني صنف منها ! . . أريـد أن آكلها كلهـا مـرة واحدة ! . . لأنني أخشى أن تختفي فجأة المائدة التي أمامي كما ظهرت فجأة ! . . إنني أشعر أنني في ليلة القدر فعلاً ! . .

وأخـرجت « سهير » منـديلها ومسحت من عينيهـا شبـه دمعـة وقالت :

- إن قلبي كان يعيش في الظلام ، وفجأة رأى في عينيك طـاقة من نور ! . . وقبل أن تقول أنت « يا رب » قلتهـا أنا ! . . قلتهـا عندما رأيت نفسي في عينيك وقلبك ! . . إنني عشت حيـاتي أسمع عبارات الهوى وأرددها ! . . ولكنها المـرة الأولى التي سمعت الهوى يتكلم بغير صوت ! . . وشعرت كأن الهـوى هو أنفـاس تحولت إلى أمواج أثيرية . . وشعرت كأن قلبي التقط هذه الموجة ! . . ولم تكن موجة ضعيفة ، ولكنها كانت بعيدة وقوية ، وفجأة أحسست أن قلبي يغني ! . .

كنت أشبه بمن يملك جهاز راديو ويحاول أن يديره ليسمـع شيئاً فكان لا يسمع إلا خشخشة وضوضاء ، ثم ألقى جهاز الراديو عـلى الأرض يأساً منه ، وتصور أن لمباته احـترقت . وفجأة وجـد الجهاز يغني . . يغني اللحن الذي تمنى طوال حياته أن يسمعه ! . .

وبينما كانت « سهـير » تتكلم انتقل « ابـراهيم » من مقعده إلى

مقعـد مجاور وأصبـح بينـه وبـين سهـير أربعـة مقـاعـد فقط! وبلع « ابـراهيم » ريقـه فقـد أحس أن الكلمات جفت عـلى شفتيـه ، وبصعوبة فتح فمه وقال :

ـ أنـا لم أصـدق أذني ! . . تصـورت أنني أكلم نفسي ! . . تصـورت أنني أحلم ! . . ولكن لم أتصـور أن الحقيقـة أجمـل من الحلم ! . . إنني عشت عامين أغمض عيني فـأراك ! . . وأفتح عيني فأحلم بك ! . .

ثم سكت « إبـراهيم » فجأة ! . . لم يجـد كلامـاً ! . . لم يجـد عبارات يقولهـا ! . . . إنه يحفظ عن ظهـر قلب معظم قصـائد الحب والغزل . . إنه قرأ كثيراً من المسرحيـات المليئة بـالهوى والغـرام . . ولكنـه في تلك اللحظة أحس أنه عاجز عن أن يعبر عما في نفسه ! إنه أشبه برسـام كان يصـور الجمال ، وكـان يبدع فيـه . . وكان يحـول بريشته المرأة المتوسطة الجمال إلى ملكة جمال . . ثم رأى نفسـه فجأة أمام آلهة الجمال فسقطت الفرشاة من يده ، وعجز عن أن يرسم كل هذا الجمال ! .

وكان شعوره بالعجز يؤلمه ! . . كان يبحث عن العبارات البليغة التيتناسب هذا الموقف فلا يجد . . كانت البلاغة في قلبـه والعيُّ في لسانه ! . . كان قلبه ينطلق ولسانه يتلعثم ! . .

وأحست « سهير » بما يعانيه « ابراهيم » ، وشعرت أنه يريد أن يقول أشياء كثيرة ، وأن المعاني تزاحم بعضها بعضاً ثم تسقط صرعى قبل أن تصل إلى شفتيه ! . .

وأرادت « سهـير » أن تنقـذه من هـذه المحنـة ، فمضت تقلب

صفحات كراسة دَورِها لتتحرك من مقعدها ، فقامت وجلست على مقعد مجاور لمقعده ! . . وإذا « بإبراهيم » يُصاب بالذعر . . إنه أشبه بطفل اقتربت منه ألسنة اللهب . . وبحركة غير إرادية قام « ابراهيم » من مقعده . . ولكنه لم يتقدم إلى المقعد المجاور « لسهير » بل إنه تأخر فجأة إلى ثلاثة مقاعد بعيداً عنها ، فأصبح بينه وبينها سبعة مقاعد ! . .

وأغرقت « سهير » في الضحك وقالت له :

ـ ها أنذا أقترب منك . . وأنت تبتعد ! . .

قال لها « ابراهيم » في خجلٍ :

ـ إن عيني لم تتعودا أن تتطلعا إلى هذا النور كله في وقتٍ واحد ! . .

وسرَّت « سهير » من هذه التحية وتنهدت وهي تقول :

ـ لقد لاحظت أنك كنت تتمنى أن تمثل أمامي دور العاشق . وعندما قلت لي في البروفة : « إنني أحببتك . . وأحبك . . وسأموت وأنا أحبك » انتفض قلبي ! . . كأن ناقوساً هائلاً أيقظه من نومٍ عميق ! . . كأن دواء منعشاً أفاقه من غيبوبة طويلة ! . . ومن الغريب أن المخرج قال لك أن مناجاتك لي ليس فيها حرارة، وليس فيها أي حماس ! . . مع أنها ملأت قلبي ناراً وحياة ! . . ورأيت خيبة الأمل في عينيك ، ولكنك أنت لم تر مولد الأمل الكبير في قلبي ! . .

وأحس « ابراهيم » أنه يسمع أجمل أغنية في الدنيا ، فكان رأسه يتمايل ، وقلبه يرقص ، وروحه تغني ! . . كان يشعر أن شيئاً هائلاً

يحدث في قلبه . . في حياته ، بل في الدنيا كلها ! . .

* * *

وراح « ابراهيم » يتأمل « سهير » من جديد ! . . إنه رآها على المسرح وفي الحياة ألوف المرات ! . . ولكنه الآن يشعر أنه يراها لأول مرة ! . . إنها أجمل مما هي على المسرح ! . . إن حولها أضواء مجهولة ! . . إن المنظر البسيط في الغرفة الكئيبة تحول في عينيه إلى منظرٍ رائع رسمه ألوف الفنانين وجعلوه مزركشاً مضيئاً فاتناً ! . . إن كل شيء في الغرفة تغير ! . . المقاعد القديمة كأنها جديدة ! . . الحائط القديم المتآكل بدا كأنه رخام قصر عظيم ! . . اللمبة الصغيرة المطفأة المدلاة من سقف الغرفة تحولت أمام عينيه إلى ثريا ضخمة هائلة . . كالتي تزين بها قصور الملوك . . الدنيا كلها أصبحت جديدة ! . . حتى الهواء تجدد ! . . حتى الضوء الخافت الذي انبعث من النافذة المغلقة تحول إلى شعاعٍ يرقص ! . .

واسترد « ابراهيم » أنفاسه ، وحاول أن ينحي أحلامه جانباً وعاد يقول :

ـ لم أتصور أن حبي قادرٌ أن يصل إليك ! . . أنا كومبارس على الأرض ، وأنتِ نجمة في السماء ! . . أنا مغمور ، وأنتِ مشهورة ! . . أنا أعيش في ظلام النسيان ، وأنتِ تتألقين في الأنوار والأضواء ! . . كنت أنظر إليك كما ينظر الحالم إلى القمر ! . . يراه بعيداً عنه في الحقيقة وقريباً منه في الخيال ! . . يضيء له ويلمسه ! . .

وتوقف « ابراهيم » فجأة ! . . ما له يذكرها بمكانته الضئيلة

ومكـانتهـا الكبـيرة ! . . مـا لـه يقـول لهـا : أنـا صعلوك ، وأنتِ ملكة ! . . لعلها نسيت كل ذلك فلماذا يذكرها بالحقيقة المرة ؟ ! . .

ولكن « سهير » لم تتذكر في تلك اللحظة الفوارق بينهما ، بل إن كلمة القمر أضحكتها فقالت :

ـ ألا تعـرف أن العلم يعتقـد أن الـوصـول إلى القمـر أصبـح قريباً (*) . .

وهنـا لم يستطع « ابـراهيم » أن يقاوم أكـثر من ذلك فقـام من كرسيه يحاول الوصول إلى القمر ! . .

ولكنه توقف فجأة ! . . كأن النظرية العلمية التي تقول : إننـا عندما نترك الفضاء الخارجي للأرض ونتجه إلى القمر نفقـد وزنا ، نظرية ممكن أن تنطبق على الحب أيضاً ! . . إنه أراد أن يهجم عليها ويأخذها بين ذراعيه . ولكنه لم يلبث أن تسمر في مكانه . . كل ما استـطاعت قدمـاه أن تفعله أن نقلتـه من المقعـد الثـامن إلى المقعـد السابع ، وفي تلك اللحـظة شعر أن القمـر لا يزال بعيـداً ! . . لا تزال يداه أقصر من أن تلمسه ، فما بالك أن يندفع إليهـا ويعانقهـا ويقبلها ! . .

وتمالك « ابراهيم » نفسه وقال متابعاً الحديث عن القمر :

ـ إنكِ تقولين أن العلم يتوقع أن يصل الناس إلى القمر . ولكن العلم لم يتصور أن من الممكن أن ينزل القمر إلى الناس !

وضحكت « سهير » وقالت :

ـ إن الحب أقوى من العلم ! . .

(*) عند صدور الطبعة الأولى لم تكن أية مركبة فضائية قد وصلت إلى سطح القمر .

وشعر « ابراهيم » أن « سهير » أعطته جرعة من الشجاعة التي كان يفتقدها ، ليتحرك من مكانه ويتجه إليها . .

وفجأة سمع الإثنان صوت الباب ينفتح بغير استئذان ! . .

ارتجف « ابراهيم » و« سهير » عندما سمعا صوت الباب يفتح بغير استئذان . .

شعرا كأن أحداً ضبطهما وهما في عناق طويل ! . . ولم يكونا متعانقين ، بل كانا بعيدين ، تفصلهما سبعة مقاعد ! . . ومع ذلك شعر العاشقان بنفس الرجفة ! . . كأن شخصاً غريباً اقتحم خلوتهما . وهز العش الصغير الذي جمعهما ! . . كانت غرفة البروفات واسعة مليئة بالمقاعدالعديدة ، ومع ذلك لم يشعرا إلا بأنهما ملتصقان في غش غرام ! . .

وتظاهرت « سهير » بالهدوء ، وتطلعت إلى الباب فوجدت المخرج يدخل وهو يصفر . .

وتقدم المخرج نحو « سهير » يربت على كتفها ويقول ضاحكاً :

ـ لا بد أن « ابراهيم » يشكو من دوره الجديد كواحد من المجموعة في الرواية الجديدة ! . .

وتنفست « سهير » الصعداء . . وأحست أن المخرج لم يستطع أن يستنشق في الغرفة زفرات الحب التي ملأتها هوى وهواء ! . .

ولكن « ابراهيم » شعر بالطعنة التي وجهها له المخرج ، وبنظرة الاحتقار التي لم يستطع أن يخفيها وهو ينطق باسمه ، ووجد « ابراهيم » نفسه يرد على المخرج في عنف ويقول :

ـ أبـداً . . أبداً ! . . إنـه الدور الـذي تمنيت أن أمثله طـوال حياتي ! . .

وفهمت « سهير » ما يعني « ابـراهيم » ، ولكن المخرج لم يفهم مـا قصد الممثـل الصغير ! . . لم يفهم أنـه يتكلم عن دوره في قلب « سهـير » ، وإنما تصـور أنه يتحـدث عن دوره التـافـه في الـروايـة الجديدة ، وراح المخرج يهز السلسلة الذهبية في يده ، ويتكلم وكأنه يلقي درساً في أصول التمثيل المسرحي على صغار التلاميذ في مدرسة الفن ويقول :

ـ كـل دور مهم ! . . أي ممثل عـظيم يستطيـع أن يحـول دوره التـافه إلى دور كبـير ! . . إن دورك أن تقف مع الكـومبارس تـردد معهم أغنية « سهير » التي مطلعها : « صباح الخير يا حبي » ! . .

هز « ابراهيم » رأسه متظاهراً بأهمية الدور التافه الذي تعطف به عليه المخرج الكبير . .

وخشيت « سهير » أن يقول « ابراهيم » كلمة جارحة ، فأرادت أن تنقذ الموقف وتهيأت للخروج ، وأمسكت ذقن المخرج وهي تقول له ، ضاحكة في طريقها إلى الباب :

ـ مساء الخير يا حبي ! . .

وراح المخـرج يتأملهـا من الخلف في إعجاب ، ثم اكتشف أن « ابراهيم » لا يزال في الغرفة ، فالتفت إليه وقال :

ـ تعرف يا « ابراهيم » أن « سهير » عندما تنـطق كلمة الـوداع تجعلها كلمة حلوة جميلة شائقة وكأنها تنطق كلمات اللقاء ! . .

ولم يقل « ابراهيم » شيئاً ! . .

لقد أحس أن « سهير » كانت تودعه هو بجملة « مساء الخير يا حبي » وأن المخرج التقط تحية غير موجهة إليه ! . .

وابتسم « ابراهيم » ابتسامة ساخرة ! . . شعر في تلك اللحظة أنه الممثل الأول في قلب « سهير » . . أما المخرج فما هو إلا واحد من الكومبارس الذين يرددون مع الممثلة الأولى أغنية : « صباح الخير يـا حبي » ! . .

وعاش « إبراهيم » بعـد ذلك اليـوم في قصة غـرام ! . . كأنها قصة ألف ليلة وليلة . . كان لا يصدق عينيه . . كل يوم يمضي يقربه من « سهير » . كل لحظة تجعله يشعر أنه لا يمشي على الأرض وإنمـا يطير . . إنه يطير في السماء مع النجوم ! . .

جلس « ابراهيم » إلى جوار « سهير » في غرفة الصالون الصغير بدارها . . وكان أمام إناء من الزهور تصف فيه الورود المختلفة الألوان . . فتتعانق وردتان، وتتباعد زهرتان ، وتنحني وردة حمراء على وردة صفراء وكأنها تقبلها . وانتزعت « سهير » وردة وقطعت عودها ، وراحت تثبتها في سترة « إبراهيم » وهي تقول له :

- إن حبنا أغرب من الروايات ! . . لو أن مؤلفاً كتب قصة هوانا ، وقال فيها أن حباً عظيماً بدأ بغير مقدمات لهاجمه النقاد وسخر منه المتفرجون ! . . ولتساءلوا : كيف يمكن أن تحب ممثلة كبيرة كومبارس بغير سبب معقول ! . .

وضحك « ابراهيم » وقرب شفتيه من شفتيها وقال :

- إن كل شيء عظيم في الحياة غير منطقي ! . . إن الحب العادي يبدأ عادياً ، فيه كل مقدمات القصة ، وكل أسسها الفنية ، نظرة ، فابتسامة ، فسلامٌ ، فكلامٌ ، فموعدٌ ، فلقاء ، فحب ، فغرام . . ولكنك إذا نظرت إلى لوحة فنية خالدة فإنك كثيراً ما تلاحظين أنها تخرج عن القواعد الفنية الأساسية التي يدرسونها في السنة الأولى بمدرسة الفنون ! . . إنني أذكر أن مدرس اللغة العربية طلب منا أن نكتب موضوعاً إنشائياً عن الأم فنقلت مقالاً كتبه أحد

كتّابنا الموهوبين وادعيته لنفسي ، وإذا بالمدرس يعطيني ثلاثة من عشرة ! . . وكتب يقول :

ـ إن الأسلوب ركيك والمعنى ضعيف ومعالجة الموضوع تدل على الجهل بألف باء قواعد الإنشاء ! . .

قالت « سهير » باسمة :

ـ إذن فإنهم سيعطون حبنا صفراً على عشرة ! . . لأن الذين تمشي عواطفهم على الأقدام لا يصدقون أنفسهم عندما يرون عواطف تنطلق كالصاروخ ! . . إنهم يبحثون في الأرض عن الصاروخ فلا يجدونه وينكروه ، لأنهم تعودوا أن لا يروا الشيء إلا إذا كان تحت أقدامهم ! . . إن حب العمالقة يختلف عن حب الأقزام ! . . إن المسافة التي يقطعها الحب العادي في سنوات يقطعها الحب العظيم في ثوانٍ ! . . إنك إذا قرأت وصف معارك نابليون مثلاً تُدهش إذ إنها تشبه البرق ! . . لا تكاد تبدأ حتى تنتهي ! . . لا يكاد يطلق رصاصته الأولى حتى يرفع عدوه راية التسليم ! . . ليس في معاركه كر وفر ، ولا مناورات ولا محاولات ، ولا تقدم ولا تراجع . . إنك تغمض عينيك وتفتحهما فتجد دولة تحطمت ودولة قامت ! . . وحبنا فيه طابع المعركة الخالدة ! . . ليس فيه مقاومة ولكن فيه استسلاماً ! . .

ونفخ « ابراهيم » دخان سيجارته وقال :

ـ يبدو أن الاستيلاء على القلعة العظيمة الحصينة يتم أسرع مما يتم الاستيلاء على قلعة صغيرة ! . . إنني أذكر أن هتلر استولى في دقائق على خط ماجينو الذي أقامته فرنسا قبل الحرب وتصورت أنه سيحميها إلى الأبد من الغزاة والفاتحين ! . .

وأمسكت « سهير » يد « ابراهيم » وقالت له وهي تحيطه بذراعها :

ـ إن خط ماجينو سقط هذه المرة أسرع مما حدث في عهد هتلر ! . . والعجيب أن قلعة حبي قاومت كل الغزاة وكل الفاتحين . . ثم فجأة فتحت قلبها وسلمت قبل أن يدق العدو الباب ! . .

قال « ابراهيم » :

ـ إنني جئت إلى قلبك من الشبَّاك ! . .

وأمسكت « سهير » خصلات شعر « ابراهيم » وراحت تلاعبها وتداعبها وتقول له : ! . .

ـ أبداً . . إنك دخلت من الباب ! . . ومن الباب الأمامي ! . . ألم تسمع عن الأبواب الكهربائية الجديدة ذات العيون السحرية التي تنفتح فجأة قبل أن تصل إليها . . ما يكاد شبحك يمر بين عينين سحريتين حتى ينفتح الباب فتدخل ، ثم تغلق أبوابها بعد دخولك ! . . كذلك كان قلبي ! . . لم يحتج أن تطرقه بيدك ، ولم يحتج أن تقتحمه ، ولم يحتج أن تحطمه ! . . وعندما سنروي قصتنا للناس لن يصدقوها ! . . سوف يقولون : لا بد أنني رأيتك تختلف عن سائر الناس ! . . لا بد أنك قلت لي كلمة كانت أشبه بكلمةالسر في قصة « إفتح يا سمسم » ! . . لا بد أنني وجدت فيك عبقرية رأيتها أنا ولم يرها الناس . . لا بد أنني وجدت الناس وحوشاً ووجدتك وحدك الملاك ! . . رأيتهم مثلاً يطردون قطة ويرفسونها بأقدامهم ، وجئت أنت وأخذت تقبل القطة وتحتضنها ! . . أو أنني شعرت في أثناء البروفة بصداع فأسرعت واشتريت لي قرص

أسبيرين ! . . لم يحدث أي شيء من هذا ! . . لا أذكر أنك فعلت شيئاً أو قلت شيئاً لم يقله قبلك ألوف الناس ! . . أغنى منك ، وأجمل منك ! . . وربما يكونون عباقرة أكثر منك ! . . ولكن الغريب أن قلبي لم يتحرك لأي واحد منهم وتحرك لك وحدك ! . .

ونظر « ابراهيم » إلى السماء وهو يقول :

ـ ومن أجل هذا عندما سمعت اعترافك بالحب قلت : « يا رب » ! لأنني كنت أشهد مولد معجزة ! . . والمعجزات تختلف عن إمكانيات البشر ! . .

وقرب « ابراهيم » رأسه من رأس « سهير » ، وامتزج شعره الأسود الفاحم بشعرها الذهبي ، فأغمضت « سهير » عينيها وكأنها تحلم وقالت :

ـ إنني أحاول أن أذكر كيف لفتَّ نظري فلا أستطيع أن أذكر ! . . كأن هذا حدث من ألف سنة ! . . كأنني لا أذكر الآن إلا أنني أحببتك ، وما حدث قبل هذا لا أكاد أذكره ولا أعرف أنه كانت لي حياة قبل أن أعرفك ! . . إن العشاق عادة يذكرون لقاءهم الأول ! . . خفقتهم الأولى ! . . ولكنني لا أعرف كيف التقينا ، ولا كيف خفق قلبي ! . . إنني أغمضت عيني وفتحتها فوجدت نفسي أحبك ! . . لماذا ؟ . . لا أعرف . . كيف ؟ . . لا أعرف متى ؟ . . لا أعرف ! . . كل ما أذكره أنني رأيت في عيون كل من حولي نظرات الإعجاب ، ونظرات الشهوة ، ونظرات التقدير ، ونظرات التقديس ، ونظرات العبادة . . ولكن في عينيك وحدك رأيت نظرات الحب ! . . الحب كما كنت أفهمه . . كما كنت أتمناه ! . . كما كنت أحلم به ! . .

وأشعل « ابراهيم » سيجارة وقال :

ـ عندما يمر حبنا أمامي كشريط سينمائي أشعر أنه قصة مختلفة ! . . الذروة في فصلها الأول ! . . المفاجأة في بداية الفيلم ! . . النغمة العالية في أول الأغنية ! . .

قالت « سهير » :

ـ هذا هو الفرق بين قطعة الموسيقى والنشيد ! . . إن حبنا كالنشيد الجمهوري بدأ بالطبول العالية والنفخ في الأبواق ودوي المدافع ! . . فهو لا يعلن مولد عشق هادىء ، بل هو يعلن قدوم فاتح وغازٍ وأمير ! . . ومن هنا لا تنطبق عليه الأصول الفنية في القصة ! . . إن حبنا لم يولد صغيراً ! . . إنه وُلد يمشي ويتكلم ويغني أجمل الألحان ! . . إنه حب لا يسمع فيه الناس الأنفاس ، ولا التنهيدات ، ولا الزفرات ، ولكنه يبدأ بدوي هائل . . هو قرع الطبول ! . . إنه يبدأ بمؤذن يُنادي : « حي على الحب » . . وإذا بصوت هذا المؤذن يوقظ إمرأة مثلي لم توقظ قلبها قبل اليوم همسات الحب ، ولا زفرات الهوى ، ولا أنين الغرام ! . .

* * *

وكانت لحظات لقائهما غريبة مثل حبهما الغريب ! . .

وذات ليلة . .

وكانت القاهرة نائمة تحلم . .

وقفت سيارة « سهير » الكاديلاك الضخمة أمام فيللا « سهير » . وكانت السيارة قد حملت « سهير » من المسرح بعد انتهاء

دورها في الرواية إلى الفيللا . . وصعدت « سهير » ، وراحت تغير ملابسها بسرعة ، وتغسل وجهها مما عليه من أصباغ وألوان وماكياج ، ثم ارتدت ثوباً بسيطاً ، ولفت رأسها بإيشارب جميل .

ولحق بها « ابراهيم » ، ووضع دراجته أمام الباب بجوار السيارة الكاديلاك .

كان الوقت الساعة الثالثة صباحاً ، وكان وقتاً غريباً يختاره العاشقان للقاء ، ولكنه الوقت الذي اعتادا أن يلتقيا فيه ، في غفلة من العيون ، بعد أن ينتهي العمل في المسرح .

وبعد لحظات انفرج الباب الخارجي ، ونزلت « سهير » ومعها « ابراهيم » ، وقد أمسكا أيديهما كعاشقين صغيرين يلتقيان للمرة الأولى . .

وتقدم سائق السيارة الكاديلاك يفتح بابها للعاشقين . . وابتسمت « سهير » وقالت للسائق :

ـ أنا راح اركب مع البيه ! . .

وبدت الدهشة على وجه السائق ، وتطلع إلى « ابراهيم بيه » وهو يتقدم نحو دراجته ، ويمسكها بيده ، ويشير بيده الأخرى وهو ينحني كما كان يفعل سائق السيارة الكاديلاك . .

وتقدمت « سهير » إلى الدراجة ، وركبت أمام « ابراهيم » ، ومضت بهما الدراجة في شوارع القاهرة المظلمة ، التي كادت تخلو من المارة والسيارات في هذه الساعة المتأخرة . .

وكان « ابراهيم » يدق جرس البسكليت في دقات موسيقية كأنها تعزف ألحان اللقاء الجميل ! . .

وكان الهواء يعبث بالإيشارب الذي تغطي بـه « سهير » رأسهـا فيطير في الهواء وتميل « سهير » برأسها عـلى صدر « ابـراهيم » كأنها تناجيه بغير كلام ! . .

وتمـر سيارة مسرعـة فينحرف « ابـراهيم » بـدراجتـه إلى جـوار الرصيف فتضحك « سهير » وتقول :

ـ من يصدق أن الممثلة الأولى هي راكبة الدراجة ! . . إنني أبدو في ثوبي هذا كجامعة سبارس أو بائعة يانصيب ! . .

وضحك « ابراهيم » وقال :

ـ نعم . . بائعة اليـانصيب التي باعت لي التـذكرة التي تكسب البريمو ! . . إنني « يا سهير » لا أؤمن بالحظ . . . ولكني بدأت أؤمن به اليوم ! . . إنني كسبت البريمو ! . . البريمودونا ! . .

وتقبله « سهير » في ذقنه وتقول :

ـ مع العلم أنك لم تدفع شيئاً في ثمن ورقة اليانصيب ! . .

واحتج « ابراهيم » وقال :

ـ لم أدفـع شيئـاً ؟ ! . . يـا لـكِ من ظـالمـة ! . . إنني دفعت قلبي ! . .

وراحت « سهير » تنظم شعرها الذي تطاير في الهواء وقـالت : قلبك ؟ ! . . إنه أغلى عندي من البريمو ! . .

ويمران « بعربة كارو » تحمل سائقاً نائماً ، فتسبقها الـدراجة ، وتتـظاهر « سهـير » بالسرور لأنهما سبقـا « العربـة الكـارو » وتقـول « لابراهيم » وهي تصفق :

ـ براڤو يا « ابراهيم » سبقنا « العربة الكارو » . .

وأسرع « ابراهيم » بالدراجة وهو يقول :

ـ بذمتك ! . . أيهما ألذ . . . ركوب السيارة الكاديلاك . . أم ركوب البسكليت ؟ . .

وتعبث « سهير » بجرس الدراجة ثم تقول وهي تقبله في شفتيه :

ـ ركوب البسكليت يا حبيبي ! . .

وتتنهد « سهير » وتدفن رأسها في صدر « ابراهيم » وتقول :

ـ طبعاً . . بشرط أن يكون بسكليت « ابراهيم » ! . .

ووصلت بهما الدراجة إلى شارع مقفر ، ونزلا من فوقها ، وجلسا على الأرض في إحدى حدائق الشارع الصغيرة . .

وأقبل بائع سميط ، واستوقفاه ، وقال البائع لهما :

ـ استفتاح لبن ! . .

واشترى « ابراهيم » سميطتين وبيضتين . .

وراحت « سهير » تقضم السميط بشراهة ، وقالت :

ـ إنه أجمل إفطار أكلته في حياتي ! . .

وخطف منها « ابراهيم » ما تبقَّى من السميط ، وهو يقول :

ـ لقد أكلتِ سميطتك . . وبدأت تعتدين على سميطتي ! . .

وتمسكت « سهير » بالسميطة وهي تقول :

ـ أنا جائعة ! . . جائعة لكل شيء ! . . جائعة للسعادة ! . . جائعة للحب ! . . جائعة للدنيا ! . .

وقال « ابراهيم » :

ـ ولكنك أفسدت الرجيم ! . .

قالت « سهير » :

ـ الرجيم ! . . إن حبك هو رجيمي الجديد ! . . إن الأطباء حاروا من قبل في صحتي ! . . ولكن أحداً منهم لم يخطر بباله الدواء الصحيح ! . . إني أحب ! . . إنني أشعر الآن أنني نقصت عشر سنوات من عمري . . عدت فتاة صغيرة من جديد ! . . حتى لون بشرتي أصبح ناضراً ! . . إنني الآن آكل بشراهة . . لأني أحب الشراهة ! . . وإذا ضحكت أضحك من كل قلبي ! . . وإذا بكيت أبكي من كل قلبي ! . .

قال « ابراهيم » وهو يطوقها بذراعه وكأنه يحميها من الدموع :

ـ بكيتِ ؟ . . لماذا تبكين ؟ . .

قالت « سهير » وهي تمسح شعر رأسه بيدها :

ـ إنني أبكي لأنني لم أحبك قبل الآن ! . . أبكي على الأيام التي عشتها بغير أن أعرف الحب ! . .

وأدار « ابراهيم » بدال الدراجة الراقدة بجواره ، وقال :

ـ لم أكن أتصور أن الحب يمكن أن يركب الدراجة ! . .

قالت « سهير » وقد استلقت على الحشيش وكأنها تحلم :

ـ إن الحب لا يركب الكاديلاك ! .. إنه يختنق فيه ! . . الحب ككل شيء حي يحتاج إلى الهواء . . إن الهوى يحب الهواء ! . .

وتأمل « ابراهيم » . . « سهير » . . وهي راقدة كأنها تمثال من المرمر ملقي على أرض حديقة قبل أن يوضع على قاعدة من الرخام في وسطها ثم قال :

ـ تعرفي يا « سهير » أنت أجمل بغير تواليت . . بغير ألوان . بغير أضواء ! . .

وقامت « سهير » نصف قيام ، وقالت :

ـ أنا الآن أرى نفسي جميلة فعلاً ! . . سوف تقول أنني مغرورة . . نعم . . إن الحب حوَّلني مغرورة . . جعلني أثق بنفسي ! . . جعلني أشعر بجمالي . . لست في حاجة أن أنظر إلى مرآة . . يكفي أن أنظر إلى عينيك لأعرف أنني أصبحت مخلوقة أخرى ! . .

ونام « ابراهيم » على الحشائش وجذبها بجواره وهو يقول :

ـ أنا أشعر أنني ولدت من جديد ! . . إن اعترافك لي بالحب ، أول مرة ، كان شهادة ميلادي . . وقبلتك الأولى كانت الشهادة الابتدائية ! . . وعناقك الأول كان شهادة التوجيهية ! . .

وضحكت « سهير » ، وأسرعت تضع أصبعها في فمه حتى لا يسترسل في ذكر الشهادات التي حصل عليها وقالت له :

ـ وشهادة البكالوريوس هي شهادة المأذون ! . .

وتمتم « ابراهيم » في دهشة :

ـ المأذون ؟ ! . .

إنها أول مرة سمع « إبراهيم » من « سهير » كلمة المأذون ! . . أو إشارة إلى الزواج ! . .

وقامت « سهير » من رقدتها واعتدلت في جلستها وقالت :

ـ نعم المأذون ! . . لقد مضت بضعة أيام وأنت تريد أن تفاتحني في الزواج ! . . كانت شفتاك ترتعشان كأنهما تريدان أن تقولا شيئاً ، ولكن كانت الكلمات تموت عليهما ! . . وكان صمتك أبلغ من كلماتك ! . . كان صمتاً مقنعاً ! . . كأنه مرافعة قوية يلقيها محامٍ قدير ! . . ولم يكن القاضي في حاجة إلى أن يسمع الدفاع ، لقد كان أصدر حكمه قبل أن تبدأ المرافعة ! . .

ويفتح « ابراهيم » فمه ليقول شيئاً فلا يجد كلاماً ! . . إنه أشبه برجل وجد في يده كنوز الأرض كلها ، ولم يكن يطمع في أكثر من جنيه واحد ، وتمالك نفسه وأمسك يدها في يده وراح يغمرها بقبلات ! . .

ومضت « سهير » تتكلم وتقول :

ـ أنا أعلم أنه مضى عليك عدة أسابيع تريد أن تقول إنك تتمنى أن تتزوج ! . .

وأمسك « إبراهيم » طوبة صغيرة وألقاها على الشجرة . . فطارت العصافير ! . . وتطلع « ابراهيم » إلى العصافير الهاربة ثم قال « لسهير » :

ـ كنت خائفاً أن أفقد العصفورة التي في يدي ولا أصيد العصافير العشرة ! . . كنت أخشى لو فاتحتك في الزواج أن أفقد حبك ! . . إنني كنت راضياً أن أحبك من بعيد ، وكنت سعيداً أن

أحبك من قريب . . ولكن كانت فكرة الزواج منك تبدو كحلم . . كشيء مستحيل ! . .

وقامت « سهير » من الأرض ، وهي تقول :

ـ دعني أتقدم أنا إليك . .

ثم انحنت أمام « إبراهيم » وهي تقول :

ـ هل تسمح لي بشرف الزواج منك ؟ ! . .

وجذبها « ابراهيم » إلى الأرض وأخذها بين ذراعيه وراح يقبلها ويقول :

ـ شرف الزواج مني ؟ ! . . يا نهار ابيض . . وده معقول!!

وتخلصت « سهير » من ذراعيه وابتعدت عنه وقالت ساخرة :

ـ يا لك من عبيط ! . . اتقل شوية ! . . لا يصح أن « تندلق » بسرعة . . عندما يتقدم الفتى ليخطب الفتاة لا تقبل على الفور ! . . إن وجهها يحمر أولاً ! . .

ويعتدل « ابراهيم » في جلسته ويقول :

ـ طيب . . انتظري قليلاً حتى يحمر وجهي ! . .

وتمضي « سهير » تعلم « ابراهيم » :

ـ ثم تقول وأنت تضع عينيك في الأرض، سأفكر ! . . أو انتظر حتى أسأل عن أخلاقك ! . . أو دعني أسأل أهلي أولاً ! . .

ويضمها « ابراهيم » إلى صدره ويقول :

ـ ولكنك أنت أهلي ! . .

وغطت « سهير » ساقيها بفستانها الذي كان يعبث بأطرافه هواء الفجر البارد وقالت :

ـ من يصدق أنني أنا الذي كاشفتك بالحب أولاً ! . . وأنني أنا الذي تقدمت أطلب يدك ! . . سيقول التاريخ أنني فتاة « بجحة » قليلة الحياء ما اختشيش ! . .

ومال « ابراهيم » برأسه على صدرها وهو يطوقها بذراعه وقال :

ـ أنا الذي أحببتك أولاً ! . . كل ما هناك أنك قرأت أفكاري ، إن أقوى حب هو الذي لا يتبادل فيه العاشقان كلاماً . . أنتِ تسمعينني دون أن أفتح فمي ! . . وأنتِ ترينني دون أن تفتحي عينيكِ ! . . وأنتِ تجيبين على أسئلتي قبل أن أوجهها إليك ! . .

وأجفلت « سهير » ، وابتعدت قليلاً وهي تتظاهر بالغضب ، وأخذت تصيح :

ـ لا . . لا . . أرجوك ! . . الدنيا بقيت صبح ! . .

وعجب « ابراهيم » لهذه الحركة المفاجئة وقال لها في ذهول :

ـ فيه إيه . . ماذا قلتِ ؟

قالت « سهير » :

ـ عيناك . . عيناك قالتا إنك تريد أن تقبِّلني وأنا قلت لا ! . .

وضحك « ابراهيم » للنكتة ! . . وجذب « سهير » من كتفيها وضمها إلى صدره وطبع على شفتيها قبلة حارة . . ثم قبلها مرة أخرى قبلة طويلة ! . .

وصاحت « سهير » معاتبة :

ـ أنت قلت لي بعينيك أنك تريد مني قبلة واحدة . . لماذا تأخذ قبلتين ؟ ! . .

وضمها « ابراهيم » مرة أخرى وقال :

ـ إن عينيّ تفأفآن ! . . إنهما تنطقان الحرف الواحد مرتين ! . .

* * *

وجاءت الشمس تطل عليهما ، وجاء مع خيوطها الذهبية « عربات الكارو » ، ثم « عربات النقل » ، فقد بدأت المدينة تستيقظ . . وقامت « سهير » و« ابراهيم » ليعودا إلى البيت . .

وأراد « ابراهيم » أن يقود الدراجة ، ولكن « سهير » جذبتها وهي تقول :

ـ دعني أقودها ! . .

وجلست « سهير » على مقعد الدراجة ، وجلس « ابراهيم » أمامها ، ومرت الدراجة ببعض الناس فراحوا يضحكون ويقولون :

ـ الدنيا تسير بالمقلوب ! . . الست بتسوق ، والراجل قاعد قدامها ! . .

وأغرقت « سهير » في الضحك وقالت :

ـ عندما نرى نحن أن الدنيا تسير بالمعدول ، يراها الناس كأنها تسير بالمقلوب ! . .

وقال « ابراهيم » :

ـ كل شيء حولنا يضحك ! . .

وقالت « سهير » :

ـ ويغني ويرقص ! . .

ومال « ابراهيم » برأسه إلى « سهير » وقال :

ـ في بعض الأحيان أتصور أنني لم أكن أعيش قبل أن أحبك ! . . كأن الله خلق الدنيا يوم أحببتك ! . . إنني أرى كل شيء جديداً حولي ! . . كل شيء جميلاً في عيني ! . . كأن الله خلق هذه الدنيا لنا وحدنا ! . . هذه المدينة مدينتنا . . هذه الشوارع ملكنا وحدنا ! . . إنني لا أرى في الدنيا إلا أنتِ وأنا . . كأن الدنيا خلقت لتكون « أرضية » لصورة حبنا !!

وتنهدت « سهير » وقالت :

ـ إنك شاعر يا « ابراهيم »

قال « ابراهيم » :

ـ إن خفقات الحب هي الأوزان التي يزن فيها الشعراء قصائدهم ! . . وكلما كان الحب كبيراً كلما كانت القصيدة عظيمة ! . .

ولمست « سهير » بأصابعها شعر « ابراهيم » بحنان وقالت :

ـ إذن أنت الآن أمير الشعراء ! . .

وتلفت « ابراهيم » حوله وقال :

ـ إنني أرى أن كل شيء حولي يحب بعضه ! . . كأن الدنيا أصبحت كلها دنيا الهوى ! . . كأن العداوة والحقد والكراهية نزلت

عن عروشها وأصبح الحب وحده ملكاً ! . .

قالت « سهير » وهي تضمه :

ـ ونحن رعايا المملكة ! . .

وهمس « إبراهيم » :

ـ بل نحن ملوكها ! . .

* * *

وهكذا استطاع « ابراهيم » أن يفعل في « سهير » شيئاً لم يستطع أن يفعله المجد ، ولا الأنوار الساطعة ، ولا التصفيق والهتاف . . وقبل « ابراهيم » كانت « سهير » تشعر أن حياتها لا تحتمل . . كانت تشعر أن روحها فارغة ، وكان هذا الفراغ يجعلها لا تسر لشيء ولا تحزن لشيء . . لا تعرف الدموع إلا على المسرح . . ولا الضحكات إلا على شاشة الأفلام ! . . لا تحركها المصائب ولا تثيرها الأفراح . . كانت روحها أشبه بلمبة محروقة في جهاز راديو . . ولهذا كانت تعيش جامدة لا تلتقط أصوات الحب ولا تنبعث من قلبها ألحان الغرام . . كانت تقول أن قلبها لهذا السبب لا يضيء . . وكانت تشعر في بعض الأيام أن قلبها أصبح كالبطيخة المليئة بالماء ، لا طعم ولا حلاوة فيها . . وهي موضوعة في واجهة أكبر محل فكهاني . . يمر الناس ويعجبون بمظهرها . . يتمنونها . . يشتهون طعمها . . وويل لهم لو فعلوا . . إنهم سيجدونها بطيخة بلا قلب ! . .

وكانت « سهير » تبحث عن قلبها في قلوب الناس . . كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تكون سعيدة ، وكانت لهذا السبب تبحث عن أناس تسعدهم . . وكانت لا تستطيع أن ترى الابتسامة على شفتيها ، ولهذا تحاول أن تراها على شفاه الناس . . ومن أجل هذا كانت تنفق جزءاً كبيراً من دخلها الكبير على الناس . . كانت تدفع

رسوم الجامعة للطلبة العاجزين ، وكانت تشتري الدواء لمن لا يجدون الـدواء ، وكانت تـدفع المهـر للذين أجلوا زواجهم لأنهم لا يجدون المهـور ! . . وعرف النـاس عنها حبهـا للخير فـانـدفعـوا يـطلبـون معـونتها ، فكـانت تجد لـذة في العطاء كنفس اللذة التي يشعـر بهـا البخيل وهو يكنز المال ، وبهذا أحبها النـاس ، ولكنها لم تجـد رجلاً قوياً واحداً تحبه . . وكانت في بعض الأحيان تقول لنفسها إنها لكثرة ما تحدثت عن الحب والهوى في أغانيها ومسرحياتها وأفلامها أصيبت بمناعة كالتي يُصاب بها الذين يحقنون أنفسهم بمصل الجـدري ! . . ولهـذا لا يتحرك قلبهـا إلا على صـوت دوي هـائـل . . وقـد جـاء « ابراهيم » وقرع الجرس الذي لم يعـرف أحد مكـانه ! . . أو عـلى الأصح أن الجرس أصيب بـ « ماس » كهربائي فراح يدوِّي ويدوِّي حتى فتحت « سهير » باب قلبها ! . .

وقـد سمعت « سهير » « ابـراهيم » دون أن يتكلم . وأحست أنهما تبادلا عبارات الحب الحارة بغير كلمات . . ولا تذكر « سهـير » كيف حـركهـا « ابـراهيم » ! . . ولا تـذكـر متى بـدأت تشعـر أنـه يحبها . . هل رأت الحب في عينيه ؟ . . هل شعرت بحرارتـه وهي تحس بأنفاسه وهو يمثل دوره في البروفة ؟ . . هل رأت أنه يختلف عن كل الذين حولها ؟ . . إن كل من حولها يركع في محرابها ويسجد أمام قلبها ، ويتغنى بجمالها ، ويعرض عليها الحب والهوى . . ولكن هذا الشـاب الصغير لم يقترب منها ، لم يحـاول أن يشق لنفسـه مكـانـاً في الـزحام ، وإنمـا وقف بعيداً . . بعيـداً جـداً . . يـرقبهـا من بعيـد ويناجيها من بعيد . . ومن أجل هذا تركت كل الأيدي الممدودة لها ، واتجهت إلى من لم يمد يده بالسؤال . .

هل أعجبها اعتزازه بكرامته ؟ . . هل أحسَّت أن الحب الصامت أقوى من الحب الذي يثرثر ؟ ! . .

إن « سهير » لم تستطع أن تجيب على هذه الأسئلة ، ولم تعرف لماذا أحبت « ابراهيم » دون سواه ! . . ولعلها أحبته لكل هذا معاً ، ولعلها رأت في بساطته صدقاً لم تجده في غزل الشعراء ولا خيال الكتّاب ولا ملق المعجبين ! . .

وعندما قويت العلاقة بينهما بدأت تجد بعض الردود على بعض أسئلتها . . إنها رأت أن جاذبية « ابراهيم » الحقيقية في أنه طبيعي لا يتصنع ، ولا يتكلف ، ولا يمثِّل ! . . إنها ملَّت الحياة وسط الممثلين والمتلونين والمزوقين ، وقد كانت تبحث عن إنسان يحبها لشخصها ويقدرها لنفسها . . كأنه رآها وهي متنكرة بلا اسم وبلا لقب وبلا أضواء . . وأحبها لأنها هي ! . . لا للمجد الذي يحيط بها ، ولا للدوي الذي يصنعه اسمها ، ولا للملابس الفاخرة والمجوهرات الثمينة التي تجعلها تبدو على المسرح كعروس في ليلة الزفاف ! . .

ما أشبهها بشخص يرى فرقة أوركسترا ضخمة تعزف وتغني ، وتوزع الأنغام والألحان ، ثم لا تحركه أنغامها ولا تثيره ألحانها . . ثم إذا به يتجه إلى قروي يعزف على الناي أنغاماً ساذجة ولكنها صادقة . . ضعيفة ولكنها حية . . هادئة ولكنها مثيرة ! . .

إنها اختارت الناي الصغير وفضلته عن الأوركسترا الهائلة ! . . وقد يكون السبب في هذا أن القروية فيها غلبت على البريمادونا ، فاتجهت إلى أصلها وإلى ماضيها واختارت أقرب إنسان لها . . فلاحاً مثلها . . بسيطاً مثلها . . فرأت فيه ما كانت ، قبل أن تمشي في

شارع المجد . . وقبل أن تصبح نجمة تضيء من خارجها وفي داخلها ظلام وسواد ! . .

***

ويسرع « إبراهيم » إلى أمه يبلغها البشرى أنه سيتزوج من « سهير » . واعتقد « ابراهيم » أن أمه سترقص من شدة الفرح . . وكانت أم « ابراهيم » جالسة على المقعد، وقد ارتدت ثوبها الأسود ، وغطت رأسها بطرحتها السوداء التي لم تخلعها يوماً منذ وفاة والد « ابراهيم » . . وكانت أمامها « كنكة » القهوة و« وابور السبرتو » تصنع قهوتها المعتادة ، ولبثت أم « ابراهيم » تدير معلقة البن في « الكنكة » . . ولم يبد عليها الغبطة لهذا النبأ السعيد ! . .

وعجب « ابراهيم » لموقف أمه . . كيف لا تبتهج لهذا الزواج ؟ ولكن أم « ابراهيم » فاجأته بقولها :

ـ ما لنا يا « ابراهيم » وزواج الممثلات ! . .

ودهش « ابراهيم » : الممثلات ؟ . . ما لهن الممثلات ! . . ولكن « سهير » ليست ممثلة ! . . إنها سيدة الممثلات ، إنها نجمة الجماهير ! . .

وسكبت أم « ابراهيم » بهدوء « كنكة » القهوة في الفنجان وقالت :

ـ كنت أفضل أن تتزوج واحدة على قدنا ! . .

واستشاط « ابراهيم » غضباً وقال :

ـ على قدنا ؟ . . يعني صعلوكة مثلنا ! . . إنني أشعر أن

« سهير » على قدي تمام ! . . أشعر أنها لا تمتاز عني بشي ، أحس أنها « إنسان » مثلي ! . .

وأمسكت أم « ابراهيم » فنجان القهوة فاهتز في يدها ، وسقطت بعض القهوة في الطبق ، فقالت :

ـ خير إن شاء الله . .

قال « ابراهيم » :

ـ طبعاً خير ! . . هل يوجد خير أكثر من أن تختارني « سهير » دون شباب مصر كلهم ! . . هل يوجد خير أكثر من أن ترفض زواج الكبراء والعظماء وتختارني أنا ! . .

ورشفت أم « ابراهيم » فنجان القهوة ثم قالت :

ـ كنت أتمنى أن تتزوج ابنة خالتك « مفيدة » . . أو ابنة عمتك « ستوتة » . . أو ابنة خالك « زليخة » ! . .

وقهقه « ابراهيم » وقال :

ـ « مفيدة » ؟ . . « ستوتة » ؟ . . « زليخة » ! . . حتى أسماءهن قبيحة ! . .

وقالت أم « ابراهيم » :

ـ الاسم يا « ابراهيم » غير مهم ! . . لو لم يعجبك الاسم فغيره . . المهم الأخلاق ! . .

واحتج « ابراهيم » وقال :

ـ الأخلاق ! . . إنك رأيتِ « سهير » بنفسك ، ورأيتِ

أخلاقها ، لم أسمعكِ تقولين كلمة واحدة ضدها . . فلماذا تهاجمينها الآن !!

ومضت أم « ابراهيم » ترشف القهوة بهدوء وقالت :

ـ لم أقل شيئاً ضدها لأنني عرفت أنك تحبها ! . . ولكن فرق بين أن تحبها وتتزوجها ! . . إن « سهير » ليست مثلنا . . أنا أريد بنت غلبانة مثلنا . . فقيرة مثلنا . . تكون أنت أول رجل في حياتها ! . .

وأحس « ابراهيم » بطعنة خنجر : « أول رجل في حياتها !؟ . . ماذا تعنين ؟ . . هل تقصدين أنها امرأة فاسدة ؟ . . »

وأمسكت « أم ابراهيم » فنجان القهوة وقلبته على الطبق لترى بختها أو بخت « ابراهيم » وقالت :

ـ معاذ الله أن أقول إنها امرأة فاسدة . . ولكن أسمع منك كثيراً عن هذا الوسط الذي تعيش فيه . . أسمع منك أنه وسط موبوء ، فيه انحلال ، وفيه استهتار ، ولا يمكن أن تكون فتاة مثل هذه لم تحب ولم تعشق ، ولم تعرف الرجال ! . . أنا أريد لك فتاة أنت أول بختها ! . . إن « وابور الغاز » المستعمل حتى ولو كان أحسن ماركة لا يعيش كما يعيش « وابور الغاز » الجديد ! . .

قال « ابراهيم » ساخراً :

ـ لو كنتِ تفهمين في الموسيقى لعلمتِ أن البيانو المستعمل يعزف خيراً من البيانو الجديد ! . .

ولكن « أم ابراهيم » تعترف أنها لا تفهم في الموسيقى ، وأنها

ترى أن « ابراهيم » « جديد » فيجب أن يكون بيته جديداً ، وعفشه جديداً ، وزوجته جديدة أيضاً ! . .

وتمسك « أم ابراهيم » الفنجان وتقرأ الخطوط السوداء التي فيه وهي تهز رأسها ، وكأنها تجد في هذه الخطوط ما يؤيد رأيها ويتفق مع منطقها : إن الفقراء هم الذين يشترون الأشياء « نصف عمر » ! . . وأنا أعتقد أنك لست فقيراً في روحك ! . . إن روحك روح صاحب ملايين ! . .

ويشعل « ابراهيم » سيجارته بحركة عصبية ! . . إنها المرة الأولى التي يتجرأ فيها مخلوق لينال من المرأة التي يعبدها ! . . ومن الذي يفعل هذا ؟ . . إنها أمه أقرب الناس إليه وأعز مخلوقة على قلبه ! . . لو ان امرأة أخرى قالت هذه الكلمات لخنقها بيديه . . ولكن أمه هي التي تلقي الطين على المرأة المقدسة ! . . إنه لم يفكر أن يبحث عن ماضي « سهير » ، ولم يفكر أن يسأل « سهير » هل لها ماضٍ أم لا ؟ . . إنه شعر أن « سهير » وُلدت يوم أحبها ، وهي مسؤولة عن تصرفاتها منذ ولادة هذا الحب ! . . لا يهمه ماذا كانت تفعل عندما كانت في بطن أمها ! . .

ولنفرض أن « سهير » كان لها ماضٍ . . فماذا يعنيه من الماضي ؟ لنفرض أنها « نصف عمر » . . إنه يعرف سيدات مطلقات وأرامل شابات أسعدن أزواجهن . . إن المرأة لا تفقد جدتها إذا أحبت ، وتزوجت وطلقت ، أو ترملت . . بل على العكس إنها تحاول أن تعوض في الرجل الثاني ما فقدته في الرجل الأول . . إنها ستبذل مجهوداً للحصول على السعادة أكثر مما تبذله فتاة صغيرة تخطو إلى

السعادة لأول مرة . ذلك أن المرأة التي فشلت في حبها الأول اكتسبت تجربة تجعلها ترى أن الزواج ليس مغامرة وإنما هو كفاح ضخم لا تفوز فيه إلا المرأة الصابرة المجاهدة التي ذاقت ألم فقد زواجها ، وعرفت الوحدة والفشل والخيبة والهزيمة ! . .

* * *

و« ابراهيم » يشعر أنه رجل غير عادي ، رجل صعب لا ترضيه أية امرأة ، إنه يحتاج إلى مروِّضة أسود لا إلى زوجة . . إنه يحتاج إلى امرأة فيها عشرة في المائة من الزوجة ، وتسعون في المائة من الأمومة . . يريد امرأة مكافحة تحول فشله إلى نجاح ، تمتص المرارة من روحه ، تكتشف بترول الهناء المخبوء في أغوار نفسه . فيجب أن تكون هذه امرأة مجربة ، فإن البترول لا يكشفه الهواة الذين يحفرون الأرض ، بل يكشفه الخبراء الذين يجيدون حساب الأرض . .

وتسمع «أم ابراهيم » هذا الكلام فتفتح فمها في دهشة ، كأنها تسمع كفراً وشركاً بالله ! . .

وتصيح فيه غاضبة :

ـ لست أنت يا « ابراهيم » الذي يتكلم ! . . لست أنت الذي ينطق بهذا الكفر ! . . إنه شخصٌ آخر ! . . إن الحب هو الذي يتكلم ! . . أنت مجنون « بسهير » وكلامك هذا كلام مجانين ! . . إن المرأة التي عاشت في الوحل لا تلبث أن تعود إليه . . كلما ارتفعت فوق الوحل وجدت قوة جاذبية ضخمة تجلبها إلى التراب والماء اللذين امتزجا بروحها ! . . لو أنها اشترت حذاء تغطي به قدمها فإنها ستحس بعد فترة بأنها تريد أن تخلع حذاءها مرة أخرى وتسير في

الوحل من جديد ! . . ستجد لذة في أن تغوص قدماها في الوحل ولا تغوص في السجاجيد ! . . سوف تضيق بالحياة الزوجية لتندفع إلى مغامرة جديدة . . إن معاني السعادة التي يعرفها الناس البسطاء لن تسعدها ! . . لن يعوضها البيت عن طعم الطين الذي عاشت فيه .

ويتحرك « ابراهيم » من مقعده لأنه يرغب في أن يترك الغرفة ! . . إنه لم يعد يحتمل هذا الطعن الجارح الظالم في المرأة التي يحبها . وتهيأ « ابراهيم » للقيام وهو يقول :

ـ أنتِ يا أمي التي تتكلمين عن شخصٍ آخر ! . . هذه المرأة التي تصفينها ليست هي ! . .

وأمسكت « أم ابراهيم » ولدها من يده وجذبته نحوها وقالت :

ـ إنك تشعر « بسهير » ولا تراها ! . . إنك ترى جمالها على المسرح لا جمالها الحقيقي ، وتسمع كلمات التمثيل لا كلماتها هي . ترى كل هذا في وجوه الذين يشهدون التمثيل ولا ترى التمثيل نفسه ! . . إن تعبيرات الوجوه ، وومضات العيون ، وارتعاش شفاه المتفرجين تجعلك ترى « سهير » في خيالك ! . . ولكنك لن تتزوج الممثلة . . إنك ستتزوج المرأة ! . .

إنك يا « ابراهيم » لا يمكن أن تهدي امرأة ضالة ! . . هل تستطيع أن تحوِّل الطين إلى لبن حليب ؟ ! . . هل يمكن أن تخلق من الغانية قديسة أو ملاكاً ؟ ! . . أنت لم تذق الخمر مرة في حياتك ، ولكنها عندما جاءت لزيارتك هنا أحضرت زجاجة بيرة ! . . إنها أول مرة تدخل فيها إلى بيتنا زجاجة خمر ! . .

إن المرأة التي تمثل الهـوى بهذه العبقـرية لا يمكن أن تكـون قد ذاقت الهـوى ! . . المرأة التي تشرب زجـاجة بـيرة كاملة في جلسـة واحدة لا بد أن تكون امرأة مستهترة سرت الخمر في شرايينها سريان الدم ! . . أنت تقي ، ورع ، متدين ، وهي لعوب عابثة !

ويغضب « ابراهيم » ويقول لها :

ـ أنا لا أسمح لكِ أن تقولي عن « سهير » أنها لعوب ! . .

قالت الأم :

ـ إن المرأة التي تزور شاباً عازباً في بيته لا يمكن أن تكون ملاكاً أو قديسة ! . .

ويغلي الدم في عروق « ابراهيم » ويقول :

ـ مـاذا تقصدين ؟ ! . . إنني أقسم لـكِ أن العلاقـة بيني وبين « سهير » علاقة شريفة بريئـة .

قالت « أم ابراهيم » ، وهي تتظاهر بتنظيف الطقطوقة من بقايا سجاير « ابراهيم » :

ـ إذا كانت العلاقـة شريفة ، فـالفضل لـك . . وليس الفضل لها ! . . إن الحب أعماك يا « ابراهيم » ! . .

وانفجر « ابراهيم » في وجه أمه قائلاً :

ـ إن الحب لم يعمني . . لو كانت « سهير » فاجرة فإنني واثق أنه يستطيع أن يهديها ! . . إنه قادرٌ أن يحول الممثلة إلى راهبة والغـانية إلى زوجة .

قالت « أم ابراهيم » :

ـ أنت أشبه برجل دين دخل في كباريه أحمـر ، وراح يحاول أن يطارد الشيطان في بيته .

وقال « ابراهيم » إنه مصممٌ على أن ينتصر على الشيطان ! . . لو أن في « سهير » شيطاناً فإنه لن يبتعـد عنه ، ولن يتجنبـه . . إنه سيـواجه الشيـطان ويقـاومـه ، فـإمـا أن يـأسر الشيـطان أو يـأسره الشيطان ! . .

قالت « أم ابراهيم » :

ـ إنني لا أريد أن أخذل ابني الذي يؤمن بأنه قادرٌ على أن يغلب الشيطان . . ولكني أحب أن أنصح لك ألا تدخل معركة العدو فيها مجهز بأحدث وسائل القتال ! . . إن المعركة غير متكافئة . . إن قوى الشر في هذه الحرب أكثر من قوى الخير . . إنها معركة بين قنبلة ذرية وعصا ! . .

* * *

قال « ابراهيم » متحمساً :

ـ إن الحب يصنع المعجزات ! . . إنه يستطيع أن يجعل العصا تغلب القنبلة الذرية ! . . ولا أظن أن هناك ما يمنع من تحويل الغانية إلى قديسة . . إن كل إنسان فيه كرات من الخير وكرات من الشر ـ كالكرات الحمراء ، والكرات البيضاء في الدم ـ فـإذا وجد الـطبيب الذي يستطيع أن يزيد الخير في النفس ، فإنه قـادرٌ أن يشفي الروح التعسة . . ولست أفهم كيف يمكن تحويـل المرأة الفـاضلة إلى امرأة مستهترة ، ولا يمكن تحويل الغانية إلى قديسة . . ولماذا لا يكون للخير

أسلحة فتاكة كأسلحة الشر ! . . لماذا يبدو الخير دائماً بصورة الرجل الطيب الذي يتوارى إلى جوار الحائط وكأنه يرتكب الخطايا ! . . بينما يسير موكب الشيطان في ضجيجٍ وطبلٍ وزمر ، كأنه الغازي الفاتح صاحب النصر المبين ! . . إن الشيطان يختار المكان والزمان والجو الذي يقوم فيه بعملية الإغراء ، فلماذا لا يحاول الخير أن يفعل ما يفعله الشيطان ! . . لماذا لا يهمس بعبارات الخير في جو شاعري ! . . إن الهمس دائماً يغلب الصراع ! . . وجو المؤامرة المظلم يؤثر في النفس أكثر مما تؤثر كلمات الوعظ ، وهي تُلقَى من فوق المنابر بواسطة الميكروفونات ! . . لماذا لا نحاول أن نتآمر على الشيطان بنفس الأساليب التي يتآمر بها الشيطان ؟ . . لماذا لا يجعل الرجل التقي من الفضيلة شيئاً جميلاً مثيراً ترتعش له شفتا المرأة ، ويخفق له قلبها كما تفعل أحاديث الشيطان ؟ . .

ومضى « ابراهيم » يترافع عن نظريته أمام أمه ، وكأنه محامٍ يطلب الحكم ببراءة متهم مطلوب الحكم عليه بالإعدام . وقال :

- إنني شهدت من قبل عدة معارك مع الشيطان . . كان الشيطان يصبر على ضحيته . . لا يهاجمها مواجهة . . يحاورها ويداورها . . يدفعها خطوة خطوة . . لا يسكرها بالكأس كلها . . دائماً يعطيها الكأس قطرة قطرة . . فلماذا لا يفعل الخير ما يفعله الشر ؟ . . لماذا لا يحاول أن يجعل معركة الهداية معركة لذيذة ليس فيها عنف ولا إرغام ؟ . . أنا أعرف أن هذا ليس بالأمر السهل . . إنه كما قلت أمر يحتاج إلى صبرٍ طويل وإلى إيمان . وأنا أعرف أنني إذا أردت أن أحوِّل الغانية إلى ملاك فأنا أحاول أن أخلق شيئاً من لا شيء ! . . إنني ألد مولوداً جديداً . . فأبدأ بتربيته شيئاً فشيئاً . . لا يستطيع المولود أن يقف على قدميه . . سيحاول أن يقف ثم يقع ،

سيحاول أن يمشي فيسقط ، وعندئذ أمد له يدي من جديد ، وأساعده أن يقف . . ثم أساعده أن يمشي . . ثم أعطيه فيتامينات من العطف والرعاية . . إن الطفل في ولادته محتاج إلى الاهتمام الدائم . . إنك إذا أغفلته لحظة . . فقد يبلع دبوساً أو يسقط من نافذة . . يجب أن أبقى بجواره وأعطيه الأمل أنه سيكبر ، وسيمشي ، وسيتكلم ، ويصبح شاباً قوياً ! . . وفي الطريق إلى هذا ستصادفني صدمات . . سيتعرض الطفل للأمراض . . سيقع على الأرض عدة مرات . . سيثير أعصابي بصراخه . . ولكن مع ذلك سأشعر بسعادة وأنا أرى الفضيلة وهي تكبر تدريجياً ، وتتحول من جنين إلى طفل . . إلى ولد . . إلى شاب ! . .

قالت الأم :

ـ ولكن كثيرين من الأولاد الذين يولدون ضعفاء لا يستطيعون مواجهة الهواء ، وقد يزيد في تعرضهم للبرد أننا نغلق عليهم الأبواب ونسد النوافذ ونغطيهم بالأغطية ونلفهم بالملابس الثقيلة .

قال « إبراهيم » :

ـ إنني أفضل نظرية الأطباء الجدد بأن نعرض الطفل للبرد ليستطيع أن يواجه العاصفة !

قالت الأم بحزم :

ـ ولكن في تنشئة الفضيلة أفضل نظرية الأطباء القدامى . . إنني أنصح الشاب الذي قرر أن يتزوج غانية أن يبعدها ما أمكن من العواصف والهواء والنوافذ المفتوحة ! . . ولكنك يا « ابراهيم » لن تفعل ذلك . . سوف تترك « سهير » تعمل على المسرح . . سوف

تتعرض كل يوم للإغراءات ولدعوات الحب والغزل ! . . ولو كانت تحبك فإنها على الأقل تعتزل المسرح وتعيش زوجة كسائر الزوجات ! . . أما أن تبقى في تيارات الهواء فإنني لا أعتقد أن مثل هذا الزواج يمكن أن يعيش ! . .

وصرخ « ابراهيم » كأن عقرباً لدغته . . وقال لأمه في عنف :

ـ ما هذا الكلام يا أمي ! . . هل جننتِ ؟ . . تريدين أن تنزل ملكة عن عرشها لتتزوجني ! . .

قالت الأم في هدوء :

ـ أنا أعرف ملكاً نزل من عرشه ليتزوج من امرأة عادية ! . .

قال « ابراهيم » وهو يحاول أن يمسك أعصابه الثائرة :

ـ ولكن أنا فنان يا أمي مثلها ! . . أنا أعتبر الفن مهنة مقدسة كالعبادة ! . . لو أنني نظرت إلى الفنانة هذه النظرة الدنسة لما قبلت أن أدخل هذا الوسط . وأنتِ امرأة متعلمة . . فكيف تتكلمين عن الفنانين بهذا الأسلوب ! . .

قالت الأم بغير أن يبدو عليها أنها انزعجت لثورة ابنها :

ـ إن زواج الفنانين لا ينجح . . إن ابن عمي تزوج من «غازية » في بلدنا وطلقها بعد ثلاثة أسابيع ! . .

وثار « ابراهيم » لتشبيه « سهير » نجمة الجماهير « بغازية » ! . .

قالت « أم ابراهيم » :

ـ إن بنت صديقتي « الست صابحة » تزوجت من ممثل سينما ولم يعمر هذا الزواج ! . . إن القبلات التي رأتها على الشاشة لم تذقها في الحقيقة .

إن الكلمات الحلوة التي يضعها المؤلفون على ألسنة النجوم ينسونها إذا ما غادروا الأستوديو وعادوا إلى بيوتهم ! . . كانت تتصور أن حياتها ستصبح قصة تكون هي بطلتها ، وأن هذه القصة ستمثل كل يوم ، وكل ساعة من ساعات النهار ، وأن زوجها النجم سيكون لها وحدها . . ستكون هي الشاشة الوحيدة والمتفرجة الوحيدة في فيلم خالد . . ولكنها لم تجد شيئاً من هذا . إن الأضواء وحدها التي تجعل من هذا الممثل العادي عملاقاً ضخماً ، والمكياج يخفي عيوبه ، والشهرة تحيطه بهالة ، والطبل الذي يدق حوله يجعله موضع الأنظار . فإذا أطفئت الأضواء ، ومسح المكياج ، وتوقف الطبل تضاءل العملاق إلى قزم ، وتحول النجم إلى شمعة تحترق ! . .

وهذا عيب الشبان الصغار الذين يريدون أن يتزوجوا من النجوم ! . . إنهم يحسبون أنهم يستطيعون الحياة في قصيدة رائعة ، أو في لحن جميل ! . . إن كل صورة لها وجهها وظهرها ! . . فلا يمكن أن تشتري الورد بغير شوكه ، ولا أن تذوق فاكهة المانجو بغير أن تقشر غلافها ، ولا تستطيع أن تستمتع بالجنة دون أن تمر في طريق طويل من الزهد والعبادة والعمل الشاق .

وأنا أعتقد أن زواجك « بسهير » سوف يقضي على مستقبلك ! أنت تبدأ من أول السلم ، وهي في قمته ! . . أنت محتاج إلى شريكة تصعد معك السلم خطوة خطوة ، امرأة تشعر بفخر عندما ترى زوجها يكبر ويكبر ، يشرفها أنها زوجته . . أما إذا تزوجت « سهير » فسوف يشير جميع الناس إليك بأصبعهم أنك زوج « سهير » ! . . ستكون هذه هي كل قيمتك في الحياة ! . . زوج نجمة الجماهير ! . . لو أنك كنت مشهوراً مثلها فقد يكون معقولاً أن

تتزوجها ! . . ولكنك الآن إذا تقدمت خطوة سيقول الناس أنها هي التي رفعتــك ، وهي التي استعملت نفـوذهــا لتجعلك تقف فـوق المسرح لتغني ! . . أنا لا أريد ابني منسوباً إلى امرأة ! . . إنني أريد أن تكون المرأة منسوبة إلى ابني ! . .

وارتعش « ابـراهيم » وهو يسمـع أمه تتحـدث عن مستقبله ، وكيف سيتأثر بهذا الزواج ، ولكن الحب فيه كان أقوى من منطقها ، فراح يؤكد لها أن حبه لفنه لا يقل عن حبه « لسهير » وأن زواجه منها سوف يدفعه إلى العمل والكفاح ليصبح نجماً كما هي نجمـة ! . . إنه لا يقبل أن يعيش عالة على امرأة ، وأنـه مؤمن بأنـه سوف يشق طريقه معتمداً على نفسه ! . .

وعادت الأم تشعل « وابور السبرتو » من جديد وتصنع فنجـاناً جديداً من القهوة وتقول :

ـ ثم إنك فقير وهي غنيـة ! . . غنية جـداً ! . . إنها صاحبـة عشرات الألـوف من الجنيهـات ! . . إنـك ستعيش معهـا وكـأنـك مسجون في بنك ! . . تصور لو أنك عشت عاماً واحداً مسجوناً في البنك الأهلي ، أو بنك مصر ! . . إنك قد تجد السعادة وأنت تدخل البنك وتخرج من البنك ، ولكنك لن تجد سعادة إذا دخلت البنك ولم تستطع الخروج ! . . إذا وجدت نفسك محبوساً في خزينة البنك مع الأسهم والسندات والمجوهـرات وأكداس الـذهب . . إن الحب لا يستطيع أن يعيش طويلاً وهو جائـع ، والحب أيضاً لا يستـطيع أن يعيش طـويلاً إذا اختنق تحت أكـداس البنكنوت ! . . إن الـزوجـة الغنيـة ستعاملك كـما تعامـل الجنيه ، تفتحـك وتطويـك وتصرفـك

وتضعك في حقيبتها ، وتشتري بك الشيء الرخيص والشيء الغالي ، وتتبرع بك إذا شاءت ، وتغلق عليك الخزينة إذا لم تحتج إليك ! . .

وقد تكون الزوجة الغنية سعيدة بهذا «الجنيه » ولكن لا أظن أن « الجنيه » نفسه يكون سعيداً بهذه المعاملة ! . .

وأشعل « ابراهيم » سيجارة أخرى بحركة عصبية وقال :

ـ إسمعي يا أمي : إنني سأتزوج « سهير » لأنها امرأة . . لا لأنها نجمة الجماهير ! . . ولا لأنها غنية ! . . ولا لأنها مشهورة ! . . إن الحب لا يعرف هذه الفوارق ! . . إنني صبرت وأنتِ تصورين « سهير » بصورة شيطان ! . . إنها امرأة في هذا الوسط . . إنني عشت بجوارها عامين كاملين وأشعر أنها أنبل وأطهر من عشرات الألوف اللاتي يقفلن عليهن النوافذ والأبواب ! . . إن المرأة التي تصمد وسط الإغراء والأنوار أشرف من المرأة التي تصمد لأنها موضوعة في داخل « زنزانة » ! . . إن الفضيلة ليست في المظاهر إنما هي في الحقائق ! . . إنني أثق « بسهير » كما أثق بك ! . .

وانتفضت « أم ابراهيم » غاضبة وقالت :

ـ لا تتسرع يا « ابراهيم » . . إنني سمعت أن « سهير » عشيقة صاحب المسرح الذي تعمل فيه ! . .

وقام « ابراهيم » من كرسيه كالمجنون وصاح :

ـ هذا كذب ! . . كذب ! . .

قالت « أم ابرهيم » بهدوء :

ـ إن صديقك وزميلك في المسرح عامل الصالة هو الذي أخبرني ! . .

قال « إبراهيم » :

ـ إنه كذاب ! . . كذاب ! . . كذاب ! . . إنني سمعت هذه الإشاعة ولكني بحثت ونقبت وعرفت كل شيء . . إنها لا تحبه . . إنها ليست عشيقته ! . . لا في الماضي . . ولا الآن ! . .

وضمت « أم إبراهيم » ولدها إلى صدرها وقبلته وهي تقول :

ـ إن هذه الحكاية كان تنغص حياتي ! . . كانت تجعلني لا أذوق النوم ! . . كانت كابوساً مخيفاً ، ولكن ما دمت أنت بحثت وحققت ووثقت فعلى بركة الله يا بني ! . .

وراح « ابراهيم » يقبِّل أمه ويعانقها ، ويقبِّل يديها ! . . إنها المرة الأولى التي اختلف فيها معها ! . . المرة الأولى التي لم يتفقا فيها على طعام أو شراب أو إنسان !

* * *

وخرج « ابراهيم » من البيت سعيداً ! . . إنه أقنع أمه « بسهير » . . ولكنه فجأة شعر أنه انتزع من قلبه ثقته كلها وأعطاها لأمه ! . . ولكنه هو بقي بغير ثقة ! . . وبدأ الشك يسيطر على روحه ، ثم على قلبه ، ثم على رأسه، ووجد كلمات أمه تتكرر أمامه ! . . كأنها اسطوانة علقت فراحت تكرر نفس الكلمات مرة ومرتين . . وألوف المرات ! . . إنه كذب على أمه عندما قال إنه بحث وحقق عن علاقة « سهير » بصاحب المسرح ! . . إنه لم يبحث ولم يحقق . . إن الحب أعماه فلم يرَ شيئاً ، وأفقده السمع فجعله لا يسمع الهمسات ولا الصراخ بأن « سهير » عشيقة صاحب المسرح ! . .

وأحس « ابراهيم » بأصابع كثيرة تمتد إليه وتقول له :

ـ يا مغفل ! . .

وراح « ابراهيم » يعود بذاكرته إلى قصته مع « سهير » ! . . وتذكر أن « سهير » قالت له مرة أنها لا تريد أن يعلم صاحب المسرح بأن بينهما علاقة حب ! . . أنها قالت له مرة أخرى وهي معه أن يبتعد عن شارع معين لأن صاحب المسرح يسكن فيه ! . . أنها قالت مرة ضاحكة : لو علم صاحب المسرح أنني أحبك لرفتك من المسرح ! . .

كيف لم يستنتج من هذه العبارات كلها أن بين « سهير » وصاحب المسرح عشقاً وهوى ! . .

إن الحب قضى على ذكائه ، جعله غبياً لا يفهم الكلام الواضح جعله أعمى لا يرى الحقيقة البشعة ! . .

صحيح أنه دافع عن « سهير » أمام أمه ! . . قال إنه سيتزوجها حتى ولو كانت فاجرة ! . . لو كانت غانية ! . . لو كانت امرأة ذات ماضٍ ! . .

ولكنه كان «يقاوح » ! . . كان « يتفلسف » ! . . كان يحاضر في نظرية ليس مؤمناً بها ! . . ولكن هذه المقاوحة والفلسفة والمحاضرة تبخرت كلها عندما انفرد بنفسه ، عندما راح يستعرض حياته مع « سهير » ! . . لماذا لم تخبره بهذه العلاقة ؟ . . ربما لو أنها إعترفت له بماضيها لسامحها وغفر لها ! . . ولكنها خدعته ، وغررت به ، وأخفت ماضيها خلف ماكياج من البراءة والطهر ! . .

وجد نفسه يسير إلى بيتها ، ويدفع الباب بقوة ، وكأنه زوج جاء يضبط عشيقاً ! . .

ودهشت « سهير » وهي ترى « ابـراهيم » وقد بـدا كأنـه يحمل هموم الدنيا على رأسه ، كانت الكلمات ترتعش على شفتيـه ، كانت عيناه لا تستطيعان أن تواجها عيني « سهير » ! . .

وسألته « سهير » :

ـ ماذا بك ؟ . . هل أنت مريض ؟ . .

قال « ابراهيم » :

ـ إنني ضُرِبت بالرصاص ! . .

وفزعت « سهير » وقالت :

ـ من الذي ضربك بالرصاص ؟ ! . .

قال « ابراهيم » :

ـ أمي ! . .

وجلس « إبراهيم » يروي « لسهير » ما قالته أمـه عن علاقتهـا بصاحب المسرح ! . .

ولم تتحرك « سهير » من مقعـدها ، ولم يبـدِ عليها الـدهشة ولا الغضب . . بل راحت تضحك ! . .

وتوقف « إبراهيم » عن الحديث وقال :

ـ ما الذي يضحكك ؟ . . أنتِ تضحكين بينما دمي ينزف ! . .

قالت « سهير » وهي تمسك يده :

ـ إنني أحبك يا « إبراهيم » وأنت غاضب ! . .

ودفع « ابراهيم » يدها بقسوة وقال :

ـ إنني لا أسألك هل أنتِ تحبينني أم لا . . أنا أسألك هل صاحب المسرح يحبك ؟ . .

قالت « سهير » :

ـ نعم . . إنه يحبني ! . .

وتطاير الشرر من عيني « ابراهيم » وقال :

ـ إذن لماذا كذبت عليَّ ؟ . .

قالت « سهير » ضاحكة :

ـ إنني لم أكذب عليك ! . . إنك نسيت أن تسألني هل أنتِ تحبين صاحب المسرح أم لا ؟ . .

ونفذ صبر « ابراهيم » وقال :

ـ طيب . . هل تحبين صاحب المسرح أم لا ؟ . .

قالت « سهير » وهي غارقة في هدوئها :

ـ أنا لا أجيب على هذا السؤال لأنك لم تسأله إلا عندما نبهتك إليه ! . .

وزادت هذه المحاورة من شكوك « ابراهيم » . . وأمسك بيد « سهير » بقوة وقال لها :

ـ لماذا تناورينني وتحاورينني ؟ . . قولي لي نعم . . أم لا ! . .

قالت له ببرود :

ـ ولو قلت لك لا . . لن تصدقني ! . . إنني أفضل أن أرد عليك رداً عملياً ! . .

قال « ابراهيم » :

ـ أنا أعرف أنني أكلمك بوقاحة ! . . أنا آسف ، ولكنني أريد أن أعرف ! . .

وابتسمت « سهير » وقالت له :

ـ لا تظن أنني غاضبة لأنك وقح ! . . إن وقاحتك هذه تسعدني ! . . إنها المرة الأولى التي أراك فيها غيوراً ! . . إن هذا حقك على كل حال بعد أن اتفقنا على الزواج ! . .

قال « ابراهيم » :

ـ إن هذا ليس وقت المزاح ! . . أريد أن أعرف . .

وقامت « سهير » إلى دولاب وفتحته وأخرجت صندوقاً وأعطته « لابراهيم » وهي تقول :

ـ خذ . . هذه هي خطابات صاحب المسرح الغرامية ! . .

وأمسك « ابراهيم » بالصندوق بيدٍ مرتعشة ، وراحت أصابعه تفتح الصندوق وتقلب الأوراق . .

وكان يقرأ الخطاب ثم يطويه ، ويفتح خطاباً ثانياً ، وكان لون وجهه يحمر ويصفر ، وكانت أنفاسه تعلو وهو يقرأ ، ثم تهبط ، ثم تعلو مرة أخرى ! . .

وجلست « سهير » تراقبه كمتهم ينتظر القاضي ليتلو الحكم عليه ! . .

وطوى « ابراهيم » الخطابات ، ثم أغلق الصندوق ، وقال « لسهير » وعيناه مملوءتان بالدموع :

ـ براءة ! . .

قالت « سهير » :

ـ إن المتهم يريد من القاضي أن يقرأ الحيثيات ! . .

قال « ابراهيم » وهو يضمها إلى صدره :

ـ إن هذه الخطابات تثبت أن الحب من طرف واحد ! . . إنه في كل الخطابات يشكو أنك تبادلين حبه بصداقة ، وتردين على غـرامه بأخوة ! . .

وسكت « ابراهيم » ثم قال :

ولكن إذا كنت حكمت عليكِ بالبراءة في الجناية . . فأنا مضطر أن أحكم عليك بالغرامة من أجل مخالفة . .

قالت « سهير » :

وما هي المخالفة ؟ . .

قال « ابراهيم » :

ـ لأنك تحتفظين بهذه الخطابات عندك ! . . لماذا لم تمزقيهـا ؟ ! لماذا لم تحرقيها ؟ ! . .

قالت « سهير » :

ـ كنت تغار من الرجل وأنت الآن تغار من الورق . .

قال « ابراهيم » وقد بدا عليه الضيق :

ـ إذا كنت لا تهتمـين بهـذا الـرجـل . . فلماذا تحتفـظين بهـذه الخطابات ؟ . . ولماذا لم تمزقيها بعد أن أحببنا بعضنا ؟ ! . .

قالت « سهير » :

ـ فكـــرت أن أمـزقهـــا . ولكني فضلت أن أبقيهـا ! . . لأنني توقعت أنك ستسمع كلاماً عني وصاحب المسرح ، ولهـذا رأيت أن أقدم لك هذا الصندوق هدية لتفعل به ما تشاء ! . .

وأمسك « ابراهيم » يد « سهير » يقبِّلها ، وقال لهـا وهو يحمـل الصندوق :

ـ هل تعرفين ماذا سأفعل بهذا الصندوق ؟ . .

قالت « سهير » :

ـ ستحرقه طبعاً ! . .

قال « ابراهيم » :

ـ أبداً . . سأقدمه هدية إلى أمي ! . .

* * *

ويجري « ابراهيم » بالصندوق إلى أمه ! . . ويقدم لها براءة « سهير » ! . . إنه لم يكن أعمى ولا أصم ! . . إنه عرف كيف يختار وكيف يحب ! . .

تملأ السعادة عيني « أم ابراهيم » وتقرأ الخطابات ثم تعانق ولدها وتقول :

ـ مبروك ! . .

وشعر « إبراهيم » أنه انتصر في معركة كبرى ! . . ولكنه لا يلبث أن يشعر أنها ليست معركته الأخيرة ! . .

إنها واحدة من المعارك فقط ! . .

إنه كسب أمه . . . وفقد أمة ! . .

إن الأمة كلها تحاربه في هواه ! . .

ولم يلبث « إبراهيم » أن أحس أن الدنيا كلها ضده ! . . كل حبيب له غريم واحد ، أما هو فإن منافسيه يزيدون على ملايين . . إن كل واحد من هؤلاء يشعر أن « إبراهيم » خصمه وعدوه ، كل واحد من هؤلاء كان يتصور أن « سهير » صاحبته هو . . وحبيبته

هـو . . وعشيقته هـو . . ثم جـاء هـذا الأفّـاق الصغـير واختـطف « سهير » منهم جميعاً ! . .

إن معـه حارة واحـدة . . ولكن كل الشـوارع ضـده . . كـل الميادين . . كل المـدن . . البلد كلها . . بـل البلاد المجـاورة أيضاً قـابلت قصة زواج « سهـير » بدهشة واستغراب ، ثم مـا لبثت أن هاجمت هذا الزواج ! . .

إن نجمـة الجـماهـير ليست ملكـاً لنفسهـا . . إنها ملك المعجبين . . إنهم يشعرون أن « سهـير » خذلتهم . . غـدرت بهم عنـدما نـزلت من سمائهـا لتختار هـذا الفنان الصغـير المجهـول . . والذين يحبون نجمـة الجماهير لم يستطيعوا أن يكـرهوهـا هي ، وإنما اتجهـوا بحقدهـم وكـراهيتهم إلى هذا الشـاب الصغـير الـذي لـوّث الصورة الجميلة ببقعة سوداء ! . .

وكان « ابراهيم » سعيداً في أول الأمر . . إن الناس تحسده على أنه فاز وحده بمملكة المسرح والسينما . . ولكنه لم يلبث أن رأى هـذا الحسد الأبيض يتحول إلى حقدٍ أسود . . شعر أن زملاءه في المسرح يعـبرون عن حقـدهم بـالفخـر ، ثم بـالنكت ، والنـوادر ، والقفشات . . شعر أن نقاد الصحف يصبون عليه عبارات السخرية والهزء والزراية . . إنهم يصورونه كشيطان لوّث بقدميه المعبد المقدس الذي يعيش فيه الملاك . . وهم يستكثرون عليـه هذا الحب ، وهم يصورونه بصورة المحتال الذي نصب على فتاة ساذجة ، وغرّر بها ، وأسكرها . . بأن قدم لها الخمر في زجاجة حمراء كأنها « كازوزة » ، ثم سلبها شرفها ! . .

ويشعر « ابراهيم » أن هذا الهجوم أشبه بالمطارق الهائلة تنـزل

على رأسه وتحطمها ، ولكن كل هذا الهجوم الظالم لم يُشْقه . . كان يعذِّبه أن الناس تقف منه هذا الموقف . . إنه يحب الناس . . يحب الخير لهم . . يحب أن يرى ابتسامة السعادة والرضا على كل شفة . . ولكن الناس يكرهون سعادته . . يشعرون أنه انتزعها منهم ، كأنه طاغية اغتصب تمثال محبوبة كان يعبدها الناس جميعاً ، فأخذها لنفسه ، وحرمهم من عبادتها وتقديسها ! . .

صحيح أن أهل الحارة متحمسون له . . ولكن ما هي قيمتهم ؟ إن الضعفاء معه والأقوياء ضده . . الكبار يخاصمونه ، والمساكين يتمنون له الخير ، ولكن أصوات المساكين كالهمس . . وأصوات الأقوياء كالرعد.

الناس أيضاً يريدون أن يطفئوا الشموع التي تضيء في قلبه ، يريدون أن يحولوا هذا القلب إلى ظلام . . يريدون أن يحرقوا هذا القلب كما أحرقوا مصنع الشموع !

ولكن ماذا يحدث لو نجحوا في أن يدوسوا هذا القلب بالأقدام . . أن يحطموه ويحولوه إلى رماد ! . .

هل يستطيعون أن يعيدوا هذا القلب إلى الحياة من جديد كما فعلوا بمصنع الشموع ؟ ! . .

إن أجدادهم استطاعوا من قبل أن يحولوا الأنقاض إلى بناء مصنع مرة أخرى . . استطاعوا أن يعيدوا الحديد الصامت إلى آلات تتحرك وتدوي . . فهل يعرف هؤلاء الناس خطؤهم . . ولو فرض أن عرفوا خطأهم فكيف يحولون الرماد إلى قلب يسعد من جديد ؟ ! . .

وكان هذا القلق يضنيه . . كان يشعر أن أشباحاً مجهولة تحاول أن تنتزع منه غرامه السعيد ! إنها ليست شبحاً واحداً . . إنها ملايين الأشباح . . أشخاص مجهولون لا يعرفهم ولا يعرفونه . . وإنما بايعوه عدواً لهم ، جعلوا منه صنماً يريدون جميعاً أن يحطموه ويدوسوه بالأقدام ! شعروا أن نجاحه هو هزيمة لكل واحد منهم . . تصوروا أن هذه المرأة التي كانت تسعد الملايين سوف تسعده وحده ، وسوف تمثل له وحده . . وسوف تغني له وحده .

وتشعر « سهير » بضناه فتطمئنه . . إنه ليس وحيداً في المعركة فهي بجانبه فيها . . وستقف بجواره . . بل إنها تريد أن تقف أمامه حتى تتلقى عنه الطوب والحجارة والطين ! . .

إنها تطلب إليه أن يصمد في هذه المعركة . . لو تخلت عنه الدنيا فإنها دنياه ! ولو أظلمت في وجهه فإنها شمسه ، ولو أعلنت الحرب عليه فإنها ساعده وحليفه ! . .

ويطمئن « ابراهيم » . . إن كلمات « سهير » هي المناديل التي يجفف بها دموعه . . هي الشمعة الوحيدة التي بقيت مضيئة بينما أُطفئت حوله كل المصابيح وكل الأنوار ! . .

ولكن ماذا يخيفه من الظلام الذي حوله ، ما دام قلبه لا يزال مضيئاً ! هذا القلب قادرٌ أن يتحدى جيوش الظلام ، والحقد ، والكراهية ، والغيرة ، التي تحاصره في كل مكان يذهب إليه !

ولكن ما الذي قلب الناس ضده ؟ . .

إنهم صفقوا له يوم أعلنت الصحف هواه ! . . ولكنهم لعنوه بعد ذلك . . كأنهم تصوروا في أول الأمر أنها تمثيلية . . ملكة أحبت

صعلوكاً . . ثم عندما تبينوا أن المسرحية حقيقة ثاروا وغضبوا وتألموا ، وراحوا يحاولون أن يمنعوا هذا الزواج غير المتكافىء بين الملكة والصعلوك . .

ولكن كيف يستطيع أن يقنع الناس أنهم ظلموه ؟ . . إنه صغير ولكن حبه كبير . . إنه لا يبحث عن الجاه والثروة ، ولم يخطر بباله أن يتعلق بذيل « سهير » وهي تمشي في شارع المجد . .

ولكن كيف يصل إلى هذه الملايين ؟ . . كيف يجعلها تصدقه هو وتكذب شهوتها في أن تحطم الشاب الذي انتزع منهم نجمة الجماهير ؟ . . كيف يستطيع أن يقابل كل واحد من هؤلاء ليروي له قصة هواه . . ليكشف له عن قلبه . . ؟

ما أضعفه هو وأقوى خصومه ! . . إنهم أغلقوا آذان الناس فلا تسمع ولا تريد أن تسمع . . وأقفلوا عيونهم فلا ترى ، ولا تريد أن ترى . .

إنه يشعر أن الحملة عليه تشتد في كل مكان . . في كل صحيفة . في كل منتدى . . وكأنها صوت خصم أبيه وهو يلهب شعور أهل قرية شنيط ضد صاحب مصنع الشموع . .

لقد استيقظ أهل القرية ورأوا الحقيقة بعد أن حطموا المصنع ولكنهم لم يستطيعوا عندما بنوا المصنع من جديد أن يبنوا روح والده التي تحطمت وهو يرى أحلامه وآماله تتحول إلى حطام . .

إن والده مات بعد هذا الحادث بالسكتة القلبية ، وأفلس مصنع الشموع ، واضطرت أمه أن تبيعه أنقاضاً وحديد خردة . .

فهل تتكرر له نفس المأساة . . هل سيفهمه الناس بعد أن يكون هو قد انتهى وتحول إلى أنقاض ! . . وهل يكفيه أن يتحدث عنه الناس بعد أن يموت ؟

***

وكان صاحب المسرح أكثر ضيقاً من الناس بهذا الغرام . . فقد كان يحب « سهير » . . يحبها لنفسها ولمكانتها ولمصلحته الشخصية . . وكان يتمنى أن يتزوجها . . إن الفنانة الكبيرة يجب أن تتزوج من فنان كبير ، وكان هو فناناً كبيراً ، وكثيراً ما مثل أمام « سهير » الأدوار الأولى في المسرحيات والأفلام . . وقد رأى « سهير » وهي صغيرة ، وأمسك بيدها وهي تحبو في خطواتها الأولى على المسرح ، ثم ما لبث أن رآها تكبر فجأة ، وشعر أنها أصبحت أكبر منه . وأول شيء خطر بباله أن يحطمها ، أن يخلق ممثلة كبرى كما خلقها ، ولكنه لم يلبث أن عرف أنه لا يستطيع أن يخلق « سهير » أخرى ، وأن هذه الفنانة وُلدت لتكون « بريمادونا » وأنها كالشمس لا يستطيع أحد أن يحجب ضوءها . . كان نورها يكسف كل النجوم الأخرى . . كانت تقف على المسرح فلا يكاد المتفرج يرى سواها بين الممثلين والممثلات ، كانت شخصيتها تبتلعهم جميعاً وتحولهم إلى أشباح وهي الحقيقة الوحيدة بينهم . .

ورأى صاحب المسرح أن الوسيلة الوحيدة ليسيطر على « سهير » أن يتزوجها ، وكان يتصور في أول الأمر أنه يمنح « سهير » شرفاً عظيماً ، ولكنه ذهل عندما قابلت « سهير » هذا العرض بضحكة ! . . كأنها تسمع نكتة ! . . وقالت له وهي تربت على كتفه أنها تشعر أنه أخوها ! . . إنها لا تشعر بأنه رجل غريب يمكن أن تحبه

وتهواه . . وصحيح أنها تعشقه فوق خشبة المسرح عندما تندمج في دورها ، وتنسى أنها هي ، وتنسى أنه هو ، ولكن عندما تسدل الستار لا تشعر نحوه بشعور يختلف عن شعور الصديق للصديق أو الأخت للأخ ! . . ولا يستطيع صاحب المسرح أن يفهم هذا التحليل ، فهو رجل مرموق ، ونجم لامع ، وثري كسب أموالاً طائلة في عالم السينما والمسرح ، وكثير من الممثلات وبنات الأسر يعجبن به ويتمنين أن يحظين منه بلفتة أو ابتسامة أو حديث في التليفون ! . .

فكيف تجيء « سهير » وتأبى هذا الشرف العظيم ! . .

ويتوهم صاحب المسرح أن « سهير » تخشى هذا الزواج حتى لا يحبسها في البيت ، وأنها عشقت الأضواء ، وتأبى أن تترك هذا المجد لتنزوي في المطبخ أو في غرفة النوم . . ويقول لها أنه يعدها أن يتركها تعمل في المسرح ، وأنه سيضع فنه وماله وخبرته تحت قدميها ليزداد مجدها ، ويستمر تألقها ويتضاعف نجاحها ! . .

ولا يبدو على « سهير » أنها تأثرت بإغراء المال والشهرة . . وتقول له : إنها تزوجت المسرح ولا تريد أن يكون لها زوجان في وقتٍ واحد! . . ويضحك صاحب المسرح ويقول لها :

ـ لماذا لا تعشقين المسرح وتتزوجينني أنا ؟ ! . .

وتمضي « سهير » في طلاء وجهها استعداداً للقيام بدورها ، وتقول دون أن تنظر إليه :

ـ إن زوجي يجب أن يكون عشيقي ! . .

ويضرب صاحب المسرح كفاً على كف ، ويقول « لسهير » : إن الروايات التي مثلتها أفسدت روحها ، فهي تريد أن تكون حياتها

مزيجاً من أدوارها ، هي تريد أن تكون ملكة ككليوباترا ، وغانية كتاييس ، وفاتنة كغادة الكاميليا ، وغامضة كالشبح ، وعاشقة كجولييت ! . .

ولكن « سهير » تقول إنها تريد أن تكون امرأة ! . . تعيش كما تعيش ملايين النساء ! . . ولكنها لا تريد أن تتزوج لأنها وهبت نفسها للفن ، وهي ترى المسرح بيتها ، وستائره ستائر بيتها ، وممثليه أسرتها ، ومتفرجيه أصدقاءها وجيرانها ! . .

وعندما يفشل صاحب المسرح في تمثيل دور الزوج يحاول أن يمثل دور العاشق . . . ولكن « سهير » تجاهلت القلب الذي صاحبه تحت قدميها ، وراحت تعامله كأنه يمزح . . لم تأخذ هذا الحب مأخذ الجد ، وإنما راحت تعامل صاحب المسرح كأنه يجاملها ويرفع روحها المعنوية ! . . كان يقول لها :

ـ أحبك . .

فتقول له :

ـ « ربنا يخليك . . »

وكان يقول لها : « أهواكِ . . »

فتقول له : « أنت لطيف جداً . . »

وكانت ردودها مؤدبة جداً ، ولكنه كان يشعر أنها كقطع الثلج تلقيها « سهير » على حبه المشتعل ! . .

واستمر يحبها ، وكلما رأى صداً ازداد بها شغفاً وحباً ، ولو أنه نالها لزهد فيها ، ولعاملها شأن عشرات من الممثلات اللاتي يعملن في مسرحه ، ولكنه يشعر أنه قريب إليها وبعيد منها . . تعطيه الحنان

ولا تمنحه الحب . . تقبله على خده فيبدو في القبلة برود المواساة ولا يبدو فيها حرارة العشق . .

وفي وقتٍ من الأوقات تصور أن « سهير » هذه لا بد وأن تكون باردة . . لا تحركها العواطف ولا يثيرها العشق ، لا يخفق قلبها إلا لتصفيق الجماهير ، ولا تثيرها إلا رؤية الأنوار الساطعة ، ولا يهزها إلا رواية جديدة أو دور مثير !

ويقرر أن يبتعد عنها ، ليغرق في هوى جديد ، ثم يجد نفسه مرة أخرى عائداً إليها ، كأنه مذنب عاد تائباً نادماً جاء يعترف بخطاياه ! . . ولكنها تلومه على توبته ، وتبارك خطيئته ، وتقول له أنه أخطأ بقطع علاقته مع الممثلة الصغيرة ، فإنها فتاة فاتنة ، في شفتيها حلاوة ، وفي عينيها براءة ، وفي صوتها موسيقى ! . .

ويضايقه هذا الدفاع ! . . لقد كان يتصور أنه أثار غيرتها ، وأنه حرك قلبها الجامد ، ولكنها لا تزال تصر على أن تعامله كأنه شقيقها ، تتمنى له دائماً أن يمضي وقتاً طيباً ، وتبتهج لأن له مغامرات ، وأنه في حياته الخاصة مثله على المسرح « الدون جوان » الذي لا يشق له غبار ! . .

وعاش حب « سهير » في قلب صاحب المسرح سنوات . وكان في بعض الأحيان يسائل نفسه : هل يحبها هي ؟ . . أم هو يحب الإيراد الضخم الذي يدره عليه تمثيلها ؟ . . أم الجماهير التي تتدافع على باب مسرحه كل ليلة ؟ . . أم هو يحبها لكل هذا ، ولأنه لا يريد أن ينتزعها منه مسرح آخر ؟ . .

وها هو يرى قلب « سهير » يتحرك ، فلا يتجه إلا إلى أقل ممثل في المسرح . . هذا الشاب الصغير الذي كان لا يقرؤه السلام . .

هذا المبتدىء الذي فشل في الدور الصغير الذي أسنده إليه . . ماذا في هذا الشاب ؟ . . ليس فيه شيء ! . . إنه يعرف ذوق « سهير » في الرجال ، وليس في « ابراهيم » أي شيء يمكن أن تفتن به ملكة مثل « سهير » ! . .

ويتصور صاحب المسرح أنها مغامرة عابرة ، ولكنه يكاد يجن عندما يجد أن هذه المغامرة تتحول إلى حب ، وهذا الحب يتحول إلى مشروع زواج . .

ويزيد في حنقه أنه لا يفقد بهذا الحب المرأة التي أحبها فقط ، بل إنه يفقد في نفس الوقت الفرخة التي تبيض له ذهباً ! . .

* * *

صحيح أن « سهير » باقية على مسرحه ، ولكنه يشعر أن الجمهور ساخط على هذا الحب . . وها هي « سهير » تتحدى الجمهور الذي يحبها ، وتدوس بقدمها الهالة التي تحيط برأسها وهو يشعر كأن ممثلته الأولى أخطأت في تمثيل دورها العظيم ، فقالت كلاماً على المسرح لم يرد في دورها المفروض ، فسقطت من حالق ، وراحت الجماهير التي كانت تصفق لها تصفّر لها وتقاطعها ! . .

وهو لهذا السبب يريد أن يسدل الستار بسرعة على هذه الرواية الفاشلة ، فإن خبرته بجمهور المسرح علمته أنه عندما تصدم ممثلة الجمهور تفقد شعبيتها ، وتفقد إقبال الناس عليها ، وبذلك يقلّ دخل شباك التذاكر ، وتخلو المقاعد ، ويعجز عن دفع إيجار المسرح ومرتبات الممثلين والممثلات . .

فالكارثة التي سببها له « ابراهيم » ليست في قلبه فقط ، إنها في

قلبه وجيبه معاً . . وقد يستطيع صاحب المسرح أن يعزي نفسه لو ان الجماهير تحمست لهذا الزواج فاندفعت إلى المسرح ، ويجيء المال ويعوض الحب . . . أو يخسر باليمين ويكسب بالشمال ولكنه لا يستطيع أن يتحمل هذه الكارثة المزدوجة ! . .

وهو يشعر أنه اشترك في بناء هذه النجمة . . كان هو الصرح الذي ارتفع فوقه تمثالها ، وها هو يرى شاباً أفّاقاً يجيء من بين الكواليس ويهوي بفأس على هذا التمثال العظيم ! . . ثم يرى في الوقت نفسه التمثال سعيداً بهذا الأفاق . . لا يرى الخطر الذي يهدده ، ولا يهتم بأثر هذا الزواج في الرأي العام . . كان كل ما بناه ينهار أمام عينيه ! . .

إن صاحب المسرح رجل اقتصادي يقدر كل شيء . يحسب لكل عملية ألف حساب . يحتاط لكل طارىء . ولكن هذه المفاجأة لم تكن في حسابه ، لم يكن يتصور أن يجيء صعلوك ويخطف منه نجمة الجماهير ! . .

كان يتصور أن مسرحاً آخر سيحاول أن ينتزع منه « سهير » ، ولهذا كان يحرص أن يقيدها بعقود طويلة الأجل ، وكان يسارع إلى تجديد العقد قبل انتهائه بعام ، وكان يغمر « سهير » بالأجر الكبير الذي لا مثيل له في أي مسرح آخر ، وكان يرى أن هذه الضمانات كفيلة بأن تبقي له « سهير » ! . .

ولم يخطر في باله أن ينص في العقد المبرم بينه وبينها على أن ليس من حقها أن تتزوج بغير موافقة صاحب المسرح . . لقد قرأ عن عقود مماثلة بين نجوم هوليوود وشركات السينما ، ولكن لم يفكر أن يتضمن عقد « سهير » مثل هذا الشرط . . فقد كانت نجمة الجماهير أحرص

منه على سمعتها ، وأكثر اعتزازاً بكرامتها ، ولم يحتج في يوم من الأيام أن يلفت نظرها إلى كيف تعامل الجماهير . . لقد كان بينها وبين الجماهير ترابط عجيب . . كانت تعزف على أوتار قلوبهم فيغنون معها ، وكانت تتجاوب معهم ، يبتسمون إذا ابتسمت ، ويبكون إذا بكت ، وينفصلون إذا انفصلت . . كأنها قائد فرقة أوركسترا يحرك بعصاه عشرات الموسيقيين فيتحركون مع العصا في نغمة واحدة . . ولكنه يرى الآن قائد الأوركسترا قد انفصل عن العازفين . . هو يرفع يده وهم يخفضون نغمتهم . . هو يحرك عصاه وهم يصمتون ! . .

وهو لا يعرف ماذا يفعل ليعيد الانسجام لهذه السيمفونية التي تحولت فجأة إلى ضجيج . . ويقرر صاحب المسرح أنه لا بد أن يواجه « سهير » بالحقيقة ويبصرها بالهاوية التي تريد أن تلقي نفسها فيها . .

* * *

وذهب صاحب المسرح إلى بيت « سهير » . كانت جالسة في غرفة الصالون ترتب إناء للزهور ، وتضع فيه الورود بأناقة وفن ، وتقدم صاحب المسرح ووضع يده على جبهة « سهير » وهو يقول :

ـ سلامتك ! . . هل أنتِ متأكدة أنكِ لست مريضة ؟

ومالت « سهير » برأسها إلى مسند المقعد وقالت :

ـ بالعكس . . أنا في أحسن صحة .

وهز صاحب المسرح رأسه وقال :

ـ لا بد أنكِ جننتِ ! . .

وضحكت « سهير » وقالت :

ـ أنا متمتعة بكامل قواي العقلية ! . .

وأخـرج صاحب المسرح علبـة سجائـره وأشعل سيجـارة وهـو يقول :

ـ غير معقول ! . . « سهير » العاقلة الكاملة . . « سهير » التي يضرب بهـا المثل في الـوسط الفني كله في الاستقـامـة تـرتكب هـذه الحماقة . . لـو كنتِ بنت عمرهـا ١٦ سنة لعـذرتك ! . . لـو كنتِ إحـدى غانيـات المسرح لفهمت ولكن أنتِ . . أنتِ « سهـير » . . الممثلة الكبرى . . نجمـة الجماهير ترتكب هذه الجريمة ؟ ! . .

وقاطعته « سهير » :

ـ وهل الزواج جريمة ؟ ! . . إنه أشرف علاقة في الوجود ! . .

ونفخ صاحب المسرح دخان سيجارته وقال بهدوء :

ـ ولكن الزواج من صعلوك ألعن من العلاقة غير الشرعية ! . .

واندفعت « سهير » كأنها نمرة مفترسة تقول :

ـ هـذه هي الاستقامـة في نـظرك ! . . أنت تفضـل أن أكـون عشيقة لك على أن أكون زوجة صعلوك ! . .

ووقف صاحب المسرح بحركة مسرحية ، وقال مشيراً بـإصبعه إلى السماء :

ـ كرامة الفن ! . .

وأشارت « سهير » إلى الأرض بإصبعها وقالت :

ـ . . كرامة الوحل !

وتقدم صاحب المسرح نحو « سهير » يربت على كتفها كأنه أب ينصح ابنته العاقلة :

ـ تذكري مركزك ! . .

وقالت « سهير » ساخرة :

ـ مركزي ! . . ما أحقره من مركز هذا الذي يفضل أن أكون عشيقة شخصية مشهورة على أن أكون زوجة لرجل مغمور ! . .

وقدم صاحب المسرح سيجارة «لسهير» وهو يقول :

ـ واجبك نحو الجمهور ! . .

وأشعلت « سهير » سيجارتها ونفخت دخانها في وجه صاحب المسرح وهي تقول :

ـ أي جمهور تعني ؟ ! . . معارفك وأصدقاءك الذين تجتمع بهم في الكلوب ، أو في سباق الخيل ، أو في شبرد ؟ . . هؤلاء ليسوا ناساً ! . . إنهم « نسانيس . . قرود بغير أقفاص ! . . قاعات لا قيمة لها » ! . .

وفتح صاحب المسرح فمه في دهشة وهو يقول :

ـ إذن من هم الناس في نظركِ ؟ . .

قالت « سهير » :

ـ هم أعلى التياترو ! . . هم الذين لا يعرفون الألواج والبناوير ! . . هم الملايين التي تفهم الشرف أكثر مما تفهمه ! . . تفهمه كحقيقته لا كمظهره ! . . تفهمه ببساطتها وطيبتها

وسذاجتها ! .. ليست محتاجة أن ترتدي الردنجوت والسموكن والفراك لتحكم أين الشرف وأين العار ! . .

وأحس صاحب المسرح أن كل أسلحته تكسرت على صخرة تصميم « سهير » وعنادها ، فأراد أن يستعمل سلاحاً جديداً وقال :

ـ إنكِ تقضين على مستقبلك ! . .

وهزأت « سهير » بهذا الرأي وهي تقول :

ـ يكفي أنني ضحيت من أجل فني الماضي والحاضر ! . . فلتتركوا لي المستقبل أفعل به ما أشاء ! . .

وانفعل صاحب المسرح وصاح في « سهير » مستنكراً :

ـ المستقبل ؟ . . إنكِ تدوسين عليه بالأقدام ! . . إنكِ تمرغينه في الوحل ؟ . . إنكِ ترمينه في الطين . .

ولمعت عينا « سهير » من الغضب وقالت :

ـ أنتم تمشون فوق رؤوسكم وأرجلكم معلقة في الهواء ! . . ما تحسبوه الأرض هو السماء ! . . وما تسمونه القمة هو الحضيض ! . .

وتقدم صاحب المسرح إليها وكأنه يتوسل :

ـ إن كل من يذهب إلى المسرح يشعر أنكِ زوجته ! . .أنكِ ملاكه ! . . أنكِ محبوبته ! . . إنكِ اليوم تخونين كل هؤلاء ! . . تخونينهم مع صعلوك ! . . تافه . . حقير ! . .

وتطاير الشرر من عيني « سهير » وقالت :

ـ ما أغرب منطقك ! . . إنك تشعر بعزاء لأن التي تحبها تخونك مع ملك ، وتحقد عليها لأنها تركتك وتزوجت من هلفوت!

واقترب صاحب المسرح من « سهير » وهو يقول لها في هدوء وهو يمسك يدها :

ـ إنكِ راهبة تهربين من معبد الفن ! . .

وأبعدت « سهير » يدها وهي تقول :

ـ أنا أهرب من التمثيل إلى الحقيقة ! . . من المكياج إلى الطبيعة . من الوهم إلى الواقع ! . . إنني كنت أردد كلمات الحب كالببغاء والآن أحس بها وأعيشها ! . . كنت أغني الهوى واليوم أحياه ! . .

وراح صاحب المسرح يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً وقال لها :

ـ كنتِ ترفعين رأسكِ في السماء والآن تدفنينها في التراب ! . .

وضحكت « سهير » وهي تقول :

ـ يا لك من عبيط ! . . إن الجواهر الكريمة لا توجد فوق أسطح العمارات ! .. وإنما هي دائماً مدفونة في باطن الأرض ! لقد نزلت إلى أعماق الأرض لأجد فيها الذهب والماس .

وضرب صاحب المسرح كفاً على كف وهو يقول :

ـ إن الحب أعمى حقيقة . . إنكِ تلمسين « ابراهيم » وتتصورين أنه ذهب وماس . . وهو في الحقيقة صفيح وزجاج ! إسمعي ما يقوله الرأي العام ! . .

وانتفضت « سهير » وقالت وكأنها تطلق رصاص مسدس :

ـ إن قلبي هو الرأي العام

ووضع صاحب المسرح يده في حقيبته وأخرج منها عدة صحف وأخذ يفرد أمامها الصحف وهو يقول :

ـ إقرئي ما يكتبون الآن عن نجمة الجماهير ! . .

وأمسكت « سهير » الصحف ، وراحت تقرأ عناوينها بصوتٍ مسموع :

« صامت . . صامت . . وفطرت على بصلة ! . . »

وضحكت ساخرة وهي تقول :

ـ بصلة ! . . لقد عدت فلاحة . . كما بدأت بأكل البصل انتهيت بأكل البصل أيضاً ! . . قل لهم إنني أفضل البصل على الكافيار !

ثم أمسكت « سهير » بجريدة أخرى فرأت صورتها في الصفحة الأولى وصورة « ابراهيم » وقد كتبت الجريدة : « كان الحب أعمى . . وأصبح الحب أطرش ! . . »

ورمت « سهير » الجريدة باحتقار على الأرض ! . .

ثم أمسكت بالجريدة الثالثة وراحت تقرأ تحت صورة « ابراهيم » : « النغمة النشاز في اللحن الجميل ! . . »

وألقت « سهير » الصحف على الأرض وداستها بقدميها في حركة عصبية وهي تقول :

ـ ماذا يريدون مني ؟ ! . . إن النغمة التي تسعدهم تبكيني . . واللحن الذي يرضيهم يشقيني ! . .

أنا لا أفكر في الناس وإنما أفكر في نفسي ، إنني مؤمنة بما فعلت ، وأنا واثقة بأن أغلبية الناس ستفهمني . . ستعرف لماذا أحببت رجلاً بسيطاً ! . . إن قلبي قلب بشر ! . . إنه ليس وظيفة وزير لا يجوز أن يرقى إليها إلا من كان وكيل وزارة أو في درجة مدير عام ! . . إن الحب يختلف عن وظائف الحكومة . . ليس فيه درجات ولا مؤهلات ولا كادر ! . . إنني لم أحب بعقلي وإنما أحببت بقلبي ! . . لم أهتز أمام الرجال الذين ركعوا أمامي وإنما اهتززت أمام الرجل الوحيد الذي ركعت أنا أمامه ! . . وإذا كان الرجل صعلوكاً في نظركم فإنه ملك في قلبي ! . .

وانحنى صاحب المسرح على الأرض وراح يجمع من تحت قدمي « سهير » الصحف الملقاة وهو يقول :

ـ لم أكن أتصور يا « سهير » أنكِ أنانية إلى هذا الحد ! . .

قالت « سهير » :

ـ أنا أنانية ؟ ! . . لقد أحرقت شبابي لأعطي النور للناس ! . . أفنيت صحتي لأملأ حياة الآخرين بالأمل ! . . بكيت فوق المسرح لأسعدهم . . كانت الآهات تخرج من قلبي فيطربون ! . . لم يعد لي في الحياة سوى بضع سنوات فمن حقي أن أحتفظ لنفسي بالقليل بعد ما أعطيتهم الكثير ! . .

وطوى صاحب المسرح الصحف ووضعها في حقيبته وهو يقول :

ـ إنهم أعطوك المجد ! . .

قالت « سهير » وهي تضع سيجارتها في منفضة السجائر :

ـ فليأخذوه ! . .

وقال صاحب المسرح :

ـ وسلطوا عليكِ الأضواء ! . .

وهزت « سهير » كتفها بازدراء وقالت :

ـ فليطفئوها ! . . إنني أريد أن أعيش مع من أحب في ظل شمعة . . على أن أقف وحدي وسط الأنوار الساطعة ! . .

وتطلع صاحب المسرح إلى ساعته ، ثم قال ساخراً :

ـ أظن يحسن أن أنصرف الآن قبل أن يحضر صاحب الجلالة

ومشى إلى الباب وأغلقه بعنف ! . .

وراحت « سهير » تمشي في الغرفة وتقول في غضبٍ وألم :

ـ صامت . . صامت . . وفطرت على بصلة ! . . إنني أفضل أن أنهي صيامي ببصلة على أن أعيش حياتي كلها صائمة عن الحب . . إن الذين يلومونني على الإفطار لم يسمعوا صوت قلبي ! . . إنه انطلق وكأنه مدفع المغرب يدعو إلى الطعام ! . .

* * *

لم تهتز « سهير » لتهـديدات صـاحب المسرح . . إنها لبت نداء قلبها ، وهي ليست مستعدة أن تسمع صوتاً آخر غير هذا النـداء ؟ إنها على استعداد أن تضحي بكل شيء في سبيل هـواها ! . . مـاذا يريد منها الناس أكـثر مما أعـطتهم ! . . إن المال والشهـرة والمجد لم تستطع أن تسعدهـا ، وإنما أسعـدها رجـل واحد . . . دخـل قلبها فكان هو مـالها وشهـرتها ومجـدها ! . . وهي تحب فنهـا ، وتحب أن تسمع تصفيق الجمهور وهتافه ، وكأنها تسمع قطعة موسيقى خالدة لا تمـل عن سماعهـا . . . ولكنهـا لا تستـطيـع أن تعيش عـلى هـذه الموسيقى طول حياتها ! . . إنها بدأت تملها ، وتزهدها . . إنها ترى كأن هذه الموسيقى تدق نشيد الانتصار ، وتكـرره وتعيده ، ولكنهـا كـانت تشعر دائمـاً أنها مهزومـة في داخلها ! . . أنها مغلوبـة عـلى أمرها . . أنها تعيش للناس ولا تعيش لنفسها . . تبكي لتسعدهم ، وتئن لتطربهم ، وتتعذب لتملأ قلوبهم هناء ! . . ومن أجـل هؤلاء ضحت بحياتها الخاصة . كان عملها هـو حياتهـا . . لم تتمتع بيـوم إجازة واحد . لم تفعل ما تفعله أية امرأة في سنها . كانت لا تخرج إلا إلى سهرة تتعلق بعملها ! . . وكانت تحرص على أن تحافظ على كرامة مـركـزهـا ، كـانت تشعـر أنها تمثـل عـلى المسرح ، وتمثـل خـارج المسرح . . . كانت لا ترقص لأن العابدين لا يريدون أن يروا الآلهة ترقص ، وكانت تحرص على ألا تظهر في المجتمعات العامـة حتى لا

تشوّه الصور الجميلة التي رسمها لها الرأي العام . . لم يكن لها طفولة ولم يكن لها شباب . . . لم تتمتع بمرح الصغار ولا لهو الكبار . . لم يكن لها حرية الظلام لأن الأضواء سُلطت عليها منذ وضعت قدمها على المسرح للمرة الأولى . . وهي تشعر أن من حقها الآن أن تعيش ! . . أن تحب وتعشق وتتزوج كما يفعل الملايين . . . وهي لا تريد أن تحبس روحها في قفصٍ من ذهب . . إنها تريد أن تنطلق ، ولو كان ثمن هذا أن تعود فقيرة كما كانت ومجهولة كما بدأت ! . .

إنها أشبه بإنسان كان مسجوناً في « زنزانة » تحت الأرض ، ثم رأى النور للمرة الأولى ، واستنشق الهواء الطلق للمرة الأولى ، فهي تريد أن تمتع عينيها بكل ما في الدنيا من نور ، وأن تستنشق وحدها كل ما في العالم من هواء ! . . وهي لا تجد في الدنيا كلها شيئاً يساوي هذا الحق الجديد الذي حصلت عليه . . . بل إنها تندم لأنها لم تعرف الحب قبل الآن ! . . أنها عاشت حياتها غريبة عن الحياة ، كأنها تعيش على هامشها ، تغنّي عن العشق ولا تعشق ! . . تمثّل عن الحب ولا تحب ! . . تؤذّن للهوى ولا تصلي له ! . .

إن قلبها سوف يصمد للعاصفة ! . . إن حبها سوف يقاوم كل محاولات صاحب المسرح والمعجبين والصحفيين . . الذين ملأوا الدنيا صراخاً بأن الملكة خرجت عن وقارها ، وهبطت من قاعدة التمثال لتعانق عابر طريق ! . .

إنها لن تخضع للذين يريدون أن يعتبروها قطعة من الحجر ، لا تتصرف إلا كما تتصرف الأحجار . . إنها إنسانة . . إنسانة تحب . . وأغمضت « سهير » عينيها لكي لا ترى وجوه الغاضبين والساخطين ، وغطت أذنيها لكي لا تسمع عبارات الهزء والسخرية

بمشروع زواجها من « ابراهيم » . . إنها تحدت الدنيا كلها . . إنها داست بقدمها على الاعتراضات ، إنها لبت نداء قلبها ، وصوت قلبها أعلى من الصراخ والهمس والنقد الذي تحول إلى عاصفة ضد هذا الزواج . . دقات قلبها أعلى صوتاً من زئير العواصف . . ومضت « سهير » تعيش في حبها الكبير وحلمها الأكبر وتعد بنفسها ثوب الزفاف .

* * *

وإذا بالباب يفتح ببطء . . وأجفلت « سهير » وهي جالسة في غرفتها وأمامها ثوب زفافها ، ونظرت إلى الباب وقالت ، وهي تنظر إلى الزائر الغريب الذي يعكر وحدتها . . قالت في رعب :

ـ مين ؟ . . مين ! . .

ورأت « سهير » أمامها سيدة شابة ذات وجه مصفر تدخل الغرفة وكأنها شبح أسود ! . . كانت ترتدي جلابية سوداء تغطي قدميها ويديها ، وحول رأسها طرحة سوداء . . وأسرعت « سهير » ترمي ثوب الزفاف من يدها ثم تقف وتقول :

ـ مين . . مين أنتِ ؟

وأجابت الفلاحة ذات الثوب الأسود بهدوء :

ـ أنا « فهيمة » يا ستي ! . .

وتطلعت « سهير » حولها وكأنها تستنجد ، ثم جمعت شجاعتها وقالت :

ـ « فهيمة » مين ؟ . .

وتقدمت الفلاحة في خطوات بطيئة متعبة ، ثم قالت بصوت ضعيف :

ـ « فهيمة » . . حضرتك ما تعرفنيش . . إنما أنا أعرفك

كويس ! أنا « فهيمة » زوجة « إبراهيم » . .

وارتعشت « سهير » وبرقت عيناها ونظرت إلى المرأة الغـريبة في دهشة وذهول وكأنها لا تصدق ما سمعت :

ـ ابراهيم ! . . ابراهيم مين ؟ . .

وجلست المرأة الفلاحة على الأرض أمامها وقالت :

ـ « ابراهيم فريد » خطيب حضرتك ! . .

وانتفضت « سهير » وخرجت الكلمات من شفتيها وهي تتقاتل في معركة :

ـ مـوش ممكن ! . . مـوش ممكن . . أنـت كـذابـة . أنتِ نصابة ! . . « ابراهيم » مش متجوِّز . .

ووقفت الفلاحة وتقدمت نحو « سهير » . . وتراجعت « سهير » إلى الوراء وهي تصيح :

ـ موش ممكن ! . . موش ممكن ! . . مستحيل ! . .

وقالت المرأة في صوت اختلط فيه الصدق مع الطيبة مع الحنان :

ـ أنتِ صادقة يا سيدتي ! . . ابراهيم لم يكذب عليك ! . . إنه غير متزوج فعلاً . . غير متزوج الآن ! . . لقد كان زوجي حتى شهر مارس الماضي وطلقني . . طلقني بعد ما عرف أنك تحبينه ! . . إنه لم يخدعك يا سيدتي ، إنه رجل نبيل شريف لا يخدع أحداً !

وغطت « سهير » وجهها بيدها وكأنها لا تـريد أن تـرى الحقيقة البشعة ، وعادت تحاول أن تدافع عن سعادتها :

ـ أنا لا أصدق هذا . . إنني أعرف كل شيء عن « إبراهيم » . .

إنني زرت « ابراهيم » في بيته وأعرف أنه يعيش مع أمه . . وأنا لم أجد في البيت آثار امرأة ! .

وابتسمت « فهيمة » وقالت وهي تتنهد :

ـ « ابراهيم » كان زوجي عندما كان طالباً في المنصورة . . وقد مضى عليَّ سبع سنوات وهو زوجي . .

وشهقت « سهير » وكأن سبعة خناجر أُغمدت فجأة في قلبها :

ـ سبع سنوات ! مستحيل ! مستحيل أن « ابراهيم » كان يخدعني .

ووضعت « فهيمة » يدها في صدرها وأخرجت ورقة وقدمتها إلى « سهير » وهي تقول :

ـ بِعْد الشر عن « ابراهيم » . . « ابراهيم » لا يخدع أحداً يا سيدتي ولم يخدعك . . هذه هي ورقة طلاقي . .

وأمسكت « سهير » الورقة بيد مرتعشة وراحت تقرأ بصوت مضطرب مرتعش وكأنها تقرأ حيثيات حكم بإعدامها :

إشهاد بطلاق على يد مأذون

إنه في يوم السبت ذي الحجة الموافق مارس الساعة ٥ أفرنكي مساء ، لديَّ أنا محمود إبراهيم مأذون البحر الجديد التابع لمحكمة المنصورة للأحوال الشخصية . حضر المكلف ابراهيم فريد أفندي الساكن بحارة السد البراني ومعه وثيقة زواجه بزوجته السيدة فهيمة عبد ربه الثيب ، كريمة المرحوم محمد عبد ربه ، الحاضرة في المجلس ، الساكنة بشارع محمدين ، وزواجها في ٧ مارس سنة ١٩٥٠ لدى الشيخ محمد عوضين المأذون بنوسا البحر ، وبعد تعريفه

شرعاً واعترافه بقيام الزوجية بينهما للآن ، وبالدخول لها بشهادة فلان وفلان ، طلق الزوج المذكور زوجته المذكورة طلاقاً واحداً رجعياً بقوله : زوجتي السيدة فهيمة طالقة مني ، واعترف بأن هذا هو الطلاق الأول فله مراجعتها ما دامت في عدته وأفهمها ذلك والرسم بعهدتي

« المأذون »

* * *

وانتهت « سهير » من قراءة الورقة وطوتها ، وكأنها تطوي فيها سعادتها وأحلامها وهناءها ، وقدمتها إلى « فهيمة » وهي تقول لها بصوت كرنين القدح المكسور :

ـ أنا آسفة ! . .

وتنهدت « فهيمة » وقالت :

ـ ولكن أنا سعيدة ! . .

وتراجعت « سهير » برأسها إلى الوراء في عجبٍ وقالت :

ـ سعيدة ؟ . . سعيدة لأنني سلبت منك زوجك ! . .

قالت « فهيمة » بصوت فيه من الدموع أكثر من الكلمات :

ـ إن « ابراهيم » يستحق أحسن زوجة في الدنيا ! . . وأنتِ أحسن زوجة في الدنيا

واصفر وجه « سهير » وصاحت فزعة :

ـ أنا ؟ . .

قالت « فهيمة » في هدوء :

ـ نعم . .

وامتلأت عينا « سهير » بالدموع وقالت لها في حنان :

ـ وانتِ ؟ . .

وهزت « فهيمة » رأسها وكأنها تدفن شيئاً جميلاً تحبه في قبرٍ وتواريه التراب :

ـ أنا . . أنا . . لا شيء ! . . أنا مريضة بالسل ولا أمل في شفائي ! . . أنا لن أعيش أكثر من أسابيع أخرى ! . . ولا أريد أن أكون العقبة في طريق « إبراهيم » ! . .

وتعلقت « سهير » بهذه الكلمة وكأنها غريق يتعلق بقطعة من الخشب وسط العاصفة :

ـ أنتِ لا تحبينه ! . .

وبرقت عينا « فهيمة » ببريق عجيب وكأنها تدفع عن نفسها تهمة شنيعة وقالت :

ـ أنا أعبده يا سيدتي ! . . ولأنني أعبده أتمنى أن يكون سعيداً ! . . وأعرف أنني لا أستطيع أن أعطيه السعادة ! . . أنتِ وحدكِ التي تستحقينه ! . .

واستيقظت سهير من الغفلة التي أرادت أن تضع أوهامها فيها وقالت :

ـ هذه أول مرة أرى فيها امرأة تتنازل عن زوجها بهذه السهولة ! . .

وشعرت « فهيمة » أن « سهير » تبارزها بسيف ، فاندفعت وكأنها تشهر سيفها هي الأخرى لتدافع عن موقفها :

ـ أنا لا أتنازل عنه ! . . إن « ابراهيم » جاءني في المنصورة . .

اعترف بأنه يحبك وأنه لا يستطيع أن يعيش بدونك . . أنا التي قلت له : « تزوجها يا « إبراهيم » ! . . إنني أنا الماضي وهي المستقبل ! . . إن الأيام الحلوة التي أعطيتها لي أكثر مما أستحق ! . . إنها تكفيني حتى أموت ! . . إنني لن أنسى الجملة الحلوة التي كان يقولها لي : « أنتِ الدنيا . . وأنتِ الآخرة لأنكِ النعيم » ! . . إنني سأعيش أذكر هذه الجملة . . »

قالت « سهير » :

ـ كان يقول لكِ : « أنتِ الدنيا . . أنتِ الآخرة . . لأنكِ النعيم ؟ ! . . »

قالت « فهيمة » :

ـ نعم ! . . ولكني لم أعد أصلح أن أكون نعيماً ! . . لقد حولني مرضي القاتل إلى جحيم ! . . وتحمل « ابراهيم » هذا الجحيم سنوات وسنوات ! . . كان يقتطع من قوته ويرسل لي نصف مرتبه ! . . كان يبيع ملابسه ليشتري لي الدواء . . وفي كل هذه السنوات لم ينسني ! . . مرة واحدة لم يرسل لي المرتب الشهري لأنه فقد وظيفته ! . . وفي هذه المرة أرسلت خطاباً إلى سيدة سمعت عن كرمها وقلت لها إنني مريضة بالسل ولا أجد ثمن الدواء ! . . فأرسلت في الحال عشرة جنيهات ! . . واستطاعت هذه الجنيهات أن تخفف عذابي وآلامي وأن تمنحني عمراً . . ويومها قلت أنني سأعطي هذه السيدة حياتي لو طلبتها ! . .

وتأثرت « سهير » وقالت في ألم :

ـ من هي هذه السيدة النبيلة ؟ . .

وقالت « فهيمة » وهي تشير بيدها إلى « سهير » :

ـ أنتِ يا سيدتي ! . .

وفتحت « سهير » فمها في دهشة وقالت :

ـ أنا » ؟ . .

وجففت « فهيمة » دموعها وهي تقول :

ـ نعم أنتِ . . أنتِ التي أرسلتِ لي العشرة جنيهات . .

ومسحت « سهير » جبهتها بيدها ، وكأنها تحاول أن تمسح التراب عن ذكرى قديمة وقالت :

ـ إنني لا أذكر ذلك ! . .

وقالت « فهيمة » في كلمات تقطعها التنهدات :

ـ كان ذلك من بضع سنوات ! . . وأنتِ لكثرة ما تجودين به تنسين ما فعلتِ ! . . ولكني لا أنسى ! . . وأنا جئت أرد لك الجميل ! . . أفي النذر الذي نذرته . . أعطيك حياتي . . أعطيك « ابراهيم » ! . .

وراحت « فهيمة » تسعل . . وتسعل بشدة . . ثم اقتربت من مقعد تستند إليه لتمنع نفسها من السقوط على الأرض . .

وقفزت « سهير » من مقعدها ، وراحت تبحث في الغرفة ، ثم أسرعت تحمل لها زجاجة كولونيا . .

وأفاقت « فهيمة » وقالت بصوتٍ كالهمس غير المسموع :

ـ إن « ابراهيم » قام نحوي بكل الواجب . . إنه قبل أن يطلقني جاء إلى المنصورة وباع الفدانين اللذين يملكهما في البلد وأعطاني كل ثمنهما لأعيش . . ووعدني بأن يعطيني نفس المبلغ الذي

كان يعطيه لي ! . . إنه شاب نبيل ! . . إنه أحسن رجل في الدنيا ، وأنتِ يا سيدتي أحسن ست في الدنيا ! . . فليس غريباً أن يتزوج أحسن رجل في الدنيا من أحسن ست في الدنيا ! . . وكل ما أرجوه أن تحافظي عليه وأن تعرفي أن في يدك جوهرة !

* * *

ثم تقدمت « فهيمة » نحو « سهير » وهي تترنح وتراجعت « سهير » إلى الوراء . .

واستمرت « فهيمة » تتقدم وهي تقول :

ـ لا تخافي يا ستي ! . . لا تخافي من العدوى ! . .

قالت لها « سهير » وهي تتقدم نحوها :

ـ أنا لست خائفة من العدوى ! . .

ومدت « فهيمة » يدها وأمسكت يد « سهير » وقالت :

ـ أنا أريد أن أقبل يدك ! . .

وسحبت « سهير » يدها بسرعة وتراجعت وهي تقول :

ـ تقبلي يدي . . لماذا ؟ . . أنا التي يجب أن أقبل يدكِ ! . .

عادت « فهيمة » تحاول أن تمسك يد « سهير » وتقول :

ـ إنني أريد أن أقبل اليد التي ستمسك بيد « إبراهيم » وتسير معه إلى آخر العمر !

وسحبت « سهير » يدها مرة أخرى وغطت وجهها بيدها وهي تبكي :

ـ لم أكن أعرف ! . . لم أكن أعرف ! . . لم أكن أعرف ! . .

وأقبلت « فهيمة » تربت على كتف غريمتها وكأنها تعزيها وتواسيها :

ـ أنا الآن مطمئنة على « ابراهيم » وكل ما أرجوه ألا تخبريه أنني جئت إلى هنا ! . . سوف يغضب ! . . أنا لا أريد أن يغضب مني ! . . أريد أن أموت وهو راضٍ عني ! . . هل تعدينني يا ستي ألا يعرف شيئاً عن هذا اللقاء ؟ ! . .

ومسحت « سهير » دموعها بمنديلها وقالت :

ـ نعم . . أعدك . . أعدك بشرفي ! . .

وهزت « فهيمة » رأسها وقالت :

ـ أنا واثقة ! . . أنا أعرف أنك أشرف سيدة في مصر ! . .

* * *

ومضت « فهيمة » تسير إلى الباب وهي تتعثر في مشيتها . . وسقطت « سهير » على المقعد وهي تبكي وتنتحب وتقول :

ـ أشرف سيدة في مصر ! . . أشرف سيدة في مصر ! . .

ورأت « سهير » أمامها ثوب الزفاف معلقاً على الشماعة فنزعته منها وداسته بقدميها وهي تقول :

ـ أشرف سيدة ! . . لا ! . . أنا أسفل سيدة ! . . أنا مجرمة ! لصة ! . . سارقة ! . . لا . . أنا قاتلة ! . .

لو كانت هذه المرأة في صحة جيدة لحاربتها وقاتلتها وانتزعت منها « ابراهيم » . . ولكنني الآن ماذا فعلت ؟ ! . . انتصرت على

جثة ! . . انتصرت على امـرأة ميتة . . سرقت امـرأة ميتة ! . . ثم مـاذا سيقول النـاس عني ؟ ! . . سيقـولـون أنني أنـا التي قتلتهـا ! سيقـولون أنني دست عـلى جثـة امـرأة من أجـل نـزوة غـرام ! . . سيقولون أنه لولاي لعاشت سنواتٍ أخرى ! . .

وراحت « سهـير » تنتحب وتبكي وتـرفـع عينيهـا إلى السـماء وتقول :

ـ ماذا فعلت يا ربي ! . . لماذا تعاقبني هذا العقاب المريع ؟ !

ودخلت خـادمة « سهـير » فرأت سيـدتها منكفئـة عـلى الأرض تبكي ، فتراجعت إلى الباب . . ورفعت « سهير » رأسها وقـالت في صوتٍ منغم بالدموع :

ـ مين ؟ . .

قالت الخادمة :

ـ أنا زينب يا ستي . . فيـه بره نـاس بيقولـوا إنهم المحررين ، والمصورين ، وعندهم موعد مع حضرتك علشان صورتـك بملابس الـزفاف . . ولمـا قلت لهم ينتظروا الفـرح . . قـالـوا إن حضرتـك وعدتيهم علشان يقدروا ينشروا الصورة بالألوان ! . .

وتطلعت « سهير » إلى ثوب زفافها الملقى على الأرض وقالت :

ـ لا أريد أن أرى أحداً ! . . لا أريد أن أقابل أحداً ! . .

وخرجت الخادمة وهي تنظر إلى الثوب الملقى كأنه جثة عروس ميتة ونادتها « سهير » وقالت :

ـ على فكرة . . إزاي الست الفلاحة دي دخلت هنا ؟ ! . .

قالت الخادمة :

ـ حسن السفرجي هوه اللي قابلها وقالت له أنا أخت «سي ابراهيم » .

وأسرعت « سهير » إلى التليفون في عصبية ، وراحت تدير القرص ، ثم تضع السماعة قبل أن تتم طلب الرقم الذي تطلبه . .

وتكررت هذه العملية عدة مرات . . أدارت رقماً ثم وضعت السماعة ، ثم حملتها من جديد وأدارت رقمين . . ثم عدلت كأنها قاضٍ يريد أن يصدر حكماً بالإعدام ، وهو متردد يتقدم ويتأخر ، يقبل ويدبر ، يتشجع ويجبن . . إن الحكم الذي ستصدره ليس حكماً بإعدام متهم ! . . إنه حكم بإعدام القاضي نفسه ! . .

وعادت إلى المكتب الصغير في غرفتها وبدأت تكتب خطاباً ، ثم مزقته وعادت تكتب من جديد . . ولكن لم تكد تتم بضعة سطور حتى وجدت دموعها قد اختلطت بالحبر . .

لماذا تكون جبانة ؟ . .

لماذا لا تواجه الموقف مباشرة . .

لماذا تفر من لقاء « ابراهيم » وجهاً لوجه ! . . إذا كانت لا تستطيع أن تواجهه الآن فكيف تستطيع أن تواجه الحياة بعد « ابراهيم » ؟ . .

وتسرع « سهير » إلى التليفون ، وفي عينيها تصميم ، وتمسك السماعة ثم تدير القرص خمس مرات بثباتٍ وإصرار ! . .

* * *

دخـل « ابـراهيم » إلى بيت « سهـير » . . كـان يمشي وكـأنـه يرقص . . إن « سهير » اتصلت بمحل المعلم محمود البقال وطلبت إلى الصبي أن يبلغ « ابراهيم » أن « سهير » تريده فوراً لأمرٍ هام ! . . قفز « ابراهيم » درجات السلم في بيتـه أربعـاً في أربـع ! . . كان يكمل ارتداء ملابسه وهو يهبط السلم . . ولم يشأ أن يركب الدراجة المعتـادة ، إنـه ركب تـاكسي ، إنـه لا يـريـد أن تنتـظره « سهـير » طويلاً . . ترى ما هو الأمر الهـام الذي تـريد « سهـير » أن تتحدث فيه ؟ ! . . لا بد أن « سهير » قررت تحـديد مـوعد القـران . . إن « سهير » تحب المفاجآت . . إنها ستقول لـه أنها سئمت الانتظار . . إنها تريد الإسراع بالزفاف . . يا لها من إمرأة مدهشة . . إنها تقـرأ أفكاري . . إنها شعرت أنني أريد أن أختصر الطريق إلى السعادة . . إنني أريد أن أغمض عيني وأفتحهما وأجدني معها في بيت واحد وحياة واحدة . . ولكن ترى أين نقضي « شهر العسل » ؟ . . إن « سهير » تحب عملهـا ولا يمكن أن تترك المسرح . . لعلهـا نجحت في إقنـاع صاحب الفرقـة بأن يعـطيها أسبـوع إجازة . . أسبـوع عسل ! . . ولكن هل هذا الأسبوع يكفي ! . . إن « ابراهيم » لا يكفيه أسبوع عسل . . يريد شهر عسل ! . . يريد عمر عسل ! . .

وكـانت السيارة تعـدو « بـإبـراهيم » إلى بيت « سهـير » وكـان

« إبراهيم » يشعر كأن الدنيا كلها تعرف أنه ذاهب إلى الموعد العظيم ليسمع النبأ العظيم ! . . إن كل الناس ينظرون إليه باسمين . . كل شيء حوله يبتسم . . كأن الدنيا تقول له :

ـ مبروك يا « ابراهيم » ! . .

وقد لاحظ « ابراهيم » أن جميع إشارات المرور كانت خضراء ! لم تتوقف سيارة التاكسي مرة واحدة طول إشارات المرور المتكررة في الأحياء المزدحمة بين السيدة زينب ، والدقي حيث تسكن « سهير » .. إن سائق التاكسي لاحظ أيضاً هذه الظاهرة ، إنه يضحك ويقول « لابراهيم » : إن هذه المسافة كنا نقطعها في خمس دقائق لأننا الآن في ساعة الزحام « ولكن ربنا يظهر فاتحها في وجهك » ! . . كيف عرف هذا السائق أن ربنا فتحها في وجه « ابراهيم » ؟ . . كيف شعر أن جميع إشارات المرور في الطريق إلى الجنة تحولت كلها خضراء تدعوه إلى المرور ؟ ! . .

وفتح « ابراهيم » باب غرفة « سهير » ببطء ومشى على أطراف قدميه واتجه إلى المقعد الذي تجلس فيه « سهير » وظهرها إلى الباب ، ووقف وراءها ومد كفيه يغطي عينيها ويقول ضاحكاً :

ـ أنا مين ؟ ! . .

ولكن « سهير » لم تتحرك من مقعدها وقالت بصوتٍ بارد كالثلج :

ـ ازيك يا « ابراهيم » ! . .

وقال « ابراهيم » مستنكراً :

ـ ازيك ! . . دي أول مرة أسمعك تقولين ازيك ! . . لم يحدث

طوال هذه المدة أن سمعت كلمة « ازيك » ! . . إن هذا دليـل على أنكِ بدأت تعاملينني كزوج ! . . دليل على أنك قررتِ تحديد موعد الـزواج ! . . والآن بـدأتِ تعـاملينني « رسمي » ! . . ازيـك يـا « ابـراهيم بك » ! . . كـويس قوي يـا « سهير هـانم » ! . . إزي صحتك يا « ابـرهيم بيه » ! . . الحمـد لله يا « سهـير هانم » ! . . عاوز نطبـخ إيه النهـارده يا « ابـراهيم بيه » ! . . أنتِ راح تسـدي نفسي عـلى الصبح ليـه يا « سهـير هـانم » ! . . اطبخي الـلي أنتِ عاوزاه ! . .

وتقدم « ابراهيم » نحو « سهير » يطوقها بذراعيه . .

فجفلت منه وقالت له بصوت جاد:

ـ أنا أريد أن أكلمك في موضوع هام .

وهز « ابراهيم » يده إستخفافاً وقال :

ـ عارفه ! . .

وتصنعت « سهير » الابتسامة وسألته :

ـ عارفه صحيح ؟ . .

قال « ابراهيم » في براءة :

ـ عارفه كويس . . بالأمارة أنه يتعلق بمستقبلنا . .

ودُهشت « سهير » وسألته :

ـ عرفت ازاي ؟ ! . .

وأشار « إبراهيم » إلى رأسه ساخراً وهو يقول :

ـ بذكائي ! . .

ولكن « سهير » لم تضحك . . بل عادت لهجتها صارمة كما بدأت في أول الحديث :

- ورأيك إيه ؟ . .

وتصّنع « إبراهيم » اللهجة الجادة ووضع ساقاً على ساق وقال :

- رأيي أنني موافق على رأيك مائة في المائة ! . . لو كنت في مكانك لفعلت نفس ما تفعلينه الآن . .

وخطر « لسهير » أن « إبراهيم » جاء ليعترف لها أنه متزوج ، فقالت له :

- إذن لماذا لم تخبرني ؟ . .

وقال « إبراهيم » وقد ظهر أنه لم يفهم شيئاً مما جرى :

- لو كنتِ إنتظرت قليلاً كنت أخبرتكِ . . إنني كنت أنتظر المناسبة . . ولكنكِ سبقتني ! . . إنك تسبقينني إلى كل شيء ! . . أنا نفسي مرة أسبقك . . نفسي مرة أقول لك الكلمة قبل أن تقوليها أنتِ ! . .

قالت « سهير » ساخرة :

- طيب قولها انت ! . .

وأعاد « إبراهيم » ساقه إلى الأرض وتقدم في كرسيه نحو « سهير » وقال لها باسماً :

- انتِ عاوزة تقولي لي انك قررتِ أن نسرع بالزواج ! . . وأنا موافق جداً . . متحمس جداً . . مؤيد جداً . .

ثم تقدم نحوها ليعانقها .. هل عرفت الآن أنني أعرف أفكارك ؟ !

وأبعدته « سهير » بيدها وهي تقول بلهجة صارمة :

ـ أقعد يا « ابراهيم » ! .. إنني أريد أن أكلمك في شأن مستقبلنا ..

جلس « ابراهيم » إلى كرسيه ، وسحب فنجان القهوة الذي أمامها على المائدة وتظاهر أنه يقرأ الفنجان :

ـ أمامنا شيخ له عمة كبيرة .. وورقة .. وسكة سفر .. وياه واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. ستة أولاد

ولكن « سهير » لم تضحك ! .. لقد وقفت فجأة على قدميها وقالت له في حدة :

ـ إسمع يا « ابراهيم » لقد نظرت في أمر مستقبلنا .. ووصلت إلى أن هذه العلاقة يجب أن تنتهي ! ..

وظن « ابراهيم » أنها تمزح فقاطعها ضاحكاً :

ـ طبعاً لازم تنتهي .. تنتهي بالزواج ! ..

ورأت « سهير » أنه يجب أن تلقي القنبلة ! .. القنبلة التي سوف تنهي هذه العلاقة السعيدة فقالت في حزم :

ـ لا .. تنتهي .. تنتهي بالانفصال ! .. أنا لا أصلح لك وأنت لا تصلح لي .. أنت في أول حياتك وأنا في آخرها .. أنت مبتدىء وأنا في القمة .. ولا أريد أن أضيع حياتي في مغامرة ! ..

وبهت « ابراهيم » وقال في دهشة واستغراب :

ـ مغامرة ؟ ! . .

وأجـابت « سهير » عـلى السؤال الجـارح وهي تتـمالـك نفسهـا وتضبط أعصابها :

ـ نعم مغامرة . . صحيح أنها مغامرة لذيذة . . لكن أنا دائمـاً طول حياتي كنت أسيطر على عواطفي . . كنت أدوس عليها في سبيل مكانتي الفنية . . وهذا سر احتفاظي بمكـانتي حتى الآن . . لا أريد أن أضيـع كل هـذا المجد من أجـل مغامـرة . . إنك شـاب صغير وستجد مئات الفتيات الجميلات . . سيحببنك وسيقدرنك .

وشعرت أنها جرحته فلم تواجهه بنظراتها ، ولكن « ابراهيم » لم يصدق أذنيه وقال في ذهول :

ـ هل جننتِ ؟ . . إنها أول مرة تتكلمين فيها عن مركزك ! . .

وأجابت « سهير » في إصرار :

ـ وأنت سبق كلمتني عن مركزي ! . .

وبدأت أعصاب « ابراهيم » تفلت فقال لها يعنفها :

ـ أنـا أتكلم عن مـركـزك ولكن أنتِ لا تتكلـمين ! . . إنني لم أحب مـركزك ولكني أحببتـك أنتِ ! . . لم أحب نجمـة الجـماهـير وأحببت « سهير » ! . .

وأجابت « سهير » بغطرسة :

ـ ولكن لا يمكن أن أفصـل شخصيـتي عن روحـي ! . . إنني دفعت حياتي وشبابي من أجـل هذا المجـد . . ولا يمكن أن أضحي اليوم بكل هذا الجهد الذي بذلته والعرق والأعصاب والدم من أجل مغامرة مجهولة المصير ! . .

وشعر « ابراهيم » بالطعنات تنهال عليـه من شفتيها . . وأحس أنها جرحته فقال لها :

ـ لست أنتِ « سهير » التي تتكلم ! . . إنني لم أرك يوماً تمثلين هذا الدور . . دور المرأة المتغطرسة المتكبرة ، أنا . . أحببت « سهير » الطيبة المتواضعة ! . .

ولكن « سهير » مضت تمثل دورها في إيلامه وجرحه فقالت :

ـ أنا لم أتغير ! . .

وراح « إبـراهيم » يتأملهـا وكأنـه لا يصـدق أنها هي ! . . ثم قال :

ـ أبداً . . هذه ليست أنتِ ! . . ماذا حدث ؟ . .

وأسرعت « سهير » تغمد خنجراً جديداً في قلبه فقالت :

ـ كنت أحلم فاستيقظت ! . . كنت مغمضة العينين ففتحتهـما ورأيت الحقيقة ! . .

وتراجع « ابراهيم » في مقعده كأنه أُصيب بطعنة جـديدة وقـال بصوتٍ متحشرج :

ـ ما هي الحقيقة ؟ ! . .

قالت « سهير » :

ـ الحقيقة أنك لا تصلح أن تكون زوجي ! . . إن الفوارق التي بيننا في المركز والإسم والمكانة . .

وشعر « ابراهيم » أنه يجب أن يرد على الطعنة فقال لها :

ـ والثروة ! . .

ولكن « سهير » لم تهتم بضربة « إبراهيم » بل مضت تقول له :

ـ والثروة أيضاً . . سوف تهدم هذا الزواج . . إنني أفكر أسرع منك باعترافك ! . . إن ما رأيته أنا اليوم ستراه أنت غداً . . ستعرف أننا كنا سنرتكب حماقة ! . .

وانتفض « ابراهيم » في حسرة وقال :

ـ حماقة ! . . إنكِ كنتِ تقولين أن هذا الحب هو أذكى عمل في حياتك ! . .

ونظرت « سهير » إلى أرض الغرفة وقالت :

ـ كنت أخدع نفسي . .

وأحس « ابراهيم » أنها ضربته ضربة مميتة فصرخ فيها :

ـ أنتِ خدعتني أنا ! . .

ولكن « سهير » لم تهزها الطعنة بل مضت تلعب بخنجرها في جرحه المميت وتقول :

ـ أنا كنت أفكر طويلاً في مصيرنا ولا أجرؤ أن أفاتحك ! . .

قال « ابراهيم » ساخراً :

ـ إذن كنت تمثلين عليَّ كل هذه الشهور ! . . كنتِ تعانقينني وأنتِ تفكرين كيف يكون الخلاص ؟ ! . . كنتِ تذيقينني خمر قبلاتك وأنتِ تسألين نفسكِ متى يجيء الوقت لتسقيني سم فراقك ! . . كنتِ تقولين لي : « إنك أغلى شيء عندي في الدنيا » بينما كنتِ تعرضينني في سوق الدلالة أمام مخيلتك لتعرفي كم أساوي ؟ ! . .

وأجابته « سهير » ببرود قاتل :

ـ إن من حقي أن أفكر في مصلحتي ! . .

ونظر « ابراهيم » لها باحتقار وقال :

ـ إذا كان قلبك تحول إلى مصلحة فأنا أعترف أنني لا أصلح لأن أتقلد وظيفة فيه ! . . ليس عندي شهادات ولا توصيات ! . .

وشعرت « سهير » أنه أصابها ! . . إن الجرح الأول كان في قلبها ! . . والجرح الثاني أصاب كرامتها فقالت :

ـ إحفظ أدبك يا « ابراهيم » ! . . لقد كان حبنا جميلاً فيجب أن ينتهي نهاية جميلة ! . .

ولكن « ابراهيم » مضى يغمد فيها جمله كالخناجر الدامية ويقول :

ـ ما أجمل أن تنتهي القصة ، فخنجر تغمده العاشقة في ظهر عشيقها . . نهاية مسرحية عظيمة تليق بالبريمادونا العظيمة ! . . خاتمة فيها كل جمال المفاجأة ! . . ما الذي جعلكِ تفعلين بي هذا ؟ ما الذي جعلكِ تنتزعينني من مكاني في الكومبارس لتسندي لي الدور الأول في رواية وهمية ! . . ألم تجدي في الفرقة كلها شخصاً تلهين به إلا أنا ؟ ! . . أنا الذي أعطيتك قلبي فأعطيتني « شلوتاً » ! . .

فانتفضت « سهير » من مقعدها وقامت تشير إلى الباب :

ـ أرجوك أن تنصرف وتتركني ! . .

ووقف « إبراهيم » وألقى نظرة عليها . . نظرة مليئة بالحقد والأسى :

ـ انتهى دوري ! . . يجب أن تنزل الستار ! . . لقد كنت أتمنى

دائماً أن أمثل معك دوراً قصيراً على المسرح ! . . ولكنكِ شئتِ أن تجعليني أمثل دوراً قصيراً على الحياة ! . . كنت أتصور أن قربي منكِ هو السعادة ، وجئت أنتِ تجعلينه لعنة وعذاباً وجحيماً .

ويخلع « ابراهيم » الدبلة من أصبعه ويلقيها على الأرض قائلاً :

ـ إن هذه الخطبة مزيفة ! . . إن العريس رأى العروس لأول مرة بدون تواليت ولا مكياج ! . . رآها بشعة كما هي ! . . مغرورة كما هي ! . . خادعة كما هي ! . . إنني أشكرك على كل حال ! . . إن ضربة الخنجر هذه أحلى من قبلاتك ! . . لأن ضربة الخنجر حقيقية وقبلاتكِ مزيفة ! . . وخرج « إبراهيم » من الباب وضربه بعنف وراءه !

وانتفضت « سهير » كأنها استيقظت من كابوس . . وراحت تعدو وراءه وهي تقول :

ـ إبراهيم . . ابراهيم . .

ـ ثم سقطت على الأرض !

* * *

كلما كان الحب عظيماً كانت التضحية أعظم . . لهذا شعرت « سهير » أنها قامت بتضحية هائلة . . ولكنها لم تقدم هذه التضحية من أجل حبيبها ، بل إنها قدمت حبيبها ضحية ، وقدمت نفسها ضحية ! . . إنها ذبحت حبيبين من أجل امرأة مريضة ! . . داست على عمر كامل في سبيل حياة زوجة فانية ستموت بعد شهور ! . . وكلما تعذبت « سهير » أحست أنها فعلت شيئاً عظيماً ! . . إنها تضحية مثل تضحية الروايات ! . . ولكنها في الروايات عرفت رجلاً يضحي بحياته من أجل حياة وطن ، وعرفت نساء يضحِّين بحياتهن من أجل حياة أسرة ! . . وعرفت أُمًّا تضحي بحياتها من أجل إنقاذ حياة ابنها ! . . ولكن هذه هي المرة الأولى التي تضحي فيها امرأة بنفسها وبحبيبها من أجل امرأة لم تعرفها ولم ترها ! . . من أجل امرأة قضت الأقدار أن تكون غريمتها ، فانتصرت عليها بغير معركة ، وهزمتها بغير حرب ، ثم جاءت إلى المرأة المهزومة ووضعتها على العرش ، ونزلت هي بقدمها من فوق العرش ، وأنزلت معها الرجل الذي تحبه ! . .

ولم تعرف « سهير » كيف قامت بهذا العمل النبيل ! . . ولماذا قامت به ! . . لعلها فعلت هذا عندما قالت لها « فهيمة » انكِ أشرف امرأة في مصر لو وقفت في هذا الموقف . . ولكنها دفعت حياتها

من أجـل هذه الجملة التي ربمـا كانت لا تعنيهـا هذه المـرأة الجاهلة المريضة ! . . بل إنها دفعت هناءها وسعادتها وأحلامها ! إنها تعيش الآن بــلا أمـل ! . . مــا أتعس النـاس الـذين حـددت الأقــدار آمالهم ! . . لقد سمعت عن تحـديد الملكيـة ، وتحديـد الأرباح . . ولكنها أول مرة تواجه تحديد الآمال والأحلام . . إنها أشبـه بإنسـان يقدِّمون له صندوقاً صغيراً ويقولون له : ضع نفسك فيه ! فإذا وضع رأسه بقي جسمه خارج الصندوق ! . . كـانت « سهير » تشعـر مع حبيبها « ابراهيم » أنها منطلقة إلى دنيا لا حدود لهـا . . ولكنها الآن تشعـر أنها مسجونـة في زنـزانـة اليـأس . . ولكن عـزاءهـا أنها هي المسجون والسجان معاً ! . . هي التي حكمت على نفسها بالإعدام ونفـذت في نفسها الحكم ! . . ولكن مـا قيمة هـذه التضحية إذا لم يشعر بها الإنسان الذي تحبه . . إن الذي يضحي بحياته يعـزيه أن الناس ستضعه في قائمة الشهـداء ! . . ولكن تشعر أن ضمـيرها لم يسترح ! . . إن كل شيء فيها متعب معذب حتى ضميرها ! . . إن ضميرها يؤلمها لأنها آلمت « ابراهيم » ، لأنها أرادت أن تختصر لحظات احتضار حبها أمام حبيبها ، فوجدت نفسها تغمد خنجرها فيه ، هي التي كانت على استعداد أن تقدم حياتها فداء له !

وتعود « سهير » إلى نفسها تلومها ! . . ألم يكن هناك طريقة لهذه التضحيـة سوى هـذه الـطريقـة ؟ . . ألم يكن خـير لهـا أن تـواجـه « ابـراهيم » بالحقيقـة ، وأن تقول لـه أنها ترى أن من واجبهـا نحو زوجته المريضة أن تتخلى عن عرشها لها ! . . أو أن تقوم هي بدور العشيقة تاركـة لزوجتـه الأولى دور الزوجـة ! . . ولكنها تعـرف أن « إبراهيم » يحبها هي ، إنـه سوف يغضب عـلى زوجته الأولى لأنها كشفت السر الـذي كانت تخفيـه ! . . وقد أعـطت كلمة شرف ألا

تـذيع السر . . فكيف يجـوز أن تجيء أشرف امرأة في مصر وتخـذل امرأة مريضة في طريقها إلى الموت ! . .

ولكن من قال أني أشرف امرأة في مصر ؟ . . لماذا لم أكن أسفل إمرأة في مصر ؟ ! . . وأدوس على جثة هذه المـرأة في سبيل الـرجل الذي أحبه ! . . لماذا لم أسد أذني فلا أسمع أنينها ، وأغلق عيني فلا أرى عـذابها ؟ ! . . لمـاذا يطلب مني ضمـيري أن أتحمل عـذاباً لا يتحمله البشر ! . . أيهما خير لي : أن أكـون أسفـل امـرأة وأنـا سعيدة ؟ . . أم أكون أشرف امرأة في مصر وأنا تعسة معذبة ؟ يا لي من مغفلة ! . . لقد ارتكبت شيئاً أفـظع من الجريمـة ! . . ارتكبت عملاً نبيلاً ! . .

وتشعر « سهير » كأنها ثائرة على نفسها ! . . إن المرأة فيها تكره الملاك ! . . تلعنه وتلومه وتنهره . . إن هذا الدور ليس دورِكِ ! . . إن هـذه القصة لم تخلق لـكِ ! . . إنكِ خلقتِ لتتمتعي بـالحيـاة ، لتسعدي مع من تحبين . . لا أن تحولي نفسك إلى تمثال من الفضيلة ونكران الذات لا يراه أحد ولا يحس به أحد ! إنكِ عشتِ حياتـك نصف ملاك ! . . حرمتِ عـلى نفسكِ ملذات الحيـاة ! . . تجردتِ من الشهـوات ، منحتِ حيـاتـكِ لفنـك وللجـماهـير ، ولم تشعـري بالهناء ، ولا بالسعادة ! . . وها أنتِ الآن ترفعين نفسك من نصف ملاك إلى ملاك ، وإذا بكِ تريدين شقاءك ، وتضـاعفين عـذابك ، وتحطمين حبك ! . . ما أسعد الشياطـين وأتعس الملائكـة ! . . إن الشياطين يضحون بالآخرين في سبيل سعادتهم ، وتضيع صرخـات الضحـايا في قهقهـة الشياطـين ! . . أما المـلائكـة فـإنهم يضحـون بحيـاتهم فـلا يسمعـون صـدى لتضحيـاتهم ! . . ولا يحس بهم أحد ! . .

وتقف « سهير » أمام مرآتها وتقول لنفسها :

ـ أنا لست ملاكاً ! . . من الذي جعلني ملاكاً ؟ . . إن الله خلقني بشراً ، فيجب أن أتصرف كالبشر ! . . يجب أن أقتل وأذبح وأكذب لأعيش وأسعد ! . .

وفجأة تتراجع « سهير » أمام المرآة ! . . هذا الشيطان الذي أراه ليس أنا ! . . إنني أنكره ! . . إنني لا أعرفه ! . . إنه مخلوق بشع يطل من نفسي السيئة على نفسي الطيبة ! . . لنفرض أنني أغمضت عيني عن أنين « فهيمة » ! . . لنفرض أنني ضحيت بها في سبيل حبي ! . . إن شبحها بعد موتها لن يفارقني ! . . سيبقى شبح الميتة جالساً بيني وبين « ابراهيم » ! . . سأسمع أنينها عندما نضحك ! . . سأسمع سعالها عندما نتبادل الهوى ! . . سأشعر أنني بنيت سعادتي على أشلاء امرأة أخرى ! . .

وتهدأ « سهير » قليلاً ! . . وتخرج زجاجة الويسكي وتفرغ منها كأساً ! . . ولكن الكأس أصغر من أن تغرق فيها كل آلامها ، فلتفرغ الكأس الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة ! . .

ثم تمشي تترنح إلى فراشها وهي تغني ، وتنام في أحلام قلقة ، ترى « ابراهيم » ، وترى شبح « فهيمة » وتسمع صرخات مجهولة ، وترى وجوه شياطين ووجوه ملائكة ! . .

وتستيقظ من جديد لتفتح عينيها على العذاب والقلق والحرمان واليأس المرير ! . .

وهي تشعر في يقظتها المتقطعة من الخمر أنها تنوء بما تحمل من عذاب ! . . إنها تريد أن تجد من يقاسمها فيه ! . . إن طبيعتها

جعلتها رأسمالية في أحزانها واشتراكية في أفراحها ! . . كانت دائماً تحتفظ بهمومها وعذابها لنفسها ، وكانت دائماً توزع أفراحها على الناس ! . . وهي تريد أن تحدث أحداً عن تضحيتها ! . . تريد أن تقول لإنسان أنها حطّمت حياتها وحبها على مذبح امرأة منتهية ! أنها باعت سعادة العمر لتشتري أياماً قليلة لامرأة على فراش الموت ! . . ولكنها لا تجد حولها أحداً تبوح له بسرها ! . . أو لعلها تخشى إذا قصّت تضحيتها على أحد ألا يقدر فيه ما فعلت ، أو لا يفهم روعة موقفها ! . . إنها أول مرة تمثل فيها رواية تعتقد أنها خالدة ولا تجد متفرجين ولا مصفقين ولا معجبين ! . . وهي كانت تتمنى أن تجد متفرجاً واحداً ومصفقاً واحداً في شخص « ابراهيم » ! . . ترى ماذا يفعل « ابراهيم » الآن ؟ . . ترى هل يتعذب كما تتعذب ! . . ترى هل سيجيء يوم يعرف ماذا فعلت « سهير » ؟ . . وهل سيفهم الدوافع النبيلة التي جعلتها تفعل ما فعلت ؟ . . هل سيجيء يحمل زهرة ويضعها على قبرها ؟ . . وترتعش « سهير » لفكرة الموت ! . . وترى أمامها شبح « فهيمة » وهي ميتة ! . . وتقول لنفسها ، إنها أنقذت « فهيمة » من القبر ! ولكنها وضعت نفسها في القبر مكانها ! . . إنها أنقذت ميتة ، ودفنت حية ! . . إنها دفنت في هذا القبر حبها وسعادتها ! . . ولكنها لا تزال ترى أمامها جثة حبها لم تدفن ! . . هل يستطيع الزمن أن يقوم بمهمة التراب ، فيواري هذا الحب قبر النسيان ؟ . . ولكن الأيام تمر ولا تستطيع أن تنسيها حبها ، ولا أن تنسيها صورة « فهيمة » في شبحها الأسود ! . .

ويخطر ببالها أن تسرع إلى « ابراهيم » . . أن تركع أمامه وتبكي وتقول له : لقد حاولت أن أكون ملاكاً فلم أستطع ! . . هل تقبلني شيطاناً ؟ ! . . هل ترضى بي عشيقة ؟ ! . . هل تعدني أنك سوف

لا تلومني في يومٍ من الأيام ؟ أنني أنا الذي جعلتك تضحي بزوجتك وتقتلها من أجل حبنا ؟ ! . .

وتتقــدم « سهـير » إلى التليفــون لتــطلب « ابــراهيم » ، ثم تتراجع ، ثم تتقدم إلى المائدة التي عليها التليفون ، ولكنها لا تـرفع السماعة ، وإنما ترفع زجاجة الويسكي الواقفة بجوار التليفون كـأنها تحرسه منها ، وتمسك الزجاجة وتفرغها وتشرب من جديد .

ولكن الكأس لا تحمل لها صوت حبيبهـا ! . . ولكنها تـرى في قطرات الويسكي التي تملأ الكأس صورته ! . . وترى كأن الصورة ترقص داخل الكـأس ! . . ثم تتبين أن يـدها هي التي تـرتعش ، وتعـود وتتطلع إلى بقـايا الخمـر في الكأس فتجـد أن فيها بقـايا من « ابـراهيم » ! . . إنها ترى في الكـأس ابتسامتـه وغضبته ، وعينـاه يملؤهما الحب ، تملؤهما الكراهية ، فتعود وتملأ الكأس من جديـد ، وترتشفها بسرعة ، وكأنها تريد أن تقبل شفتيه ، أن تملأ نفسها به ، أن تمزج دمها بروحه وأنفاسه وبقاياه ! . .

ثم تمسك الكأس الفارغة وتتـطلع إليها ! . . وكـأنها تريـد أن تحدثها ! . . تريد أن تقول لها لم يبق فيها إلا الثمالة ! . . التي خلت من الحب . . إن حيــاتي فـارغــة مثلك ! . . وكــانت مــلأى ثم خلت ! . . وبقيت فيها رائحته ! . . خلت من خمر الهوى وشعرت كأن هذه القطرات هي الدموع ! . . وتركت دواره ! . . ثم لاحظت عـلى الكأس قـطرات ! . . لعـل الكـأس تبكي معهـا ! . . لعلهـا شعرت بوحدتها ، لعلها أحست أنها أصبحت حبيبها الذي يحاول أن يسليها وينسيها ما هي فيه من عذاب ! . .

ثم تبعـد الكأس عنهـا ! . . كأنها لا تـريد أن تشرك في هـوى

« ابـراهيم » حبيباً آخـر ، ثم تعود إلى الكـأس مرة أخـرى وتمسـح قطراتها بشفتيها ، وتعود تسكب فيها الخمر من جديد ! .

وتسـأل الكأس مـرة أخرى أن تخـرجها من حـيرتها ! . . لماذا فعلت كل هذا ؟ ! . . لماذا ضحت بنفسها وضحت بإبراهيم ؟ . . هـل فعلت هذا من أجـل « فهيمة » حقيقـة . . أم هي فعلت هذا خشية الناس وكلام الناس ؟ . هل أطاعت صوت ضميرها . . لأن هـذا الضمير هـو صوت الملايين التي تلعن إمـرأة تسلب رجلاً من زوجتـه ؟ ! . . وهـل هي بحكم عملهـا في شـارع المجـد خـافت الناس ، وخافت أن يعتبروها قـاتلة ؟ ! . . ترى لـو أنها لم تكن في شارع المجد ، ولم تكن الأضواء مسلطة عليها ، ولم تكن كل حركة محسوبة عليهـا ! . . كانت تـرى صورة ضمـيرها وقـد سلطت عليه الأضـواء وكأنـه نجم على المسرح ؟ ! . . أو كـأن صوتـه يدوّي في الإذاعـة ؟ ! . . هـل لـو كـانت امـرأة عـاديـة لما اهتمت بصـوت ضميرها ، ولأقفلـته كما يفعل المستمع عندما يغلق الراديو بعد سماع إذاعـة لا يريـدها ، أو انتقلت إلى صـوتٍ آخر تسمعـه غير صـوت الضمير ؟ . .

لا بـد أنها فعلت هذا من أجـل الناس ! . . إذن فـالناس هم أعـداؤها . . هم خصـومهـا . . هم العيـون التي تـراقبهـا . . هم الشرطة التي تتبعها أينما سارت . . هم الأشباح التي تكشف سترها ، وتظهر أسرارها ! . .

هؤلاء الناس الذين أحبتهم هم الـذين كرهـوا حبها ! . . هم الـذين لعنـوا عشقهـا . . هم الـذين قـاومـوا زواجهـا ! . . وهم المجرمون الحقيقيون في جريمتها ! . . هم المحرضون الذين دفعـوها

أن تقتل حبها لتخفي في جثته جريمة أخرى وهي جريمة قتل « فهيمة » ! . .

وتنظر « سهير » إلى يديها ! . . فترى كأن فيها بقايا دم ! . . آثار مصرع حب ! . . إنها قتلته بهاتين اليدين ! . . ولكن كيف طاوعها قلبها أن تقتل حباً ، وهي التي غنت للحب ، وتكلمت عن الحب ، وجعلت الحب أنشودة حلوة في شفاه الملايين ؟ ! . .

ولكن هؤلاء الملايين شركاء في الجريمة ! . . لولاهما لما قتلت ! . . لولا خوفها من ألسنة الناس لما ترددت أن تقتل المرأة التي تقف بينها وبين حبيبها ! . . وتتذكر أن موعد ظهورها على المسرح قد اقترب . . كيف ستواجه الناس وهم أعداؤها ! . . كيف تبتسم للذين تلعنهم ! . . كيف تغني للذين تكرههم ! . . كيف تسعد الذين أشقوها ! . . كيف تطرب الذين جعلوا حياتها جحيماً وعذاباً ؟ ! . . إنها لا تريد أن تراهم ! . . لا تريد أن تجتمع في مكان واحد بالذين حرضوها على أن تقتل حبها ! . . إنها تخشى أن تفقد أعصابها عندما تقف على المسرح . . أن تخرج على كلمات دورها . . أن تقول لهم رأيها فيهم ! . . أن تشير إلى كل واحد بأصبعها وتصرخ : « أيها القتلة . . أيها المجرمون » ! . .

وترتعش وهي تتصور أنها قد تفعل ذلك . . ثم تمد يدها إلى الكأس ! . . هذه هي صديقتها التي تقف معها في محنتها ! . . إنها ستحميها من رؤية هذه الوجوه ! . . إنها ستشرب وتشرب حتى تنسى أنها سوف تغني للذين تمقتهم . . وسوف تسعد الذين تكرههم ! . .

وفجأة سقطت الكأس من يدها . . إنها هي الأخرى تخلت

عنها ! . . إنها ضاقت بدموعها ! . . إنها تريد أن تعيش في يد الضاحكين السعداء لا بين أصابع التعساء الأشقياء ! . .

وأيقظها صوت الكأس المحطمة من أوهامها ! . . إن أحداً لم يضربها على يدها لتقوم بهذه التضحية ! . . إنها فعلت هذا من تلقاء نفسها ، من وحي ضميرها ! . . إنها مثل إنسان يائس مفلس جائع وجد محفظة ملقاة في الشارع . . انحنى وفتح المحفظة فإذا هي مملوءة بالنقود ، فيها حل لكل مشاكله . . . طعام لبطنه الجائع . . كساء لجسده العاري . . وفجأة جاء صاحب المحفظة وقال له : « أنا صاحبها ! . . وهذا اسمي فيها ! . . وأنا محتاج للمال الذي تحويه المحفظة لأشتري دوائي » لقد كان أمامه أمر من إثنين :

أن يجري بالمحفظة ! . . إنها لم تفكر في تلك اللحظة في أن الناس سيعدون وراءها وهم يصرخون : « حرامي . . حرامي » ! إنها فكرت فقط في صاحب المحفظة الأصيل ! . . فكرت بضميرها ولم تفكر بعقلها ! . . إنها لم تخش فضيحة أن يضبطها الناس تسرق رجلاً من زوجته ، وإنما رأت أن تضحي بالمحفظة المحشوة بالنقود من أجل صاحبها الشرعي الذي يحتاج إلى كل قرش فيها ! . .

ولكن « سهير » وضعت حياتها في هذه المحفظة ، وضعت حبها وقلبها ! . . وها هي الآن تعيش بلا حب وبلا قلب وبلا حياة ! لها ماضٍ وليس لها مستقبل ! تغمض عينيها عن الحقيقة ، وتحاول أن تعيش في الذكريات ! عندما رأته لأول مرة . . عندما خفق قلبها . . عندما كاشفته بحبها . . عندما ارتشفت قبلته الأولى . . عندما تعاهدا على الزواج . . وتبدو على وجهها وعينيها المطبقتين كأنها

تسمع قطعة موسيقية حالمة هادئة راقصة . . وفجأة تدوي أصوات الطبول ، وتتضاعف ، وتتدافع ، وترتعش شفتاها ، ويتقلص وجهها ، وتقطّب عيناها ، وتنهمر دموعها ! . . إن الموسيقى الهادئة تتحول إلى مدافع تقصف وتنسف حبها وتدمر أحلامها وتهدم سعادتها !

وتسرع « سهير » إلى دولاب ملابسها ، وتخرج منه ثوباً بسرعة ، وترتديه وهي تنزل على السلم . إنها لم تنظر إلى المرآة ، إنها لم تنظم شعرها ، وترمي نفسها في سيارتها ، وتخرج مشطها وتمشط شعرها والسيارة تسير منطلقة إلى المسرح لتلحق الرواية قبل أن تبدأ ! .

وتنظر من وراء زجاج السيارة إلى الأشباح التي تسير في الشوارع ! وكلما رأت شاباً يركب دراجة التصق وجهها بزجاج السيارة ، لعل هذا الراكب هو « إبراهيم » ، لعل هذه الدراجة هي دراجته ! ولكنها ترى دراجات كثيرة تشبه دراجة « ابراهيم » ولا ترى « ابراهيم » فوقها ! .

ترى ماذا يفعل « ابراهيم » الآن ؟ . . أين هو ؟ . . ماذا يقول ؟ . . هل يحبها أم يكرهها ؟ . . هل يحترمها أم يحتقرها ؟ . . هل يريدها أم يعافها ؟ . . هل يتصور أنها تتعذب وتتألم ؟ ! هل يعرف أنها القتيلة أم يؤمن أنها القاتلة ؟ !

* * *

وشعر « ابراهيم » أنه يمقتها . . كل ذرة في روحه تلعنها . . كل نبضة من نبضات قلبه تكرهها ! ولكن كلما قطع خطوة في الطريق من بيت « سهير » إلى بيته في الحارة شعر كأن الزفرات تتناقص والنبضات تتباعد ! . . وما كاد يصل إلى باب الحارة حتى شعر أنه لا يزال يحبها ويعبدها ، وراح يلوم نفسه لأنه قبل الهزيمة بهذه السرعة ، لماذا لم يصمد في المعركة ؟ وهي معركة حياة أو موت بالنسبة إلى قلبه . لماذا فقد أعصابه فجأة وسبَّها وشتمها ؟ كان يجب أن يتحمل طعنات الخناجر ، ويحاول أن يقنعها بخطأ رأيها ! كيف يمكن أن ينهار في دقائق الحب الذي بناه في سنوات ؟! لماذا خرج من الجنة بقدميه ؟ . . لماذا لم يتشبث بكل شبرٍ فيها حتى يُطرد منها ؟! إنه شعر أن كرامته قد أُهينت ! ولكن لا كرامة في الحب ! . . إن الصفعة على الوجه أقل ألماً من الصفعة على القلب ! وقلبه لم يصفع فقط ، وإنما ضُرب بالخناجر ، وذُبح كما تذبح الشاة ! . . ويتعلق « ابراهيم » بالأمل . . يتخيل الأوهام ويصدقها . . لعلها أصيبت بأزمة عصبية نتيجة الضغط الشديد عليها ! . . لعلها سقطت تحت وطأة المطارق التي إنهالت عليها من سخط الرأي العام على هذا الزواج . . لماذا تخلى عنها ؟ . . لماذا لم يقف إلى جوارها ويحاول أن يكسب هذه المعركة الفاصلة كما كسب المعارك السابقة ! . .

ويمسك التليفون ويطلب « سهير » ! ولكن رقم تليفونها مشغول دائماً ! . . إنها رفعت السماعة حتى لا تسمع صوته مرة أخرى ! إذن فليذهب إليها من جديد ! . . إن جرح قلبه يؤلمه أكثر من جرح كرامته ! . . لقد أنساه جرح القلب جرح الكرامة . . ويركب دراجته ويذهب إلى فيللا « سهير» ! . وينزل من فوق البسكليت ويقفز البواب من مقعده مرحباً ، ويسأله :

ـ هل الست « سهير » موجودة ؟ . .

فيقول له البواب :

ـ انتظر لما اشوفها ! . .

ويطمئن « ابراهيم » لهذا الجواب ! . . إذن فالبواب ليس لديه أوامر بأن يقول أن الست غير موجودة ! . . وبعد دقائق يعود البواب ليقول له :

ـ إن الست غير موجودة ! . .

ويعود « ابراهيم » إلى بيته تعساً ذليلاً مهزوماً ! ولكنه لا يلبث أن يقنع نفسه بأن « سهير » قد تكون غير موجودة فعلاً ! لماذا يظلمها ؟ . . لماذا لا يعطيها فرصة أخرى ! ويصدق « ابراهيم » أمانيه ، ويعود في اليوم التالي إلى بيت « سهير » ، ويتقدم إلى البواب من جديد . . . ويسأله :

ـ هل الست « سهير » موجودة ؟ . .

ويقوم البواب من كرسيه متثاقلاً ويقول له :

ـ إن الست « سهير » غير موجودة ! . .

ويطرق « ابراهيم » برأسه ويركب دراجته يحمل هزيمته معه ! إن

البواب هذه المرة لم يهب لتحيته ، ولم يكلف نفسه أن يسأل عن الست ، لا بد أن البواب لديه تعليمات بأن « ابراهيم » أصبح ضيفاً غير مرغوب فيه ! . . ويمتلىء قلبه بالغل والحقد ، ولكن لا يلبث أن يجد نفسه يدافع عن « سهير » ويختلق لها المعاذير ويختلق المعاذير أيضاً لبواب « سهير » ! . .

لعل البواب المسكين متعب ، لعله مريض ، لعله قام متثاقلاً لأنه يشكو تعباً ، ولعل « سهير » متغيبة فعلاً ! إن الغائب حجته معه ! فلماذا لا يحاول من جديد ! . . لا يأس مع الحياة ، ولا يأس مع الحب . . ولنفرض أن « سهير » كانت غاضبة أمس ، فلعلها راضية اليوم ! . .

ويركب « إبراهيم » دراجته من جديد ويعود إلى بيت « سهير » ولكن البواب في هذه المرة لا يتحرك من مقعده ! ويتقدم « ابراهيم » إليه ويسأله :

ـ هل الست « سهير » موجودة ؟

ويرد البواب عليه ، وقد وضع ساقاً فوق ساق ، ويقول بغير اهتمام :

ـ إن الست غير موجودة ! .

ويعود « ابراهيم » وهو يكره نفسه ! يكره نفسه أكثر مما يكره « سهير » ! إنه لم يكتفِ بصفعة « سهير » ، بل إنه تلقى صفعة البواب ! .

ولكن هذه الصفعة أيقظته من غفلة ! إنها فتحت عينيه على الحقيقة الهائلة ! . . إن بيوت الأوهام التي صنعها قد حطمتها صفعة البواب !

ولكنه يشعر أنـه في حاجـة إلى أن يركب دراجتـه من جديـد ، ويذهب إلى بيت « سهير » ، ويتقدم إلى البواب وهو راكب الدراجة بغير أن يترجل عنها ، ويقول له :

ـ أنا عارف الست موش موجودة ! . .

ويدير دراجته ويعود إلى بيته راضياً عن نفسه ! . . لقد صفـع البواب ! . . لقد قال له « ابراهيم » : إن الست غير موجودة قبل أن ينطق البواب بالجملة ! . . ولكن يا له من طفل ! . . إنه لم يستطع أن يصفع « سهير » ، فصفع البواب ، أو لعله صفع نفسه بدلاً من أن يصفعه البواب ! . . أي انتصار عظيم في هذه المهزلة المؤلمة ! . . إن الحقيقة المؤلمة أن « سهير » أصدرت حكماً بإعـدامه ، ولا تقبـل استئنافاً ، ولا نقضاً ، ولا التماساً ! . . إنه يجب أن يـواجه النهـاية القاسية . . إنها لم تعد تحبه ، لم تعد تريده ، لم تعد تطيق أن تراه ! ولكن ماذا يفعل وهو لا يزال يحبها ! . . لا يزال يـريدهـا ! . . لا يـزال يحلم بأن يـراها ! . . ويخـرج من بيتـه ، ويقف عـلى قـدميـه الساعات بعيداً عن بيتها ، متخفياً وراء الجدران ، ليرى شبحها من بعيد وهي تدخـل أو تخرج ، ويـذهب إلى شارع المجـد ويقف على الـرصيف ليرى سيـارتها وهي تعـود بسرعـة هـائلة في طـريقهـا إلى المسرح . ويتصور في أول الأمر أن هذه الرؤية تخفف جرحه ، ولكنه يحس كأن هذه المشاهد من بعيد تزيد آلامه ، وتضـاعف أحزانـه ، وتلهب هواه ! . . ويقرر أن يبتعد عنها ، ويقترب موعد خروجها من بيتهـا فيبقى في بيته بغـير أن يرتـدي ملابسـه . إنـه يسجن نفسـه . وتقترب ساعة خروجها ، ويهيىء نفسه عـلى قوة أعصـابه ، إنـه لن يذهب إليها ، ثم ينظر إلى الساعـة ، فيجد نفسـه يسرع إلى ارتداء ملابسه ، ويركب الدراجة ويجري بها بسرعة ليراها وهي تخرج وهي

تدخل ! . . ثم يعود إلى بيته كئيباً حزيناً ! ويقسم أنه لن يفعل هذا مرة أخرى . يجب أن يكون رجلاً . يجب أن يموت واقفاً ! . . ويحاول ولا يستطيع ! . . يقاوم ثم يستسلم . . يقرر القرار وينقضه ! . . إنه لا يزال يحبها . . لا يزال يريدها . . لا يزال يتمناها ! . .

وكان أصدقاؤه يقولون له :

ـ يجب أن تنساها ! . . .

ولكن كيف ينساها ! . . لو كانت تقيم معه في الحارة لانتقل إلى حارة أخرى . . ولو أنها في مدينة لسافر إلى مدينة أخرى . . ولو كانت في بلدٍ لهاجر إلى بلدٍ بعيد . . ولكنها في كل حارة وفي كل مدينة وفي كل بلد ! . . إن صوتها يتبعه في كل مكان . . في الشوارع والمقاهي والبيوت . . كلما فتح جريدة أو مجلة وجد اسمها . . كلما مشى في شارع وجد صورتها تطل عليه من الجدران . . وكلما مر بدكان سمع صوتها يدوي من جهاز الإذاعة . . وكلما جلس في مكان وجد الناس يتحدثون عنها . . لو انه أحب الشمس لاستراح في الليل عندما تغيب . . ولو أنه أحب القمر لتفادى أن ينظر إلى السماء ونظر إلى الأرض . . ولكن « سهير » تتبعه كظله بالليل والنهار ، كل شيء يذكره بها ، وفي بعض الأحيان يشعر أنه في حاجة إلى أن يصرخ . . أن ينادي الناس لينقذوه من الدوامة التي غرق فيها ، ولكنه يخشى أن يصرخ لأنه يعرف أن الأيدي التي ستمتد إليه ستدفعه إلى القرار . وفي بعض الأحيان يحس أنه يريد أن يبكي . ولكنه لا يجد الدموع . . كأن عينيه جفَّتا ونضبتا ! . . لو انه وجد الدموع لاستطاع أن يغسل بها جزءاً من أحزان قلبه ! . .

وأتعس الناس من تنزف دموعهم من الداخل كأنها جروح غير منظورة . ولقد شعر عندما رأى نهاية حبه أنه يرى نهاية العالم ، كأن قنبلة هيدروجينية هائلة نزلت على رأسه وحده ، قضت على كل شيء فيه . لم تترك فيه مكاناً يتألم ! كأنه تحول كله إلى جرح هائل ! إن قلبه مجروح وكرامته مجروحة ، وروحه محطمة ، وعينيه لا تريان المستقبل ، وشفتيه لا تذوقان الطعام ، ورأسه يكاد ينفجر مما فيه من أفكار سوداء ! . . كان يعيش في كابوس لا نهاية له . . ما أشقى الحياة بغير أحلام ! . . إنها أشبه بغرفة سوداء ليس فيها شعاع واحد من نور ، ولكن هذه الغرفة لا تلبث أن تضيق وتضيق حتى تتحول إلى تابوت ! ومع ذلك فما أسعد الموتى الذين تضمهم التوابيت ، إنهم لا يحسون ولا يشعرون بهذه الصناديق الضيقة ، بينما هو يشعر بها ويحس بأنه مدفون فيها وهو حي يتألم ويتعذب وينوح !

وفكر أكثر من مرّة في أن ينتحر ! . . وأمسك زجاجة صبغة اليود في يده ، ولكنه ما كاد يقربها من فمه حتى دخلت أمه فجأة ! ما الذي جاء بها الآن ؟! إنها قالت له أنها ستزور ضريح السيدة والأولياء الصالحين ولن تعود إلا في المساء . . فما الذي أحضرها فجأة بعد خروجها بنصف ساعة ؟ . .

وقالت أمه أنها شعرت بألمٍ في رأسها فعادت أدراجها . ولكنه لم يصدقها . اعتقد أن قوة مجهولة جعلتها تشعر أن ولدها في خطر ، فعادت لتقف بينه وبين الموت . ويومها ارتعشت زجاجة الموت في يدع . وسقطت على الأرض . وانسكب السائل على ملاءة السرير . ونظرت أمه إليه ولم تقل له شيئاً . فهمت بغير أن تتكلم . ورأى في عينيها ضراعة وتوسلاً . ومضت تنظف السرير المبتل دون أن ترفع

عينيها إليه . ولكن هذه النظرة المتضرعة بقيت في عينيه . لم تغب عنه أبداً ، شعر أنه جبان عندما يهرب من العذاب ويترك أمه تتعذب ! لو أراد أن يموت فيجب أن يأخذها معه . ولكنه لا يستطيع أن يعطيها من السم الذي قرر أن يشربه . إذن فليبقَ من أجلها ، وليحاول أن يتظاهر أمامها في صورة غير صورة الشقاء . وتسمعه أمه يضحك ويقول نكتة . ولكن أمه لا تضحك للنكتة . إنها تعرف أن روح ابنها تعيش في جنازة دائمة . وهذه الضحكة ليست ضحكته . إنها ضحكة مجروحة فيها كل أنغام الأنين . وتخرج الأم من الغرفة لتبكي . إنها لم ترد أن يرى « ابراهيم » دموعها . إنها عجزت أن تعطيه الضحك فلا أقل من أن تخفي عنه الدموع .

وينظر « ابراهيم » إلى زجاجة صبغة اليود الفارغة ! إنه فشل في كل شيء . فشل في حبه . فشل في عمله . بل إنه فشل في أن يموت ! . . ويمسك « ابراهيم » الزجاجة من جديد . إنه مكتوب عليها أنها تشفي الجروح من الظاهر ! ولكن يجب أن ينتظر آلاف السنين حتى ينسى أنه عشق ومات وهو على قيد الحياة ! . . إن الأم عندما تفقد ولدها تدفنه في التراب ، ولكن عندما مات غرامه بقي يحمل جثة الحب على رأسه ، يذهب بها في كل مكان ! . . يعيش معها وينام بجوارها ويحلم بها ! . .

وأصدقاء « ابراهيم » يقولون له إن خير مقبرة ندفن فيها الحب القديم هي أن نضعه في حبٍ جديد . . إنهم ينصحونه أن يداوي الداء القديم بداء جديد . . ويتطلع « ابراهيم » إلى وجوه النساء فلا يجد واحدة تشبه « سهير » . أو تحل في قلبه مكان « سهير » . إن كلهن في نظره مشوهات قبيحات غبيات جاهلات تافهات . إن الله

خلق « سهير » واحدة . منحها الله نعمة الصوت فغنت ، ونفحها قبساً من جماله فتألقت ، وأفاض عليها شعاعاً من مجده فدوى اسمها في الخافقين ! ولكن الله لم يعطِ باقي المخلوقات شيئاً مما حباها به ، كأن لم يبق لدى الله جمال جديد يوزعه على باقي الناس ! ويتحسس « ابراهيم » عينيه . إنه يخشى أن يكون قد أصيب بالعمى ! . . ما الذي جعله لا يرى الوجوه الجميلة في كل مكان ؟ . . ويمضي « ابراهيم » في الشوارع يحاول من جديد أن يجد وجهاً جميلاً أو صوتاً جميلاً أو ابتسامة حلوة ! ولكنه يحس كأن الدنيا خلت من النساء الجميلات ! . . . كل امرأة يقارنها « بسهير » . . كل كلمة حلوة يسمعها تبدو له سخيفة إذا قارنها بكلام « سهير » . . ويعود « ابراهيم » إلى بيته يبكي . ويخرج صورها الممزقة ! . . إنه مزقها كلها يوم أخبرته « سهير » أن حبها قد انتهى . ولكنه عاد بعد ذلك يجمع قطع الصور ويلصقها جزءاً جزءاً . . وهو يرى في هذه الصور الممزقة قلبه ! . . إن « سهير » مزقت قلبه كما مُزِّقت هذه الصور ، ولكن . . هل يستطيع أن يجمع بقايا قلبه ويلصقها بالصمغ كما فعل بصور « سهير » ؟!

* * *

وبدأ نبأ فسخ الخطبة يتسرب إلى الناس . .

وخـرجت الصحف تنشر في صفحاتها الأولى ، وبعنـاوين ضخمة ، نبأ فسخ خطبة « سهير » و« ابراهيم » . . ونشرت إحدى الصحف النبأ بعنوان : « بشرى » ! . . كأن البلد كسب معركة حربية وهزم جيوش الأعداء ! . . وقد كان الناس سعداء فعلاً بالنبأ المشؤوم ، كانوا يشعرون أنهم في معركة فعلاً ، وأن « ابراهيم » هو جيوش الأعداء ، وكانوا فرحين بأنهم تغلبوا على هذا الشاب المجهول الذي سلبهم معبودتهم ، وشعر كل واحد من هؤلاء السعداء بأن ابنته أو حبيبته أو عروسه عادت إليه بعد أن انتزعها منهم هذا الغريم !

وكان « ابراهيم » يرى الشماتة به في عيون الناس . وكان شقاؤه يسعدهم ، وبكاؤه يضحكهم ، وعذابه يطربهم ، ولم يكن يجد له في هذه المحنة أصدقاء أو مؤاسين إلا أهل الحارة الذين صمدوا للعاصفة ، والذين شعروا أن ما حدث يمس كرامتهم جميعاً ، بل إن هذه الصاعقة التي نزلت على « ابراهيم » أصابتهم كلهم . . قضت على أحلامهم . . حطمت أمانيهم . . أضاعت من « الست زوبة الخياطة » فرصة بيع بيتها « لسهير » . . قضت على أحلام « عوضين » في عريس جديد « لسنية » . . أعادت حارتهم إلى تحت

الأرض من جديد بعـد أن انتهت القصة كـما تنتهي أية مسرحيـة ، فيغيرون المناظر ويلقون بها في سلة المهملات . . ولم تكن حارة السد إلا منظراً في مسرحية حب ، فعندما أُسدل الستار على القصة انتهى دور حارة السد ولم يعد الناس يذكرونها أو يتحدثون عنها !

وكـان « ابـراهيم » يمشي في الحـارة فيسمـع صـوت « المعلم سلطان » يغني بصوتٍ مجروح :

من حب راجل . . .
يعيش راجل . .
يموت راجل . .
من حب حرمة . .
انعدم أمله . .
ما عاد راجل . .

* * *

وكان « ابراهيم » يسمع أطفال الحارة يرددون هـذه الأغنية . . كـأنها أصبحت نشيـداً وطنيـاً لهـذه الحـارة . . ولكنـه كـان لحنـاً جنائزيـاً . . فكأن هـذه الحارة تحـولت إلى مأتم مستمـر . . ألحانـه حزينة . . باكية . . تنزف منها الدماء !

وذهب « ابراهيم » إلى صالون «الاسطى عزيز » في أول الشارع ليقص شعـره . . لقـد مضت عليـه شهـور دون أن يفكـر في قص شعره . . إنه نسي أن يتزين ! . . ولمن يتزين ؟ . . لقـد كان يقص شعره من أجلها . . وكان يحلق ذقنه من أجلها ! . . ولكنه الآن أشبه بميت ليس في حاجة أن يستبدل كفناً بكفن !

وكـان «الاسطى عـزيز» الحـلاق يلح عليه كـل يوم أن يقصّ شعره ، إن « القصّة » التي كان فخوراً بها عندما قصّها « لابراهيم » طالت وطالت . . وأصبحت تبـدو خارجـة عن النظام ! كـأنها هي الأخـرى تحتج احتجـاجاً صـامتاً عـلى المأسـاة التي صنعهـا النـاس « بابراهيم » !

ولكن « ابراهيم » كان محتاجاً إلى القـروش التي سوف يـدفعها أجراً لقص شعره ، ولم يكن يريد أن يحلق مجاناً ، على الرغم من أن «الاسطى عزيز» كان يؤكد له إنه يريد أن يقدم هـذه الخدمـة هديـة لصديقه العزيز !

وكان « ابراهيم » قد استقال من عمله في « المسرح الحديث » لم يستطع أن يبقى ليواجه طبول الشماتة وصفير السخرية من زملائه . . ولم يكن يستـطيـع أن يـواجـه « سهـير » ! . . كـان يـرغب أن ينسـاها ! . . كـان يمشي في الشوارع مغمض العينـين حتى لا يـرى صورتها تغطي جدران الشوارع . . . وكان لا يقرأ الصحف حتى لا يعرف أنباءها . . وكان يعتزل الناس لأنه شعر كأن في يد كل واحد منهم خنجراً ويريد أن يغمده في جرحه الـذي لا يزال يـدمي ويملؤه الصديد !

وبدأ « ابراهيم » يبيع أثاث بيته ليعيش . . إنه باع المقعد الذي كانت تجلس عليه « سهير » لعله يستطيع أن ينساهـا . . وينسى أنها كانت تزوره في هذه الغرفة الصغيرة وكانت تجلس بجواره في المقعـد الواسع وتضمه إلى صدرها وتناغيه وتناجيه ! ولقد باع السجادة التي مشت عليها « سهير » ، وحلت مكان السجادة « حصيرة » صغيرة لم تعرف أقدام « سهير » ، ولم ترها تمشي وكأنها ترقص ، ولم يقع عليها

رماد سجائرها . . واليوم ذهب « ابراهيم » إلى محل للرهونات وباع ساعته ، وذهب يدفع المبلغ التافه الذي حصل عليه إلى « عم محمود البقال » مدعياً أنه باع لحناً لأحد المسارح ، وأراد أن يدفع جزءاً بسيطاً من الديون التي تراكمت عليه !

ولمحه «الاسطى عزيز» الحلاق ، فأمسكه من يده وقال له :

- قبضت عليك . .

وأجلسه بقوة على مقعد الحلاقة ، وراح يقص له شعره بالقوة ويتحدث إليه .

قال « الأسطى عزيز » :

- يجب أن تستفيد من الكوارث ! . . كنت أحلق اليوم لصاحب مسرح الأنوار الذي ينافس المسرح الحديث وتكلمت معه بشأنك فقال : إنه يريد أن يعرض عليك عقداً بمائة جنيه في الشهر !

قال « ابراهيم » :

- هذا المسرح رفض من بضعة شهور أن يعطيني خمسة عشر جنيهاً في الشهر !

قال «الاسطى عزيز» :

- أنت الآن شخصية مشهورة . . الناس كلها تريد أن ترى عاشق « سهير » . . إن صاحب مسرح الأنوار ينوي أن يرفع ثمن التذاكر لأنه يتوقع أن إقبال الجمهور سيكون عظيماً !

قال « ابراهيم » :

- نفس الذي حدث منذ سنوات للقروي الذي اشترى

الترام . . لقد أقام بعض النصابين سرادقاً في ميدان السيدة زينب ووضعوا القروي في السرادق فكانت الألوف تجيء وتدفع قروشاً لتتفرج على « المغفل » الذي اشترى الترام !

قال «الاسطى عزيز » :

ـ إن مصلحتك أن تنتهز الفرصة ! . . إنها وسيلتك للظهور في شارع المجد !

قال « ابراهيم » :

ـ الناس يريدون أن يروا جثة القتيل والخنجر يشق صدرها والدم ينزف منها ! لا . . يفتح الله يا « عزيز » . . أنا لا أقبل أن أُتاجر بحبي ! . .

قال «الاسطى عزيز » :

ـ مائة جنيه في الشهر ! . . إنك ترفسها بقدمك وكأنك ترمي في الأرض تذكرة ترام مستعملة ! . .

قال « ابراهيم » :

ـ إن الذي فقد قلبه لا يتألم إذا فقد مليون جنيه ! . .

قال «الاسطى عزيز» :

ـ وماذا تنوي أن تفعل ؟

قال « ابراهيم » :

ـ سأعود إلى قريتي من جديد لعلي أجد بين البقر والجاموس الحب الذي لم أجده في المدينة ! . . لعلي أنسى في الحقول ، عندما

أرى كـل شيء حولي ينمـو ، حياتي هنـا وأنا أرى كـل شيء حـولي يموت !

قال « الاسطى عزيز » :

ـ إنك يئست من أول صدمة ! . .

قال « ابراهيم » :

ـ ما أشبهك برجل يرى جثة وفوقها قطار السكة الحديد ويقول لها : شد حيلك ! . . بسيطة . . هذه أول مرة يدوسك القطار ! . .

قال « الاسطى عزيز » :

ـ إن الصدمات تصنـع الفنان الخـالد ! . . هـذه اللطمات هي أشبه بالدقات على أصابع البيانو تصنع اللحن العظيم !

قال « ابراهيم » :

ـ أنا مستعد أن أقبل الظهور على مسرح الأنوار بشرط واحد ، أن أُغـني اللحـن الـذي وضعتـه أخـيراً بـعـنـوان : « الـقـلـب المحطم » ! . . وفي هذه الحالة يكفيني خمسة عشر جنيهاً في الشهر ؟

قال « الاسطى عزيز » :

ـ خمسة عشر جنيهاً فقط ؟ . .

قال « ابراهيم » :

ـ نعم . . إنني الآن أُغنيه لنفسي مجاناً ! . . ولا مانع أن أُغنيه للناس كل ليلة بخمسين قرشاً !

ويبدأ « ابراهيم » يدندن الأغنية «للاسطى عزيز » . .

* * *

ثم نـراه على مسرح الأنـوار والجماهـير تسمع « ابـراهيم » يغني أنشودته الدامية . . ثم نرى الناس يمشون في الشوارع ويرددونها . . ثم نرى عربات الترام ، وعربات الكارو ترددها . .

ثم نرى فلاحاً صغيراً في قرية يسوق أمامه جاموسة وهو يناجيها بأغنية « ابراهيم » . . ويتتابع ظهور صـوره في الصحف . . . كأنها النتـائج المعلقـة في الحائط . . إنها صـورة « ابـراهيم » عـلى عمـود واحـد . . ثم على عمـودين . . ثم عـلى ثـلاثـة أعمـدة ، ثم تملأ الصحيفة كلها !

واستمر « ابراهيم » ينتقل من نجاحٍ إلى نجاح . . وكان هـذا النجاح أشبه بالمرهم على جراح قلبه ! . . إنه لم يشفهـا وإنما خفف بعض آلامها ! . . ولكن . .

« ابراهيم » لم يحاول أن ينتقم من « سهير » . . كان يحبها وكان يكرهها ! . . كان يحب ماضيها معاً ، ويمقت حاضرهما معاً ، وكان يسعده أنه انتصر عليها في معركة الفن ، وكان يشقيه أنها صرعته في معركة الحب . وكان يقاوم بقايا حبها في قلبه . . كان يحاول أن ينسى قصته معها ! . . ولكن كيف ينساها وهي قصة حياتـه . . إنها هي سبب شقائه وسعادته . . سبب هوانه ومجده . . سبب عذابـه الذي أدمى قلبه ، وسبب هنائه بأن شق طريقه إلى المجد !

وكـان يحكم بإعـدام حبها في قلبـه ، ولكنـه لا يجـرؤ أن ينفـذ الحكم ! . . كان يحاول في بعض الأحيان أن يخدع نفسه ويقول : أن « سهـير » مغفلة ! . . لـولا تغفيلهـا لما طـردتـه من الجنــة . . ثم اكتشفت بعد ذلك أنه أخذ الجنة معه ! . . ولولا غباؤهـا لما داست بحذائها على قلبه . لقد كان مستعداً أن يقدم لها حياته ، أن يكرس

قلبه لحبها ، أن يمنحها أيامه ولياليه . . ولكنها هـزأت بكل هـذا . فعلت به ما تفعله أية طفلة صغيرة بعروستها ، تقبلها ، وتمشطها ، وتدللها وتحميها ، وتصنع لها أجمل الملابس ، ثم فجأة تزهد الطفلة في عـروستها ، فـتروح تخلع مـلابسهـا ، ثم تشـد أذرع العـروسـة وأرجلها حتى تنفصل عنها ، ثم تقطع رأسها ، ثم ترمي كل هذا في سلة المهملات عندما ترى عروسة جديدة !

وتستبد به الغـيرة فترة . . ويسـائل نفسـه : من هي العروسة الجـديدة التي تلهـو بها « سهـير » الآن كـما لهت بـه ، ويمضي يتتبـع أخبارها ، ويسرق أسرارها ، ولكنه لا يجد غريماً يركـز فيه كـراهيته ومقتـه ! . . إنه يـريد أن يجـد العدو الـذي يهاجمـه ، فلا يجـد هذا العدو ! . . إن البصمات في جريمة مصرع حبه هي بصمات « سهير » وحدها ! . . إنها المجرمة ، والقاتلة ، والمحـرضة في شخصٍ واحد ! .

ثم شعر « ابراهيم » أن « سهير » تأخذ منه كل حياتـه . . إنه لا يفكر إلا في حبها وكرهها ! . . . ولا يستطيع أن يقـاوم شبحها الـذي لا يفارقه . . وهو شبح غريب . . امتزجت فيه عواطف « ابـراهيم » هذا الحب يبدو لحـظة كملاك ثم ينقلب إلى شيـطان . . ترتسم عـلى شفتيـه ابتسامـة بيضاء ، ثم تتحـول إلى ضحكة صفـراء . . يعانقـه ويخنقـه . . يقبله ويطعنـه . . يغني له ويصرخ فيـه . . وأخيراً اقتنـع بنصيحة « الاسطى عـزيز الحـلاق » وهي أن يستفيد من الكـارثة . . أن يحوِّل التقهقر إلى انتصار ، أن يحول دموعه من صفحة الخسائر إلى صفحة الأرباح ! . .

ومضى « ابـراهيم » يعمل ويكـافح . ولم يلبث العـرق أن حل مكـان الدمـوع ! . . وتحولت الزفرات ، والتنهـدات ، والأنـين إلى

أنغام ! . . وشق « ابراهيم » طريقه في زحام شارع المجد . . لم يكن أكفأ الملحنين وإنما كان أصدقهم . . فتح قلبه للناس ففتحوا له قلوبهم . . غنى لنفسه فشعر الناس أنه يغني لهم !

بكى من قلبه فبكوا معه ، وبكوا له ! . . ولم ينزل « ابراهيم » إلى الناس . . لم يستجدِ عواطفهم . . أبى أن تكون ألحانه رخيصة وأحس الناس أنه يبكي في كبرياء ! . . وأنه عاشق مجروح ولكنه لم يسقط ! . . قهره الحب فلم يرفع الراية البيضاء ، وإنما مضى يبني نفسه بيد ، ويده الأخرى تغطي روحه المضروبة بالخناجر والسكاكين !

إنه غيَّر صورة الحب في أذهان الناس . . لم يعد الحب ذلاً وهواناً ، وإنما جعل الحب لأول مرة يقاوم . لم يبد كعاشق سلم سلاحه ، وإنما كعاشق جريح لم يسقط السيف من يده أبداً !

وراح الناس يرددون أغانيه . . إنها ليست صورة حياتهم وإنما صورة أحلامهم ! . . كل هؤلاء المهزومين يبحثون عن مهزوم مثلهم يقاوم لهم ، ويأبى الهزيمة ، ويرفض الذل والهوان !

كان يبكي بدموع الرجال لا بصراخ النساء ! . . كان أشبه بمغنٍ يحاول أن يتم أنغام حزنه حتى لا يعرف الناس بشقائه وعذابه وضناه ! . . ولكن الناس كانوا يرون دموعه بغير أن يذرفها ، ويسمعون آهاته بغير أن ينطقها ، ويخرجون مناديلهم ليجففوا الدم الذي يتدفق منه بغير أن يروا قطرات الدم تلطخ قلبه المصروع

وكان الناس يمشون في مواكب الحب وكأنهم يمشون في جنازات !

كانت أغاني الحب قبل « ابراهيم » هي دموع اليائسين ، وأنات الفاشلين ، وزفرات المهزومين !. وجاء « ابراهيم » يجعل الحب الجريح أشبه بمعركة في حرب . . الألحان ليست أنيناً ، وإنما هي طبول قتال !. وصرعى الحب لا يموتون وإنما ينسحبون . . وكلمات اليأس اختفت من شفاه المحبين ، وجاءت مكانها كلمات كلها كرامة وعناد وإصرار ! . . إن « روميو » في فلسفة « ابراهيم » لا ينتحر حزناً على « جولييت » . إنه يمضي يبحث عن « جولييت » جديدة في ملايين النساء ! . . يجد عينيها في واحدة ، وشفتيها في الثانية ، وروحها في الثالثة ، وجمالها في ألوف أخريات ! . . إن المجنون لا يفقد عقله لأنه فقد « ليلى » ، وإنما يحول قصيدته التي يؤبن بها حبه إلى نشيد ، ويؤلب الشعوب ، ويحشد الجيوش ، ويهاجم القصر الذي سجنت فيه « ليلى » وينتزعها من سجانيها ، ويمشي الحب المنتصر وكأنه قائد تتقدمه طبول المنتصرين ! .

وإذا بالنغمة الجديدة يعزفها الملايين ، ويغنونها ، ويصفرون ألحانها ، ويجدون فيها النور الجديد في ظلام يأسهم وذلهم وهوانهم وهزيمتهم ! .

وإذا بالناس تتحدث عن « ابراهيم » كبطل ! . . إنه فك قيود عواطفهم التي عاشت ألوف السنين في زنزانة اليأس وفي أغلال المغلوبين ، إنه حررهم من أغان ضعيفة مخنثة مقهورة ورثوها عن كتاب الموتى الذي تركه قدماء المصريين ، وامتزجت بها آلام ألوف السنين من الطغيان والاستبداد والاحتلال. ثم جاء هذا الشاب الصغير فحول هزيمة الحب إلى انتصار ، ودموع الأرغول إلى دقات الطبول ، وأنين الباكين إلى صيحات الغالبين . . فلا عجب أن نظر

الناس إلى « ابراهيم » ، « كغازي » للموسيقى . لم يفتح مدناً ولا دولاً ، وإنما فتح قلوب الملايين . . طرد منها اليأس والذل وأعاد إليها العزة والاصرار ! .

وكانت مقطوعات « ابراهيم » الغنائية تبدأ ضاحكة ، ثم تبكي ، ثم تتحول الهزيمة إلى قتال جديد وتقهر البكاء وتصر على الابتسام ! . . تبتسم للخطوب . . تضحك من الأخطار . . تهزأ من اليأس والعذاب . . وكانت تبدو في بعض الأحيان كتاريخ الأمة التي يعيشها هؤلاء الناس . . فيها الماضي العظيم ، ثم بعد ذلك انهيار المجد وتحوله إلى أنقاض ، ثم بناء هذا المجد من جديد ، طوبة فوق طوبة ، وحجراً فوق حجر . . وهكذا يبدأ اللحن راقصاً ، ضاحكاً ، حياً ، عالياً ، سريعاً ، ثم تبطىء النغمات وتضعف ، وتئن ، وتبكي ، وتموت ، ثم نجد النغمة الميتة تتحرك ، كأن الروح عادت إليها ، ثم ترتفع ، ثم تعلو ، وتعلو إلى أن تملأ الدنيا بالنغم الراقص من جديد ! .

ولم تكن ألحان « ابراهيم » تجاوباً مع قصة بلاده فقط ، وإنما كانت تجاوباً مع روحه . إنها قصة روحه أيضاً ! بدأت تغني ثم أصبحت تبكي ! . . بدأت ترقص ثم هوت لتموت . رفعت رأسها ، ثم انكفأت على الأرض مهزومة مقهورة ، وهو يضيف إلى هذه النهاية البشعة آماله وأحلامه ، فيرفع روحه من الأرض ، ويعلو بها ويعلو إلى أن يدوي صوت أنغامها في السماء! .

وكان نقاد موسيقاه يترجمونها على أنها قصة صراعه مع « سهير » ! . . أو قصة آدم وحواء . . وكانوا يقولون أن هذه الأنغام

أشبه بخطابات غرامية يبعث بها العاشق المهجور إلى عشيقته الغادرة على ألسنة الملايين !.

ولكن « ابراهيم » في قرارة نفسه لم يكن يفكر أن « سهير » هي خاتمة اللحن كما هي بدايته . . كان يشعر أن الخاتمة سوف تضعها امرأة جديدة مجهولة ، ملاك من السماء ، صوت بعث جديد جاء إلى هذه الأنغام المتساقطة فيرفعها ، ويجفف دموعها ، ويقوي ضعفها ، ويسندها ثم يدفعها لترقص رقصة الانتصار !. .

ولم يلبث « ابراهيم » أن شعر أنه صاحب مدرسة جديدة في الموسيقى ! . . كانت الدموع أعلاماً منكسة في أيدي العاشقين ، فجعلها رايات مرفوعة في مواكب المحبين ! . . وإذا بالمجتمع كله يتأثر باللحن الجديد . . كنت تمشي في الشوارع فتجد الناس في الماضي يمشون على أنغام مجهولة كأنها موسيقى الجنازات ، وإذا بهؤلاء الناس أنفسهم يمشون وكأنهم يرقصون ! . . كانت الوجوه كالحة يائسة شقية ، وكأنها كلها أعمدة متجاورة من صفحة الوفيات في صحيفة يومية ، والتجاعيد في وجهها شارات السواد ، ثم إذا بهذه الصفحة يختفي منها السواد ، والحداد ، ويتحول العبوس إلى ابتسام وضحك وأحلام ! . .

وتأثر الشعر باللحن الجديد ! . . اختفت الأطلال في القصائد ، وتحدثت عن العمارات ! . . لم تعد القصيدة تعبر عن خرابة قلب ، وإنما هي تغني ببناء روح جديدة !

وانفعل النحاتون والرسامون باللحن الجديد ، وكأن « ابراهيم » أصبح رسولاً جديداً للفن يحمل إليه الدين الجديد !

وانتصبت قامة التماثيل ، وتحركت رؤوسها إلى أعلى ، ولم تعد على شفتيها صورة المعذبين والمقهورين واليائسين !

وهكذا كانت « سهير » أشبه بالماضي الذي يندثر ، و « ابراهيم » هو المستقبل الذي يزدهر ! . . كانت « سهير » هي قطرات الدم التي تنسكب من المرضى المجروحين ، وكان « ابراهيم » هو حمرة الدم في وجوه الأصحاء السعداء!

ولم يكن طريق « ابراهيم » في شارع المجد سهلاً ! . . كانت الأشواك فيه أكثر من الورود ، والمطبات أكثر من الأرض المنبسطة ، والحفر أكثر من الأرضية ! . . ومعاول الهدم أكثر من قبلات الإعجاب ! .

ولكن « ابراهيم » وجد حوله فريقاً من الكتاب الشباب . . رأوا في موسيقاه تعبيراً عن إحساساتهم وأحلامهم وآمالهم ، فوقفوا بجواره يحاربون معه ، ويتلقون الطوب الذي يلقيه عليه الفاشلون والحاقدون وتلاميذ مدرسة السخط واليأس والهزيمة والهوان !

وحاول خصوم « ابراهيم » أن يجدوا في « سهير » العلم الذي يرفعونه في وجه التيار الجديد ! . ثم وجدوا هذا العلم خرقة مهلهلة لا تصلح أن ترفع في معركة ! . .

إن « سهير » خذلتهم ! . . لقد جعلتها حالتها النفسية تمثالاً للهزيمة والفشل ! . . كانت أشبه بخرابة تحاول أن تنافس عمارة ! أو بكفن يحاول أن يسرق الأنظار من ثوب جديد ! . .

ولم تشعر « سهير » أبداً بأنها تحقد على « ابراهيم » . كان قلبها يحارب معه ويحارب له . . كانت تقول لنفسها أن أيامها الحلوة معه

تساوي سنين العذاب والشقاء ! كانت تؤمن بأنها قامت بعمل نبيل ، وأن الله بارك « لابراهيم » لأنه لم يتخل عن زوجته المريضة بالسل ، ولو أنها تزوجته وتركته يدوس على زوجته الأولى لما فتح الله له الطريق في شارع المجد !

وفي لحظات إفاقتها القليلة من السكر كانت تشعر بفخر ، وكأنها اشتركت في بناء هذا المجد ! . . قد لا تكون هي التي حملت الأحجار لتبني الهرم ، ولكنها على الأقل كانت مانعة الصواعق التي حمت الهرم من غضب الله !

وفي لحظات أخرى كانت تغمض عينيها لتحلم ، وتتخيل نفسها إلى جوار « ابراهيم » وهو ينعم بهذا المجد العظيم . كانت تتمنى لو شاركته في التصفيق والهتاف الذي كان يدوي به شارع المجد ، وينتقل صداه إلى كل بيت وإلى كل شارع وحارة وزقاق ! .

ثم تعود إلى كأسها لتشرب ، وترى في قاع الكأس صورة « ابراهيم » فتسرع في ارتشاف الكأس ، لتصل إلى « ابراهيم » فلا تجد إلاَّ الثمالة ، وتعود وتملأ الكأس من جديد لترى فيها صورة « ابراهيم » !

ورضيت « سهير » بالهزيمة ولم تشأ أن تقاوم ! . . كان يعزيها أنها هزمت نفسها ! . . كان يعزيها أنها فضلت الشرف على النصر ، وأن رُبَّ هزيمة مع الشرف خير من نصر بلا شرف ! . . إنها تخلت عن حقها في الانتصار من أجل امرأة مهزومة . . إنها فعلت ذلك لترضي صوتاً مجهولاً في قلبها يقول لها : « إن الله لا يرضى عن امرأة تخطف زوجاً من امرأة مريضة ! » .

ولكنها بعد أن تخلت عن الرجل الذي أحبته شعرت أن الناس تخلوا عنها ! كأن « ابراهيم » كان هو الناس ! كان صوتهم . . كان هتافهم . . كان إعجابهم . . وعندما ذهب « ابراهيم » ذهب كل هذا معه !

وكأنه أخذ معه الدنيا!
بل كأنه أُخذ معه رحمة الله !

وكانت « سهير » ترتعد لهذا الشعور . وتنظر إلى سقف الغرفة ، وإلى جدرانها وكأنها تبحث عن الله !

ثم تتذكر زجاجة الخمر التي أمامها ، والكأس التي تحتضنها أصابعها العشر ، فتسرع تخفي الزجاجة والكأس تحت المقعد ، كأنها تخشى ألا يجتمع الله بها في مكان فيه خمر !

وتعود تنظر إلى سقف الغرفة وإلى جدرانها وتصيح :
ـ يا رب . . يا رب . . يا رب !
ولا تسمع جواباً ! .

وتبكي ! . . إن الله لا يسمعها ! إنه وحده الذي يعرف ما فعلت ، وكيف ضحت . . ولكنه لا يريد أن يرحمها ! ولا يريد أن ينهي عذابها . .

ثم تمد يدها تحت المقعد من جديد ، وتخرج الزجاجة ، ثم تخرج الكأس ، ثم تشرب من جديد . .

ولا تفيق إلاَّ على صوت خادمتها تنبهها إلى أن موعد رفع الستار اقترب ! . . فتفتح عينيها وكأنها تخرج من كابوس لتدخل في كابوس جديد . .

وترى الجماهير الغاصة أمام المسرح الحديث وهي تتناقص ، والجماهير القليلة التي أمام مسرح الأنوار تتزايد . .

ثم ترى يافطة « كامل العدد » تطير في الهواء من المسرح الحديث وتستقر على شباك التذاكر في مسرح الأنوار . .

ثم تشهد عمال الاعلانات وهم يحملون السلالم ويلصقون صورة « ابراهيم » فتغطي صورة « سهير » الموجودة في الاعلانات الأولى . .

ثم ترى اسم « ابراهيم » والأضواء الكهربائية المحيطة به تتزايد ، وتتضاعف ، بينما الأنوار التي تحيط باسم « سهير » تخبو وتضعف وتموت حتى لا تبقى سوى لمبة أو ثلاث لمبات !

وقفت « سهير » تغني على المسرح الذي شهد أمجادها وعاش أدوارها . كم اهتزت جوانبه من دوي التصفيق والهتاف . كم شاهد من عيون تملؤها الدموع . كم ارتفعت الآهات وغطت على صوت الموسيقى . كم رأى من جماهير تدخل على أطراف أصابعها في خشوع كأنها تدخل معبداً . كم حدثت معارك أمام الأبواب لأن ألوفاً لا يجدون تذاكر الدخول . كم بيعت تذاكر في السوق السوداء ؟ .

ولكن المسرح لم يتغير ، إنه هو . . هو . . بستائره ومقاعده وأحجاره . ولكن المقاعد لم تعد تزحم الممرات . إن رجلاً كان يجلس وقد وضع معطفه على كرسي وطربوشه على كرسي آخر . وسيدة خلعت معطفها ووضعته على مقعد بجوارها . إن بضعة صفوف « ملآنة » ولكن نظرة سريعة إلى الصفوف الخلفية وإلى البناوير والألواج تؤكد أنها خالية ! .

وكانت « سهير » هي . . هي . . بملابسها الأنيقة التي ظهرت بها قبل ذلك . الأنوار تحيطها من كل جانب . ولكنها تبدو شاحبة ، وعندما تغني نجد صوتها يختلف مع صوت الموسيقى ، ونجد رؤوساً تتمايل . . ووجوهاً تتثاءب . . ورجلاً ينظر إلى الساعة ثم يغادر مقعده . .

ثم نجد « سهير » واقفة على المسرح في يوم آخر . تقوم بنفس الدور . تمثل نفس الرواية . ولكن عدد المقاعد الخالية يزداد . . وعدد الذين ينظرون في ساعاتهم يزداد . . وعدد الذين يخرجون أثناء الغناء يتضاعف . .

ونرى « سهير » وهي تزداد شحوباً . إن المكياج والألوان والأضواء لم تستطع أن تحمي جمالها وأن تعيد نضارة بشرتها ، ولا لمعان عينيها . .

وتبدأ « سهير » تغني ، ثم ترى بعض الجالسين يغادرون أمكنتهم ، وعندئذٍ تموت الكلمات على شفتيها . . تتحرك شفتاها بغير صوت . . وتتلفت حولها في ذعر . . وتضع يدها على رقبتها ، وكأنها تبحث عن حنجرتها ، كأنها تريد أن تطمئن إلى أن الحنجرة الذهبية لا تزال في مكانها . . .

وتعود الموسيقى تعزف الدور الغنائي من جديد ونسمع الناس يضحكون . . ونسمع صوت « سهير » يغني أغنية ضاحكة وكأنها تنهدات ، كلماتها باسمة ولكن صوتها فيه دموع . . اللحن راقص وصوت « سهير » كأنه يشيع جنازة . .

ونسمع الناس يضحكون . . ويتبادلون عنها النكت

والقفشات !. . ونعرف من هـذا أن الملك نزل عن عـرشه !. . أن الإله تحول إلى صنم !. . أن المعبد المقدس أصبح تياترو ، ليس فيه مسرح واحد تتجه إليه العيون . بل كل شيء تحول إلى مسرح الألواج والبناوير والمقاعد . المتفـرجون يتفـرجون عـلى بعضهم ، السيدات يتثاءبن . ولد صغير يبكي فتضحك الناس وترتفع أصوات تقول : هس !. . وترتفع أصوات تقول : اسكت . . و« سهـير » المسكينة تحاول أن تسيطر على الموقف فلا تستطيع .

* * *

ومرت الأيام . .

وما أتعس أيام الفاشلين ! . . إنها تمضي كئيبة متثاقلة كأنها تشيع جنازة . أيام بلا أحلام . ليس فيها شعاع للمستقبل ، وإنما كلها فعل ماض ! . . ما أشبه الذين وصلوا إلى القمة ثم هووا منها ، بأولئك الذين يعيشون في المقابر ! . . إنهم يحاولون أن يجدوا تحت الأنقاض أحبابهم وضحكاتهم وحياتهم المدفونة تحت التراب ! .

وهكذا كانت « سهير » ! . . وكانت القبور التي حولها هي صورها أيام مجدها !

وكانت تزور هذه القبور كل يوم ، وتحاول أن تعيش في ماضيها العظيم ، وكان التصفيق البعيد يدوي في أذنها ، وكانت هتافات الجماهير تصل إليها كأنها أصوات انطلقت من ألف سنة ولا تزال موجاتها تعيش في التاريخ ! ولكنها أصوات موتى ، وليست أصوات أحياء ! .

وكانت « سهير » تكره الغروب ! كان قلبها ينقبض ، ونفسها تتشاءم ، ولعلها كانت ترى في صورة الغروب المتكررة غروب مجدها العظيم ! إنها كانت يوماً شمساً مشرقة ، ثم غابت ! ولكنها تختلف عن الشمس لأن الشمس تشرق في اليوم التالي ، أما هي فإنها لم تعد تشرق ! . . إنها تغيب كل يوم ! .

وكانت تشعر بقلق وعذاب وهي ترى النهار يحتضر أمامهـا . . ونـور الشمس ينـطفىء رويـداً . ثم تـرى النــاس يتحـولــون إلى أشباح . . والمباني الضخمة الزاهية تتحول إلى لون التراب ، ثم تجد السماء نفسها غيرت لونها وملأت الدنيا ظلاماً وسواداً ! . . وترتجف « سهير » من هذا الشعور الأسود ، وتحاول أن تغمض عينيها لكيلا ترى الغروب ! . . ولكنها مع ذلك تراه في قلبها ، وفي رأسها ، وفي داخل جفونها المطبقة ! فالغروب له شعاع قوي كشعاع الشروق . إن الأول هو شعاع الموت ، والثاني هو شعاع الحياة ! وكل شعـاع منهما قادر على أن ينفذ من خلال القضبان والأسوار!

وتحس « سهـير » في ساعـة الغروب بـوحـدة قـاتلة ! تنـظر إلى الشوارع فتجد أنها خلت فجأة من الناس ، كأن الأرض ابتلعتهم ! لماذا تخلو الشوارع في لحظة الغروب ؟ . . أين يذهب الناس في تلك اللحـظة ؟ . . لعل النـاس كلهم يكرهـون الغروب كـما تكـرهـه ، ويختبئون منه كما تحاول أن تخبىء نفسها داخل جفونها المغمضة .

وتتطلع « سهير » من جديد إلى الغروب ، تنتفض من جديد ، إنها تذكر فجأة الموت ! . . الغروب في نظرها هو الموت ! . . إنه أنواع وأشكال من الموت ! . . وتحس كأن أشياء كثيرة فيها تموت أو بدأت تموت ! . . وتتحسس قلبها ! إنه لا يزال يدق ! . . ولكنها دقات لحن الجنازات ، لا زغاريـد الميلاد ! . . ثم تشعـر « سهير » أنها تمشي في طـريق طويـل يؤدي إلى النار ، ولكن عـزاءها أن هـذا الطريق إلى جهنم مرًّ بالنعيم ! وهنا تعلو ابتسامـة وجهها الحـزين ، إنها تتذكـر وهي في طريقها إلى جهنم العذاب والحرمان والنسيان ، تتذكر الأيام الحلوة القليلة التي أمضتها في جنة الهـوى بجوار « ابـراهيم » . إنها

وهي تنحدر إلى هاوية الوحدة تتجه بذاكرتها إلى أيام كانت في القمة مع حبيبها تنعم بأسعد ساعات الحياة . .

ويشرق وجهها بالسرور ، وفجأة يشحب وجهها ، وينطفىء السراج الذي اشتعل فجأة في قلبها . . وتعود إلى الظلام مسرعة كأنها خافت من ذكرى النور . . تماماً كما نفعل نحن عندما ننتقل فجأة من ليل أسود إلى نور ساطع مبين ! ويعود إليها مع الظلام القلق والهواجس والمرارة ، وتمد يدها إلى صديقتها الوحيدة ، هذه الكأس التي امتزجت فيها الخمر بالدموع ، وتمسك الكأس وتحاول أن ترى دموعها المتساقطة فإذا هي ذابت في كأسها ، وتبهجها هذه الحقيقة ، وتقرب شفتيها من الكأس كأنها تقبلها شاكرة ، ثم تشرب وتشرب . . وتشرب . .

وتجيء الخادمة تذكرها بموعد المسرح فتنهرها ، وتشتمها ، وتتحمل الخادمة المسكينة الاهانات التي تعودت عليها فلم تعد تؤثر فيها ، وتنحني على قدميها وتضع فيهما الحذاء اللامع ، وتساعدها في ارتداء ملابسها ، وتتقدم إليها تسندها إلى الباب وهي تترنح ، وتردد كلمات من رواياتها مع مزيج من الشتائم التي ترمي بها خادمتها الأمينة . . ثم تنزل « سهير » متكئة على ذراع الخادمة إلى السيارة ، وتصيح في السائق أن يتركها تقود السيارة . وتحاول الخادمة أن تقنعها بأن تأخذ السائق معها . وتصرخ « سهير » غاضبة . إنها ليست مخمورة ! . . ثم ماذا يحدث لو كانت مخمورة ؟ . . سوف تصطدم سيارتها وتموت ! . . ليتها تموت في حادث سيارة ! .

وتدفع « سهير » الخادمة ، وتقفز إلى السيارة ، وتعدو بها في الشوارع المظلمة ، وتسير السيارة وكأنها امرأة مخمورة ، تندفع إلى

اليمين وإلى اليسار ، وتدق على النفير في حركات عصبية مجنونة . .
ثم تقف « سهير » بسيارتها على باب المسرح المخصص لدخول الممثلين والممثلات . . ويسرع إليها صديقها القديم « منير بك » ! إنه الوحيد الذي بقي على إخلاصه من العشاق والمعجبين ! . . إنه فشل في أن يحصل عليها ملكة ، وهو يحاول اليوم أن يحصل عليها جثة ! إنه لم ييأس أبداً ، لم يكن يحب حاضرها وإنما كان يحب ماضيها ! . . كانت بالنسبة إليه لا تزال ملكة ! ولا يهمه أنها ملكة بلا عرش ! . . ولا يشقيه أنه أصبح فارساً بلا منافسين ! . . إن كل ما يهمه أنه وصل إلى القطار ! . . صحيح أنه لم يلحقه وهو يعدو ، ولكنه على كل حال وصل إلى القطار بعد أن انزوى في المخزن مع العربات التي أحيلت على المعاش ! .

وينظر « منير بك » إلى ساعته ويقول :

ـ إنك تأخرت يا « سهير » !

وتضحك « سهير » ساخرة وتقول :

ـ هل المسرح « كومبليه » ؟ . . هل علقوا يافطة « العدد كامل » على شباك التذاكر ؟ . .

ويهز « منير بك » رأسه أسفاً !

وتضحك « سهير » وتقول :

ـ دعهم ينتظروا !

ويفتح « منير بك » باب السيارة ويدعوها إلى النزول ، ولكن « سهير » تبقى جالسة فيها وترفض أن تغادر باب السيارة . .

ويدخل « منير بك » رأسه من نافذة السيارة فيشم رائحة الخمر تفوح من « سهير » . . فيقول لها :

ـ أنت سكرانة يا « سهير » ؟! . .

وتدفعه « سهير » بيدها وتقول غاضبة :

ـ سكرانة ؟! . . أبداً ! . . أنا مبسوطة . . مبسوطة قوي . . قوي . . قوي ! . . مبسوطة لدرجة أنني لا أريد أن أمثل الليلة ! لا أريد أن أصعد على المسرح . أريد أن أرقص لنفسي . أريد أن أغني لنفسي ! . . إنني أكره الناس ! . . لا أريد أن أراهم ! . . إنهم ناكرون للجميل ! . . إنهم نسوا في شهور ما صنعته لهم في سنين ! . . إن لهم في كل يوم إلهاً جديداً ! . . كل يوم لهم معبود جديد ! . .

وتشهق « سهير » ، ثم تمضي تقول:

ـ الناس لا يحبون أن يسكنوا البيوت القديمة حتى ولو كانت قصوراً ! . . إنهم يفضلون كل شيء جديداً . . و « ابراهيم » الآن هو العمارة الجديدة ! تماماً كما حصل ! . . كان فندق الكونتننتال هو أكبر فندق ، وكان الناس يتباهون بالجلوس فيه ثم بنوا فندق شبرد ، فنسي الناس الكونتننتال ، وهم اليوم يمرون عليه ويقولون :

ـ فاكر ده اسمه ايه ؟ اسمه ايه ! آه . . اسمه الكونتننتال !

ويمسك « منير بك » يد « سهير » ويحاول أن يجذبها إلى الخروج من السيارة ، ولكن « سهير » تدفعه بعنف وتقول له :

ـ تعال أنت ! . . ما رأيك في مغامرة ! . . ألا تريد أن تمضي ليلة كاملة معي ؟

ويصعق « منير » ! . . ليلة معها ! . . لقد كان يحلم طوال السنين بأن يمضي ساعة واحدة بجوار نجمة الجماهير . . ولكنها الآن تعرض عليه ليلة كاملة ! .

وترى « سهير » ذهول « منير »، فتنظر إليه نظرة كلها إغراء ومجون وتقول له هامسة :

ـ نعم ليلة !. . ليلة بعيداً عن الناس !. . ليلة كاملة !. . ليلة أنا وأنت فقط . . نسافر الآن بهذه السيارة إلى الاسكندرية ، ونزور الكباريهات فيها ، ونرقص ونغني ونعود في الفجر . .

ويتردد « منير » ، ويتساءل في صوت مبحوح :

ـ والزبائن المنتظرون في المسرح ؟. .

وتجذبه « سهير » من يده وتقول ضاحكة :

ـ هاتوا لهم بطاطين ومخدات !. .

ويتذكر « منير » أن « سهير » سكرانة !. . فيقول لها:

ـ طيب . . بشرط أسوق أنا !. .

وتترك « سهير » مقعد القيادة « لمنير » . . وتمضي السيارة في الطريق الصحراوي إلى الاسكندرية ، و« سهير » تضحك وتغني ، وتقول مقلدة صوت مدير المسرح :

ـ نأسف كثيراً لأن الآنسة « سهير » أصيبت بمرض مفاجىء ولهذا سوف نعيد لكم ثمن التذاكر !

ثم تصاب « سهير » بالزغطة وتقول :

ـ أصيبت الآنسة « سهير » بالزغطة !. .

ويمد « منير » ذراعه حول كتف « سهير » ويربت عليها في عطف ويقول :

ـ أنت تشربين كثيراً يا « سهير » !

وتضحك « سهير » ساخرة وتقول :

ـ أنا لا أسكر من الخمر !. . إنني أغرق آلامي في الكأس ! إن

الخمـر هي نـوع من صبغـة اليـود أو « الميـركـروكـروم » أدهن بهـا جروحي!

ويتنهد « منير » ويقول:

ـ ولكن جروحك لا تشفى! . .

ووضعت « سهير » يدها على قلبها ، وكأنها تتحسس جـروحها وهزت رأسها في أسى وقالت:

ـ من قال أن الخمر لا تشفي الجروح ؟! . . ربما أن الخمر هي المغشوشة ! . . أو ربما جروحي هي المغشوشة فـلا تنفع فيهـا الخمر الثمينة ! . .

وقال لها « منير » بحنان:

ـ ولكن واجبك نحو الناس ! . .

واستدارت نحوه وشفتاها ترتعدان:

ـ واجبي ؟! . . أنا ضحية الواجب ! . . لو كان الناس يقدرون لأعطوني نيشانـاً ! . . نوط الـواجب ! . . ولكنهم لا يقدرون . . لا يفهمون ! . . لا يشعرون ! . .

ومسحت « سهير » عينيها بطرف كم فستانها الأنيق ، وكـأنها تحاول أن تخفي في الكم الدموع التي ملأت عينيها ! . .

وبقي « منير » صامتاً برهة . وكان في نبرات صوت « سهير » ما فتنه وما أفزعه ! . . ما أغراه ، وما أخافه ، واتجه « منير » بنظراته إلى الطريق ، وداس على البنزين ، وتمتم وكأنه يحدث نفسه :

ـ إنكِ لا تزالين تحبينه ! . .

وشهقت « سهير » بالبكاء وراحت تقول:

ـ أنـا أحبه ؟ . . من هـو ؟ . . أنا أحب الـويسكي ! . . أحب الشامبانيا ! . .

وازداد وجـه « منـير » شحـوبـاً ، ومضى ينـظر إلى الـطريق الصحراوي الذي يبتلع السيارة المندفعة ثم قال في هدوء :
ـ إنك تحبين « ابراهيم » !

وصرخت « سهير » وكأن « منير » أغمـد خنجراً في صـدرها ، وصاحت غاضبة :
ـ أنا التي تركته ! . . أنا التي قلت له أخرج من الجنة !

وانفجرت تضحك ، ثم انفجـرت تبكي ، ثم راحت تضحك من جديد!

وكـانت السيـارة قـد تـوقفت أمـام كبـاريـه « الـرومـانس » في الاسكندرية ، ودخلت « سهير » الكباريه ، وهي تترنح مستندة إلى ذراع « منـير » ! . . ولم تبق في الكبـاريـه سـوى دقـائق ، وهبت واقفـة ! . . إن الجـو لم يعجبهـا ! . . إن المـوسيقى الصـاخبـة تـزعجهـا ! . . إن النـاس دمهم ثقيـل ! . . وخـرجت « سهـير » مسرعة ، و « منير » يحاول أن يلحق بها!

وركبت « سهـير » السيـارة واتجهت إلى كبـاريـه « مكسيم » . واختارت لنفسها مائدة في زاوية . وطلبت كأساً من الويسكي ، ثم ألقته على المائدة ! . . إن طعم الويسكي كالسبرتو ! . . انهم يقدمون هنا خمراً مغشوشة ! . . ويذوق « منير » كـأسه ويؤكـد « لسهير » أن الويسكي من النوع الجيد ، ولكنها انتفضت وغادرت الكباريه !

واتجهت « سهـير » إلى ناد ليـلي ثالث ! . . إنـه كباريـه « فندق

المتروبول » . . إنها تريد مكانها هادئاً بعيداً عن الناس . . وكان المكان هادئاً . . كانت أكثر المقاعد والموائد خالية ! . . وتصور « منير » أنه وفق أخيراً إلى العش الجميل الذي تهدأ فيه العصفورة العصبية ! . . وتلتفت « سهير » حولها مبتسمة لأنها وجدت مكاناً هادئاً ! . . ثم فجأة غاضت الابتسامة ! . . إنها ذكرت مسرحها ! . . إنه كذلك أصبح مكاناً مهجوراً ، مقاعده خالية ! . . إنها هربت من المسرح الخالي لتجد نفسها في الكباريه الخالي ! وقفزت « سهير » من مقعدها كأن عقرباً لسعتها . . قامت مذعورة وقد اصفرَّ وجهها ، وذهل « منير » وسألها :

ـ ماذا حدث ؟ . .

وتلعثمت « سهير » برهة . . ثم قالت :

ـ إن قلبي منقبض . . هذا المكان الخالي يقبض قلبي . . يخيفني . . إنني هاربة من مسرح الفشل في القاهرة لأجد نفسي في كباريه الفشل في الاسكندرية .

وهز « منير » رأسه أسفاً دون أن يتكلم . . ولعله ولعله كان يحدِّث نفسه بأن « سهير » قد جنت . . ولكن تحامل على نفسه ومضى يمشي وراءها إلى الباب . . وما كادت « سهير » تصل إلى الشارع حتى راحت تستنشق هواء الشارع ، وقد تألقت عيناها ببريق عجيب وراحت تصيح بصوت عال :

ـ الله . ! ما أجمل الهواء ! . . إنني كدت أختنق في هذا الكباريه الملعون ! . .

ومضت « سهير » إلى السيارة ، وجلست في مقعد القيادة ، واندفعت إلى طريق الكورنيش ، ورأت في الطريق أنواراً تنبعث من

المسرح الحديث . وأوقفت السيارة فجأة ، فأحدث وقوفها ضجة لفتت أنظار المارة في الشارع المزدحم بالناس . .

ومشت إلى باب المسرح وهي تضحك وتغني وتصفر ، وتعاكس الجنود الواقفين بالباب ، وترفع يديها بالتحية العسكرية لجندي الشرطة وهي تصيح :

ـ تعظيم سلام !

وتجلس « سهير » إلى مائدة بجوار « منير » . . وتصفق بيديها منادية الجرسون وتطلب زجاجة شامبانيا !

ومالت « سهير » على « منير » ، وهي تقول له :

ـ إنني أحب هذا المكان ! . .

وتنفس « منير » الصعداء . .

أخيراً وجدت « سهير » المكان الذي يريح أعصابها المضطربة ، وتصور « منير » أن فرصة حياته قد جاءت بعد طول الانتظار ، فقرب مقعده من مقعدها ، ثم مد ذراعه ووضعها حول الكرسي الذي تجلس فيه . إنه لم يستطع أن يعانق نجمة الجماهير سابقاً ، فلا أقل من أن يعانق مقعدها ، في حب وشوق ولهفة . . وكانت هذه أول مرة خلال هذه السنين الطويلة يشعر « منير » أنه قريب من « سهير » ! . . كان يشعر دائماً أن « ابراهيم » يجلس بينهما . ولكنه الآن فقط أحس أن جسمه ملتصق بجسم « سهير » . وصحيح أنه كان بين المقعدين مسافة قليلة ، ولكن « منير » لم يشعر بوجود هذه المسافة ، بل أنه أحس وذراعه تعانق كرسي « سهير » أنه يعانقها هي ، وأنه يسمع أنفاسها اللاهثة في أذنه كأنها أنغام موسيقى هادئة ساحرة .

ويهمس « منير » بحرارة :

ـ نحن الآن وحدنا ! تعالي نهرب معاً ! نهرب إلى أي مكان في الدنيا . .

ولا ترد « سهير » على هذه المفاجأة ، وكأنها لم تسمعها ، وإنما تتطلع إلى المسرح وفي يدها كأسها . .

وتهتز الكأس في يد « سهير » ، وتعلو وجهها الدهشة والذعر . . وإذا بها تقف فجأة والكأس في يدها ، وتشق الصفوف وهي تصرخ :

ـ فهيمة ! . . فهيمة ! . . فهيمة ! . .

ويستبد الذعر « بمنير » ، ويحاول أن يمسك بذراع « سهير » ، ولكنها تدفعه في عنف ، وتمضي تخترق المقاعد وهي تصرخ :

ـ النصابة . . النصابة ــ أنا مريضة بالسل ! . . أنا زوجة « ابراهيم » !

وتتلفت الجماهير في دهشة . . وتنتقل العيون من اتجاه المسرح إلى « سهير » وهي تترنح مندفعة نحو المسرح . . وتقترب « سهير » من المسرح وهي تزأر كأسد يتلوى من طعنات الرماح وتشير بيديها إلى إحدى الممثلات وهي تصيح :

ـ امسكوا النصابة ! . . امسكوا الكذابة . . فهيمة . . فهيمة . . فهيمة ! . .

إن « سهير » رأت فجأة على المسرح « فهيمة » زوجة « ابراهيم » ! الزوجة التي جاءت إلى « سهير » في بيتها تقول إنها مريضة بالسل ! . . المرأة التي أوهمتها بأنها تموت ، وجعلتها تضحي بحبها من أجل أن تترك « ابراهيم » لها في أيامها الأخيرة ! . . إن « سهير » لمحتها على المسرح وهي تمثل دوراً صغيراً بين

الممثـلات !.. إنها هي بلحمهـا ودمهـا !.. إنها لم تنس وجههـا أبداً !.. إنه لم يفارقها لحـظة واحدة طـوال هذه السنـين ! وأفاقت « سهير » من سكرها !.. أفاقت لترى المرأة التي خدعتها، وكذبت عليها ، وادعت أنها زوجة « ابراهيم » .. إنها تراها الآن بملابسهـا القروية !.. إنها هي التي غيرت حياتهـا ، وقضت على سعـادتها ، وأفقدتها « ابراهيم » ، وأنزلتها من عرشها !..

وكانت « سهير » تصرخ وكأنها قبضت على قاتـل !.. إن هذه المرأة قتلتها فعلاً .. قتلت حبها .. قتلت مجدها.

ومضت « سهير » تصيح وتصرخ :

ـ امسكوها !.. امسكوها !.. فهيمة !.. فهيمة !..

وتوقف التمثيل على المسرح ، ويصيح الممثلون والممثلات :

ـ لا يوجد هنا أحد اسمه « فهيمة » .

وتنزوي الممثلة التي تشير إليها « سهير » ، وتختفي خلف زملائها في رعب ، وتتقدم « سهير » إلى خشبـة المسرح تحـاول أن تتعلق بها وهي تصرخ :

ـ فهيمة .. فهيمة ..

ولكنها تعجز عن التعلق بالخشبة والقفز إلى المسرح .. فتسقط وسط ضحك المتفرجين والممثلين !

ويصيح بعض المتفرجين :

ـ سكرانة !..

ويصيح آخرون :

ـ مجنونة !..

ويتقدم بعض المتفرجين في الصفوف الأولى ويمسكونها ، وهي تحاول أن تتخلص من أيديهم وهي تصيح :

ـ أنا « سهير » ! . . أنا نجمة الجماهير ! . . « فهيمة » قتلتني ! « فهيمة » ذبحتني ! . . امسكوا « فهيمة » ؟ !

ويتحسر بعض المتفرجين في حزنٍ ويقولون :

ـ مسكينة ! . . مسكينة ! . . إنها كانت في يوم من الأيام نجمة الجماهير في مصر . . ثم هوت . . جنّت ! . . فقدت عقلها ! .

وتسمع « سهير » هذه التعليقات اللاذعة فلا تتألم ! . . إنها لم تعد تهتم بالعرش الفني الذي فقدته ، وإنما اهتمامها الأول بالحب الذي تخلّت عنه ! . . إنها نسيت في جرحها الكبير جروحها الصغيرة ! . .

وتفلت « سهير » من الذين يمسكونها ، وتعدو إلى الباب ، ثم إلى الشارع ، ثم إلى باب المسرح الجانبي المخصص لدخول الممثلين والممثلات ، وتحاول « سهير » أن تقتحم الباب المغلق ، ويتقدم نحوها « منير » يحاول أن يمنعها ، ولكن « سهير » تحولت إلى نمرة مفترسة ، وراحت تدفع باب الممثلين بقوة وعنف إلى أن انفتح ، ثم اندفعت « سهير » إلى داخل المسرح ، حيث وقفت الممثلات مذعورات خائفات من هذه المرأة المتوحشة المجنونة ، وراحت « سهير » تتطلع إلى وجوههن واحدة واحدة وتهز رأسها وهي تقول :

ـ لا . . موش دي . . لا . موش دي ! . . فين فهيمة ! . . هاتولي فهيمة ! . . أين فهيمة ؟ . .

وتقدم بعض الممثلين الذين يعرفون « سهير » وراحوا يحاولون

تهدئتها ، ويؤكدون لها أنه لا توجد ممثلة في هذه الفرقة اسمها « فهيمة » !

ولكن « سهير » لم تسمع هذه التأكيدات ، وراحت تصرخ بصوت محموم :

ـ أنا رأيت « فهيمة » ! رأيتها بعيني ! . . إنها هنا ! موجودة هنا ! أين فهيمة ؟ . أين فهيمة ؟ . .

وتبكي ممثلة حزناً على نجمة الجماهير ! . . ويشير ممثل آخر إشارة بيده ، معناها أن الممثلة الكبيرة مجنونة . .

ويدخل أحد جنود البوليس الذي استنجد به الناس لأن امرأة مجنونة اقتحمت المسرح ، ويحاول أن يقبض عليها .

ولكن الممثلين والممثلات يحاولون إنقاذ « سهير » من جندي الشرطة ، ويقولون له إن « سهير » الممثلة المشهورة تمزح مع زميلاتها الممثلات وتمثل أمامهن دور المجنونة ! . .

وفي لحظة تصدق « سهير » أنها مجنونة فعلاً ! . . إنها توهمت أنها رأت « فهيمة » على المسرح . . إنها تخيلت أنها هي بلحمها ودمها ، ولكن كل الممثلين والممثلات يؤكدون أنهم هم جميعاً الذين يمثلون على المسرح . .

وتمتلىء عيناها بالدموع ! . وتنظر إلى الممثلين الواقفين حولها في ذلة وخجل وعار ! . . وتحاول أن تعتذر لهم فلا تجد الكلمات ، ويتقدم نحوها « منير » ، ويسندها بذراعه ، ويمشي بها إلى الشارع وسط صفين من المتفرجين والممثلين الصامتين الباكين الذين أحنوا رؤوسهم إلى الأرض ، وكأنهم يشهدون نفس الممثلة الكبيرة التي كانت في يوم من الأيام نجمة الجماهير! .

وتمشي « سهير » فوق الـرصيف أمام المسـرح ، وتمر أمـام بابـه الرئيسي ، ثم تتوقف فجأة ، وتندفع إلى الفترينة الزجاجية التي تحمل صور الممثلات والممثلين ، وهي مضاءة بالأنوار !.

وتقف « سهير » أمام اللوحة المعلقة فيها صور الممثلات . . ثم تصرخ صرخة عالية وتقول :

ـ أنا لست مجنونة ! . . هذه هي فهيمة ! فهيمة !

وتضرب « سهير « الزجاج بيدها فيتحـطم الزجـاج ، ويتساقط الـدم من يـدهـا ، ولكنهـا لا تشعـر بـالـدم ، وهي تنتـزع صـورة « فهيمة » ، وتمسك « سهير » بالصورة وقد لوثت بدمها ، وترفعها في يدها تلوح بها منتصرة ، وتصيح والشرر يتطاير من عينيها :

ـ هـذه هي « فهيمـة » ! . . أنـا لست « سكـرانـة » ! . . أنـا رأيتها ! . . أين هي ؟ . . أين أخفيتموها ؟ . .

ويتجمـع النـاس من جـديـد ، ويخـرج الممثلون والممثـلات بمـلابسهم المسرحيـة إلى الشارع عـلى صوت الضـوضـاء والصـراخ والعويل ، ويتقدم مدير الكباريه إلى « سهير » وينحني أمامها في أدب وهو يقول :

ـ هذه يا مدام ليس اسمها « فهيمـة » . . إنها الآنسة جمـالات الممثلة وهي الآن في إجـازة !

وتصرخ « سهير » :

ـ أبـداً . . أبـداً ! . . أنـا رأيتهـا بنفسي عـلى المسـرح . . إنها فهيمة . . فهيمة . . سـأقتلها ! . . إنها قتلتني ! . . سـأذبحها ! . . إنها ذبحتني . .

ويتلفت مدير المسرح إلى الممثلات الخائفات ويقول لهن وهو يغمز بعينه :

ـ يا جماعة ! . . هل رأيتن جمالات هنا الليلة ؟ . .

وتصيح الممثلات :

ـ أبداً . . أبداً . . جمالات في إجازة منذ أسبوعين!

وتصر « سهير » أنها تريد أن تعرف عنوان جمالات لتذهب إليها في بيتها وتقتلها ! . .

وتصر الممثلات أنهن لا يعرفن عنوان جمالات ! . . إنها ليست في الاسكندرية الآن . . إنها سافرت إلى بلدها في الوجه القبلي!

ويقبل عدد من رجال الشرطة ، ويلتفون حول « سهير » ، ويرون أن الموقف يستدعي الذهاب إلى قسم البوليس . . ويتقدم « منير » لينقذ الموقف ، ويدعو « سهير » في عنف أن تصحبه إلى السيارة ، ويقبض على ذراعها بقوة ، ويدفعها إلى داخل سيارتها وهي تصيح :

ـ لا بد أن أعرف أين ذهبت ؟ . . لا بد أن أعرف عنوانها ! . .

واندفع « منير » بالسيارة ، و « سهير » تطل منها وتصيح . . بينما راح الواقفون في الشارع يصفقون ويهللون ، وكأنهم يشهدون بقية مسرحية ضاحكة ، وقد كانوا في الواقع يشهدون جزءاً من مأساة دامية ! .

وقطعت سيارة « سهير » الطريق الصحراوي في سرعة جنونية . وفي كل لحظة تهدد « سهير » بأن ترمي نفسها من السيارة لتعود إلى الاسكندرية لتبحث عن فهيمة ! .

ويحاول « منير » أن يقنع « سهير » أنها رأت شبح فهيمة ! أنها كانت تتوهم ! . . إننا عندما نشرب كثيراً نرى أشياء لا وجود لها ! . .

ولكن « سهير » مضت في تصميمها بأنها رأت فهيمة بنفسها !

وفجأة نامت « سهير » . . إن السكر والصراخ والعويل أفقدها يقظتها ، فراحت في نوم عميق ! . . وحمد « منير » الله على هذه النتيجة السارة ، ومضى بالسيارة إلى القاهرة ، وهو يحلم بأنه سيصحب « سهير » إلى داره ، وسيصنع لها فنجاناً كبيراً من القهوة ، وستفيق من هذا السكر ، وسوف تنسى أنها رأت هذا الشبح المزعوم !

ووقفت السيارة أمام بيت كبير ، وتقدم « منير » يحاول أن يحمل « سهير » بين يديه إلى باب شقته ، واستيقظت « سهير » وفتحت عينيها وسألته :

ـ إلى أين ؟

وقال لها « منير » باسماً :

ـ إنني أحملك إلى شقتي كما يفعل العريس مع العروس ليلة الزفاف !

ودفعته « سهير » بيدها حتى ترنح ، وكاد يسقط على الأرض وقالت له في عنف :

ـ إنك لا تصدق أنني رأيت فهيمة ؟! . .

وخشي « منير » أن يستيقظ النائمون في العمارة على صوت صياحها ، فقال لها وهو يكذب عليها :

ـ نعم . . نعم . . أنا أصدقك !

ولكن « سهير » رأت الكذب في عيني « منير » وصرخت فيه :

ـ أما أنا . . فلا أصدقك ! . . إنني أريد أن أذهب إلى الرجل الوحيد في العالم الذي سوف يصدقني ! . . إذهب بي الآن إلى « ابراهيم » ! .

وحاول « منير » أن يقنعها بأن تصعد إلى شقته لتستريح حتى ساعة متأخرة من الصباح ، ولكنها أبت وأصرت أن تذهب إلى «ابراهيم » .

وأسلم « منير » أمره إلى « سهير » تجنباً للفضيحة أمام العمارة ، وعاد الى السيارة يقودها إلى بيت « ابراهيم » . .

ووقفت السيارة أمام فيللا فخمة في الزمالك . . كان الوقت في الصباح المبكر . . وكان بواب البيت يقف أمام الباب يتمطى ، وبائع اللبن يترك وعاء اللبن ، وبائع الصحف يرمي الصحف خلف الباب . . .

وقالت « سهير » « لمنير » ، وهي تخرج من باب السيارة :

ـ انتظرني . . لن أغيب طويلاً !

ولم يعجب « منير » هذا الطلب الغريب ! . . كيف ينتظر على الباب بينما تدخل « سهير » إلى « ابراهيم » ، وقال « منير » أنه سيعود إلى بيته وينتظرها هناك لأنه متعب من الرحلة الشاقة المجنونة !

ولم تلتفت « سهير » إليه ، ونزلت من السيارة وهي تقول:

ـ خذ السيارة معك . . إن « ابراهيم » سيصحبني بسيارته.

ودفعت باب الفيللا الحديدي ، ثم راحت تقفز سلم الفيللا ، والبواب يعدو وراءها ويقول:

ـ الأستاذ نائم ! . .

ولكن « سهير » تدفع بيدها باب الفيللا التي تدخلها لأول مرة ، والتي حفظت كل ركن فيها بفضل ما قرأته في المجلات والصحف التي كانت تملأ صفحاتها بالحديث عن حياة « ابراهيم » ثم تمضي « سهير » في الصالة الفاخرة في الدور الأول ، وتصعد درجات السلم إلى الدور الثاني الذي به غرفة نوم « ابراهيم » . كل هذا والبواب يتبعها في ذهول وهي تتلفت إليه وتقول :

ـ نائم . . كيف ينام حتى الآن ؟ . .

ويقبل السفرجي على صوت « سهير » ويتقدم اليها ويقول:

ـ إن الاستاذ لا يريد أن يوقظه أحد قبل الظهر !

وتنظر « سهير » إلى السفرجي ساخرة:

ـ ولكن أنا لست أحداً ! . . أنا « الست » !

وعجب السفرجي . . إنها أول مرة يعلم أن هناك « ست » في هذا البيت ! . . إن الستات اللاتي رآهن يتغيرن ويتبدلن ، ولكن هذه أول مرة يسمع فيها إحدى النساء تسمى نفسها « الست » !

وتدفعه « سهير » في أنفة وثقة وتصميم ، وتتجه إلى غرفة النوم ، وتقتحم الباب!

وكان « ابراهيم » نائماً ، وتتوقف « سهير » لحظة تنظر إلى حبيبها في حنان ، ثم تتقدم نحو الفراش ، وتدفع « ابراهيم » في رفق ، ثم في عنف ، ويتقلب « ابراهيم » في فراشه ، ثم يفتح إحدى عينيه ، ثم يغلقها بسرعة ، كأنه عندما رأى « سهير » رأى كابوساً ، ثم يجذب الوسادة ويضعها فوق رأسه وينام من جديد! .

وتحاول «سهير» أن توقظه من جديد ، يستيقظ في تثاقل ، ويجلس في فراشه ويقول في تضجر واضح .

ـ انت سكرانة يا « سهير » ! . .

وقالت « سهير » في ارتباك :

ـ أبداً . . أبداً . . يا « ابراهيم » . .

وقـرَّب « ابراهيم » رأسـه من رأسها ، وتـوهمت « سهير » أنـه سيقبِّلها ، ولكنه أبعد رأسه وهو يقول :

ـ إن رائحة الخمر تفوح منك !

وكانت « سهير » قد أحنت رأسها كمتهم معتـرف بذنبـه ، ثم فجأة رفعت رأسها وقالت في تحدٍّ وثقة :

ـ كنت « سكرانة » وأفقت . . كنت « عميـاء » وأبصرت . . ! أبصرت الليلة فقط!

وتثاءب « ابراهيم » ثم قال :

ـ إنك جننت يا « سهير » !

وغمغمت « سهير » وقالت في حزن عميق :

ـ كنت مجنونة ! مجنونة لمدة عامين كاملين . . والآن فقط عاد إليَّ عقلي ! . . عرفت أنني أخطأت ! . . عرفت أنني أجرمت . .

ثم مدت ذراعيها نحو « ابراهيم » وهي تقول :

ـ سامحني يا « ابراهيم » ! . . اغفر لي يا « ابراهيم » . . .

وراح « ابراهيم » يدعك عينيه بيديه ليغالب النوم ويقول :

ـ حلم . . أم كابوس؟

وضمته « سهير » إلى قلبهـا بقوة ، وأحست أن قلبهـا يخفق مع قلبه ، وشعر « ابراهيم » بأن عطرها الذي يحبه انساب إلى أنفه ، ثم

مـلأ روحه ، ولكنـه ارتجف عندمـا اختلطت رائحة اليـاسمين التي تنبعث من صدرها ، برائحة الخمـر التي تفوح من فمهـا ، وخلص نفسه من ذراعيها وراح يردد كلمة :

ـ كابوس ! . . كابوس ! . . كابوس ! . .

ولكن « سهير » قالت وصوتها يختنق بالبكاء :

ـ انتهى الكابوس يا « ابراهيم » ! . . نحن الآن في نور الحقيقة !

وتطلع « ابراهيم » إلى الستائر المسدلة التي غطت النوافذ وقال :

ـ ألا تستطيع الحقيقة أن تنتظر حتى تطلع الشمس ؟ !

وتهـدج صـوت « سهـير » ، وانحنت عـلى « ابـراهيم » بـرفق ورقـدت بجواره في الفـراش ، ولمست خديـه بكفيها في رقـة وحب وحنان ، وقالت :

ـ إن الشمس طلعت فعلاً ! . . وانتهى الظلام ! . . إنها أول مرة أفتح عيني على النور !

ونفـر « ابراهيم » من اقتـراب ذلك الجسم الـذي كان يعشقـه ويهواه ، وابتعد عنها وهو يقول ساخراً :

ـ صح النوم يـا « سهير » ! . . إنـه نوم طـويل استمـر عامـين كاملين ! . .

واحمرَّ وجه « سهـير » ، وقررت أن تـدوس كبريـاءها لتستعيـد حبيبها ، ولم تحاول أن تمسح الدم الذي سقط من الطعنة التي وجهها لها « ابراهيم » ، وأمسكت يده تقبلها ، وتبللها بدموعها وتقول :

ـ لقد تصورت أنك متزوج سراً !

وقهقه « ابراهيم » كأنه يسمع نكتة وقال :

ـ شيء لطيف ! . . شيء ظريف ! . .

وقالت « سهير » بصوت منخفض :

ـ جاءت لي سيدة ، وقالت إنها زوجتك وأنها مريضة بالسل . .

وأدار « ابراهيم » رأسه ونظر إلى « سهير » في برود قاتل ، وقال :

ـ شيء لطيف جداً ! . .

وتجاهلت « سهير » هذه السخرية ومضت تقول :

ـ واليوم فقط عرفت أنها نصّابة . . رأيتها بعيني تمثل على المسرح الحديث في الاسكندرية ! . . عرفت أنها خدعتني ! . . ؟ أنها غررت بي ! . . أنها سخرت بي !

وقال « ابراهيم » في ملل ، وهو يحاول أن يبتسم :

ـ وما اسم هذه الممثلة ؟ . .

وتألقت عينا « سهير » بفرحة طاغية ، وتصورت أن « ابراهيم » بدأ يهتم بقصتها ، فاندفعت تقول :

ـ اسمها جمالات . . تمثل دوراً في رواية « الزوج المرح » على المسرح الحديث ! . . إنها ما كادت تشعر أني عرفتها حتى هربت من المسرح واختفت ! .

وزم « ابراهيم » شفتيه بلا مبالاة وقال عابثاً :

ـ وما الذي جعلها تقوم بهذا الدور ؟ . . لا بد أنها فاعلة خير !

وأدارت « سهير » وجهها في خجل لتخفي دمعة وقالت :

ـ أنا آسفة يا « ابراهيم » !

ونظر « ابراهيم » إلى الانفعالات الحزينة على وجه « سهير » وقال :

ـ أنــا آسف أكـثر ! . . أنــا حـزين ! . . القــطار فـاتــك يـا « سهير » ! . . القطار بقي ينتـظرك سنة كـاملة في المحطة . . إنـك جئت الآن بعد أن مشى القطار . .

واضـطربت « سهير » وكـأنها لم تسمع الحكم بـإعدامهـا للمرة الثانية ، ونظرت إليه في توسل وهي تقول :

ـ افهمني يا « ابراهيم » !

وابتسم « ابراهيم » في استخفاف وقال :

ـ أنا فاهمك كويس!

وفهمت مـا يعني ،ولم تتوقف لتنتـزع من قلبهـا الخنجـر الـذي أغمده « ابراهيم » فيه وقالت في استرحام :

ـ أنا كنت مخدوعة !

وانتفض « ابـراهيم » من الفراش ، وأسـرع إلى « الـروب دي شامبر » يرتديه ويقول دون أن ينظر في وجهها :

ـ لا . . أنا الذي كنت مخدوعاً !

وقامت « سهير » من مكانها في الفراش ، واتجهت إليه، وراحت تصلح ياقة « الروب دي شامبر » حول عنق « ابراهيم » وتقول له في أسى :

ـ هل تريد أن تحكم بإعدامي بغير أن تسمع دفاعي ؟ . .

واستدار نحوها « ابراهيم » وقال لها في غضب :

ـ وهل انتظرت أنت لتسمعي دفـاعي قبل أن تنفـذي فيّ حكم الاعدام ؟!

ورفعت عينيها ونظرت إليه وكأن هذه النظرة المسترحمة تركع بين يديه . . وقالت في ندم :

ـ أنا أعترف أنني أخطأت يا « ابراهيم » !

وقال « ابراهيم » بلا مبالاة :
ـ هل سمعت عن رجل ضرب آخر بالرصاص ، ثم مشى في جنازته وهو يقول : « بردون . . لا مؤاخذة ! . . أنا ما كانش قصدي ! . . » هل سمعت عن شخص يطعن آخر بخنجر في قلبه ثم يقول له : « آسف ! . . حقك علي ! . . » لو كان قلبي الذي طعنته حياً لغفر لك ! . . لكن قلبي مات ! . . قتلته أنت بيديك ! . . إن الموتى لا يتكلمون ولا يغفرون!

وفاض قلب « سهير » بالحزن والأسى والعذاب ، وتقدمت نحو « ابراهيم » تقول له :
ـ أنا ضحيت بكل شيء من أجلك !

وابتعد عنها « ابراهيم » وراح يمشي في الغرفة ذهاباً وجيئة ويقول :
ـ فعلاً . . فعلاً ! . . إنك ضحيت بكل شيء . . ضحيت بي أنا !

وارتعدت شفتا « سهير » ، وهي تقول :
ـ أرجوك ! . . أتوسل إليك أن تتحقق بنفسك وتعرف أنني مظلومة !

ووضع « ابراهيم » يده وراء ظهره كما يفعل القائد المنتصر ، وهو يرى جثة غريمه ملقاة تحت أقدامه ، وشعر في تلك اللحظة أن الأيام دارت ، وأنه كان منذ عامين جثة ملقاة تحت قدمي « سهير » عندما أعلنته بفسخ الخطبة ، وأحس أنه يريد أن يمضي في انتقامه من المرأة التي أحبها وأذلته، وعبدها وطردته من النعيم، ومضى يقول لها :

ـ أنا أعرف أنك مظلومة !.. إنما أنت التي ظلمت نفسك .. ظلمت نفسك مرة ، وظلمتني أنا ألف مرة !.. جرحت نفسك وحطمتني ! تخليت عني .. رميتني في الشارع .. كنت تظنين أن الناس ستدوسني بأقدامهم ، ولكن الله لم يتخل عني !.. إنني يوم أحببتك قلت: « يا رب » ! !.. وكأن الله لم يسمعني يومها .. وعندما رميتني في الأرض قلت: « يا رب » .. ويظهر أن الله سمعني ، وبقي معي ، ولا يزال معي ..

وأحست « سهير » أنها ستسقط على الأرض مغشياً عليها .. كانت الطعنات أكثر عدداً من أن تصمد لها ، وقالت في ذلة :

ـ ربنا يعلم !..

وأشعل « ابراهيم » سيجارته ، وأمسك عود الثقاب المشتعل في يده ، وكأنه يريد أن يحرق به جثة هذه المرأة ، ثم أطفأ عود الثقاب ورماه في منفضة السجاير وهو يقول:

ـ ربنا يعلم ؟! طبعاً ربنا يعلم أنك ممثلة ! ممثلة قديرة ! كل حياتك تمثيل .. حبك تمثيل وهجرك تمثيل !.. كل يوم دور جديد !.. اليوم الرواية الجديدة !.. لكن الآن كبرت !.. ولم أعد أصدق الروايات الرخيصة ، الجمهور الآن يا « سهير » أصبح يفهم ! لا بد له من روايات قوية محبوكة حتى يصدقها !

وفتح « ابراهيم » باب غرفة النوم وكأنه يطردها !.. وتحركت « سهير » إلى الباب وهي تجر قدميها وتقول:

ـ ربنا يسامحك يا « ابراهيم » !

وأغلق « ابراهيم » الباب وراءها وهو يقول:

ـ ربنا يسامحني أنا . . لكن ربنا لن يسامحك أنت !

ويعود « ابراهيم » إلى فراشه ليستأنف النوم . ثم يتوقف فجأة ويستدير . . ويتجه إلى الباب ! إنه شعر في لحظة كأنه يريد أن يناديها ، ويأخذها بين ذراعيه ، ويركع أمامها ، ويقول لها :

ـ أنا أصدقك لأني ما زلت أحبك !

ومد يده إلى مقبض الباب ليفتحه ، ثم تراجع ، فقد رأى في تلك اللحظة صورته وهو يخرج مطروداً من بيت « سهير » عندما أعلنته بفسخ الخطبة ، وتتراخى يده عن مقبض الباب ، ويعود إلى فراشه ، ويغطي وجهه بالوسادة ويحاول أن ينام !

* * *

وتخرج « سهير » إلى الشارع . وتجد أن سيارتها لا تزال واقفة أمام فيللا « ابراهيم » . إن صديقها « منير » لم ينصرف . لعل قلبه لم يطاوعه . بل لعل فضوله لم يطاوعه . والواقع أن « منير » أطاع « سهير » عندما أمرته بالانصراف قبل دخولها بيت « ابراهيم » ، إنه مضى بسيارته في طريقه إلى بيته ، ثم رأى نفسه يعود في منتصف الطريق ، ويتجه من جديد إلى بيت غريمه وينتظر بالباب ! . . إنها ليست أول مرة يقف فيها « منير » ينتظر أن تسمح له بالدخول ! . . ولكن الباب الموصد بقي موصداً . وها هي فرصته الذهبية . إنه فشل أن يحصل على الملكة فلا أقل من أن يحصل على الجارية ! . . إنه لم يصل إلى « سهير » وهي جالسة على عرشها ، فلماذا لا يحاول أن يحصل عليها بعد أن هوت من عرشها !

ورأت « سهير » عربة القمامة واقفة إلى جوار سيارتها التي يقودها « منير » . وارتجفت . . فقد أحست أن السيارة تحولت إلى عربة قمامة وأن « منير » يجلس في السيارة ينتظرها كما ينتظر الكناس في عربة القمامة « الزبالة » التي ستجيء له من بيت « ابراهيم » ! . . إنها أيضاً أصبحت « زبالة » ! ألقاها « ابراهيم » كما يلقي أوراقاً ممزقة في سلة المهملات أو بقايا طعام في صفيحة « الزبالة » .

وعندما نزل « منير » من السيارة ، وفتح « لسهير » الباب اقشعر

جسمها . اختفت من عينيها بذلته الأنيقة ، وحلت مكانها بذلة « الزبال » وتحولت السيارة أمام عينيها إلى صفيحة كبيرة للقمامة ! وتطلعت « سهير » إلى عيني « منير » فرأتهما تتصفان بالشهامة والمروءة ، فارتجفت مرة أخرى ، وأبت أن تدخل السيارة ، وقالت له في جفاء :

- اتركني ! . . أريد أن أمشي على قدمي ! . . أريد أن أمشي وحدي !

ويعود « منير » إلى السيارة حزيناً آسفاً ! إن صناعة المروءة والشهامة لم تفده مع « سهير » . وتمشي « سهير » وحدها في الشوارع . وتشعر أنها تعيش في دنيا خلت فجأة من الناس !

إن الرجل الوحيد الذي تصورت أنه سوف يصدقها أبى أن يصدقها . طردها كالكلب من أحلامها الجديدة . وترى فجأة في الطريق كلباً ضالاً ! هزيلاً . . حقيراً . . ذليلاً . . يمشي إلى جوار الحائط في خنوع . . يتوقف ثم يسير . . ينظر حواليه في رعب وجوع . وقالت « سهير » لنفسها : « أنا مثل هذا الكلب الضال ! كلب بلا طوق ! . . » لقد كان الطوق الذي يحيط عنقها هو « ابراهيم » . وكان هذا الطوق يحدد اسمها ومستقبلها وحياتها وعنوانها وتاريخها ! . . ولكنها الآن تمشي في الحياة بلا طوق ، وبلا سلسلة وبلا هدف ! . . وتتقدم « سهير » نحو الكلب فينفر منها ، وتتحسر « سهير » لأن الكلاب أيضاً تهرب منها ! ولكنها هي هربت من عطف « منير » ! لماذا فعلت هذا ؟ . . إنها في تلك اللحظة لم تشعر أنها في حاجة إلى مشفقين ومعجبين . إنها في حاجة إلى مؤمنين ! لو ان « منير » صدق قصة « فهيمة » لأحبته ! ولكنه لم

يصدقها وتظاهر بموافقته على روايتها كما يفعل العاقل مع المجانين ! . . إنها كانت تستطيع أن تصمد لو وجدت إنساناً واحداً يؤمن بصدقها . . إن هذا الإيمان كان يقوّي شكها في نفسها ، وفي قواها العقلية ، وفي إصرارها على أن تكسب معركتها الكبرى ! ولكن « منير » لم يفعل ذلك ! إنه يريد بقايا المرأة المهزومة ! . . يريد الزبالة !

وتتذكر « سهير » سوء حظ « منير » معها ! إنها كامرأة كانت تريد رجلاً لا « جمعية خيرية » ! . . تريد حباً مؤمناً لا عطفاً وشفقة . تريد أن تقيم في قصر للحب لا في ملجأ للعجزة والمشوهين ! إنها تريد أن تسمع طبول الحرب لا استغاثات المغلوبين ! لقد عاش قلبها يطلب الغزاة الفاتحين لا الشحاذين والمتسولين ! . . إنها كانت تريد دائماً بطلاً أسطورياً يخضع قلبها لجبروته وسلطانه ! لا عاشقاً ناعماً أنيقاً معطراً طرياً يزهو بأنه صديق نجمة الجماهير ! . . إنها أحبت « ابراهيم » لأنه كان قوياً عنيفاً خشناً ، يأخذها بين ذراعيه في قوة وسطوة ووحشية وسيطرة ! . . ولأجل هذا خضعت « سهير » لـ « ابراهيم » لأنها عاشت تحلم برجل أقوى منها ، رجل يسيطر عليها ، رجل يبطش بها ! إنها لم ترد رجلاً رقيقاً ناعماً لأن كل نعومة الدنيا ورقة الدنيا وطراوة الدنيا تركزت فيها ، وإنما أرادت الوحش الجميل الذي يعتصرها في صدره بقوة آمرة لا تعرف الضعف والخنوع !

ولكنها الآن فقدت العملاق ، ولا تستطيع أن ترى الأقزام ! اختفى فارس الأحلام وضعف بصرها ، فلم تعد تتبين أطياف وأشباح الرجال !

ومضت « سهير » تمشي في شوارع القاهرة على غير هدى ! كأنها فرخة مذبوحة تنتفض والدم ينهمر منها . وكانت تتلفت حولها فتشعر كأن كل أبواب الدنيا أغلقت أمامها . . الوجوه كلها متجهمة . . العيون واجمة . . النفوس مكشرة . . القلوب عمياء . . أبواب الحوانيت مغلقة . . الشوارع مهجورة . . وتصل إلى شارع عماد الدين . . الشارع الذي رأى مواكب مجدها . . ها هي تشيع فيه جنازة أملها ! . . ولكن ماذا حدث للشارع العظيم ؟ . . إنه بدا كئيباً موحشاً غريباً . . النار التي كانت فيه تحولت إلى رماد . . الضجيج الحي تبدل إلى سكون مميت . . العمالقة الذين كانوا يخترقونه أصبحوا كالديدان ! . . إنها سارت في هذا الشارع قبل ذلك آلاف المرات . كانت فتاة ناضجة . . فيها سحر وأنوثة . . فيها فتنة وجلال ، كانت أشبه بشعاع من الضوء يبحث عن شعاع آخر يتحد معه ليصنع النور العظيم ! ولكن ما كادت تلتقي بالشعاع الآخر حتى احترقت به . . إنه أخمد نارها ، وأطفأ أنوارها ! إنها كانت كماناً أصيلاً يبحث عن عازف . . ثم جاء العازف ومزق أوتار الكمان وتركه قطعة صماء من الخشب الرخيص ! . . إنها كانت ورقة في وردة ربيع تبحث عن ماء وشمس ، وجاء « ابراهيم » وملأ الورقة نضارة ثم لم تلبث أن ذبلت في يديه قبل أن يشم كل عبيرها ، ثم رماها على الأرض لتدوسها الأقدام !

كانت تمشي وحولها أطياف من الخيبة والألم والوحدة ! كأنها ظلها ! وهي سوداء كالظلال ، تمشي معها ، تتبعها حيناً ، وتسبقها حيناً ، ولكنها لا تفارقها . ثم تغمض عينيها حتى لا ترى ظلالها ، وتحاول أن تطمئن نفسها أنها لم تعد فيها جذوات تحترق . لماذا يخاف الرماد ؟ إنه لن يتحول إلى مشعل مضيء ! . . إنها فقدت الآن لذة

الاحتراق !. . صوت الاحتراق . . عذاب الاحتراق . . إنها تتمنى الآن لو وجدت أعواداً من الثقاب تحرق قلبها من جديد ! ولكن ماذا يفعل الكبريت في التراب ؟!

ويمر بها بائع « يانصيب » . . إنه يبيع الحظ لمن يشتريه ! ولكنها تعلم أنها إمرأة بلا حظ وبلا نصيب !. . أنها كسبت « البريمو » يوماً ، ولما جاءت لتقبض الجائزة الأولى ، ومدت يدها لصراف الزمن ملأ كفها هباء !

وبدأت أضواء الفجر الشاحب تتسلل إلى شارع عماد الدين ، وكانت أشعة الشمس القوية تنكسر على أبواب المسارح المقفلة فتبدو كالخرائب المهجورة !. . إن هذا الشارع لا يعيش إلّا في الليل ، ولا يبدو جماله إلّا في الأنوار الصناعية !؟ ثم تتذكر هي أنها تشبه أيضاً شارع عماد الدين ! إنها انطفأت بغير أنوار صناعية ! إنها بدت ذابلة شاحبة لأنها ملكة الظلام لا ملكة النور ! وهي في هذا النور حائرة وحيدة ، قلقة عمياء لا تعرف طريقها في النهار .

ويمر بها الناس فلا يلتفتون إليها . . إنها يافطة بلا أضواء ! إنها امرأة عاجزة متخاذلة « جبانة » تدير لها الدنيا ظهرها . كأنها نبي اكتشف العالم أنه دجال ، وراح يضربه بالحجارة والطوب !. . ولكنها حجارة بغير صوت !. . ما أتعس الذين يموتون في غير ضوضاء ! ويشيعون في غير جنازة ، ويدفنون في غير قبر !

وترفع عينيها إلى السماء المضيئة بالنهار فتجدها كأنها أظلمت في وجهها ! وتمشي مطرقة إلى الأرض ، وتمشي إلى غير هدف ، وإلى غير عنوان ! وتشعر بعد سيرها الطويل بأنها تكاد تقع على الأرض مغشياً

عليها . . ثم تسند يدها إلى جدار وتتطلع إلى أعلى وتقول : « يا رب . . يا رب ! . . »

وتجفل « سهير » فجأة لأنها رأت في أعلى الجدار الذي استندت إليه « يافطة » مغطاة بالتراب مكتوباً عليها : « حارة السد البراني » !

كيف وصلت « سهير » إلى هذه الحارة ؟! . . ما الذي جاء بقدميها إلى هنا !؟

وتتلفت « سهير » إلى الحارة التي شهدت قصة غرامها مع « ابراهيم » . إن الحارة عادت كما كانت كئيبة قذرة مهجورة . الزبالة ملقاة في وسطها . التراب يعلو نوافذها . لوح الزجاج في محل بقالة « عم محمود البقال » أصبح مكسوراً من جديد . .

ليس في الحارة سيارة واحدة ، وإنما عربة يد ملقاة إلى جوار أحد الجدران . انقطعت مصلحة التنظيم عن زيارة الحارة . لم تذهب عربات الرش من وقت طويل إلى هذا المكان الذي أصبح مجهول العنوان من جديد . . بدت الحارة كأنها قرية مهجورة . . كأنها في مأتم دائم . . لا تسمع أصواتاً ولا أنغاماً . .

كانت « سهير » تسمع فقط خطوات حذائها وهي تمشي وكأنها تترنح في الحارة الصغيرة . .

وتمر « سهير » أمام صالون « الاسطى عزيز عبد العال الحلاق » ، فتجده يفتح المحل ، وتقترب منه ويتطلع إليها ، ولكن « الاسطى عزيز » لا يعرفها . . إنه نسيها . . إنه لم يذكرها . . إنه لا يذكر أن هذه المرأة الشاحبة كانت يوماً ملكة متألقة ، كانت نجمة الجماهير . . !

وتتأمل « سهير » وجه « الاسطى عزيز » الحزين ! . . التجاعيد ملأت وجهه . الشعر الأبيض غطى رأسه وملأ شاربه . النظرة الضاحكة تحولت إلى نظرة متجمدة . الشفة المتحركة تجمدت وصمتت ! . . إنها كانت تعلم أن « الاسطى عزيز الحلاق » لا يكف عن الكلام ، وعن التعليق على كل شيء ، وعن السخرية بكل شيء . يتحدث إلى الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم . وكثيراً ما شاهدت « الاسطى عزيز » وهو يقص شعر « ابراهيم » وكانت تثيرها ضحكته المرحة ، وملاحظاته الطريفة وفضوله العجيب ! ولكنه الآن يحملق فيها ولا يراها ! وتتحسر « سهير » إن « الأسطى عزيز » هو شارع المجد . إنه مثل المجد ضعيف البصر لا يرى إلا النجوم الساطعة . إنه لا يستطيع أن يرى الشموع والقناديل الضعيفة الضوء .

وتتابع « سهير » سيرها ، ثم تتوقف أمام محل بقالة الحاج محمود . ثم تمشي أمام المحل ، ثم تعود أدراجها وتدخل إلى محل البقالة . وترى الحاج محمود كما هو ! ولكنه ليس هو . إنه بدمه ولحمه . . ولكنه ليس بروحه ! إن هذا البقال الضاحك المرح تحول إلى رجل مسن عجوز ! لا يمكن أن تكون السنتان قد فعلتا به كل هذا . . إن شعره الأسود الفاحم قد اختفى ، وملأه شعر أبيض ثائر غاضب ، لم يمر من وقت طويل على مقص « الأسطى عزيز الحلاق » . وعيناه الضاحكتان اللتان كانتا تتحركان في سرعة بين الوجوه . . مالهما تحجرتا في نظرة كلها خيبة وهزيمة وانكسار ! المسبحة الكهرمان ما زالت في يده ، ولكنها بدت شاحبة مثله ، مليئة بالتجاعيد ! هذه المسبحة كانت في الماضي يحمد على حباتها الله . . لعلها الآن شحبت لأن الحاج محمود يلعن عليها الزمن ! . . ورأت

« سهير » نفسها في وجه الحاج محمود ! إنه وجه رجل في الخريف ! أوراقه الخضراء تساقطت في ذلة إلى الأرض . شجرته المليئة بالحياة تجردت فجأة من أوراق الحياة وزهور الأمل !

وترى « سهير » « المعلم سلطان الجزار » وتاجر المواشي ، وأمامه طبق الفول المدمس يأكل منه بنهم ، وترى « أبو عوف أفندي » الساعي بالبوستة يشترك مع « عويس » الساعي بديوان المحاسبة في قراءة جريدة الصباح ، بينما راح « صميدة » المحوجلي في السكة الحديد يعاين صفيحة الزيتون ، ويغافل « الحاج محمود البقال » ويذوق من الزيتون الجديد . .

وتقول « سهير » : « صباح الخير . . » .

قالتها بصوت مشروخ ، فيه لهفة وزجاء وابتهال . ولكن أحداً لم برفع رأسه ! . . إن « المعلم سلطان » بقي جالساً ، وقد وضع يده على خده ، تتدلى منها المسبحة ، وأمامه دفتر الحسابات ، ولم يلتفت « الحاج محمود » إلى « سهير » ، وإنما أجاب بصوت ملول : « صباح الخير . . » . . أما باقي الجالسين فإنهم لم يردوا التحية ، كأنهم لم يشعروا أن غريباً دخل إلى محل البقالة الصغير !

إن هذا الصوت الناعم الذي كان يجذبهم ويسحرهم ويثيرهم لم يحركهم ! هذا الصوت الذي كان يشجيهم ويطربهم لم يلفت أنظارهم . وتبدو في عيني « سهير » حسرة . وتحس أنها ما دامت حارة السد قد نسيتها ، فإن الدنيا نسيتها أيضاً .

وتطلب « سهير » جبنة بقرش صاغ ، وزيتوناً بقرش صاغ . .

ويتحرك « الحاج محمود » في تثاقل ، ويمضي إلى صفيحة

الجبنة ، وصفيحة الزيتون يغترف منها . . ثم فجأة يرفع « الحاج محمود » رأسه ويرى « سهير » فيشهق ويقول : « الست سهير » .

وتسقط قطعة الجبن من يد « الحاج محمود » ، ويتوقف « المعلم سلطان » عن أكل الفول المدمس ، ويرفع « أبو عوف » و « عويس » رأسيهما من الجريدة ، ويعيد « صميدة » الزيتونة التي كانت في يده إلى صفيحة الزيتون . .

وتبتسم « سهير » . .

ولكن ابتسامتها لا يوجد لها صدى . إن أهل الحارة يستقبلونها ببرود . في أعينهم مزيج من الشوق والكراهية ، من دهشة المفاجأة والأسف على هذا اللقاء غير المرغوب فيه . .

وتنهمر الدموع من عيني « سهير » . .

ويعود « المعلم سلطان » يمسح بلقمة العيش ما تبقى من طبق الفول المدمس ، ويطوي « أبو عوف » الجريدة ، ويتشاغل بالنظر إلى سقف محل البقالة ، وكأنه يراه للمرة الأولى ، ويتظاهر « عويس » أنه منهمك في ربط حذائه المفكوك . .

وتتقدم « سهير » إلى « المعلم سلطان الجزار » وتقول في صوت مخنوق :

ـ أنا جئت أعتذر لكم . جئت أعتذر لحارة السد . جئت أقول لكم أنا غلطت . . أنا غلطت في حقكم كلكم . .

ويمسح « المعلم سلطان » فمه بكم جلبابه ويسكت . وتتطلع « سهير » إلى عيون الجالسين في محل البقالة فتجدهم لا يفتحون أفواههم ، ولا يقولون شيئاً . .

وتقترب « سهير » من « الحاج محمود » وتقول له في استجداء :

ـ سامحني يا « حاج محمود » !

ويقول « الحاج محمود » وكأنه لا يبالي بما يسمع :

ـ أسامحك في إيه يا ست « سهير » ! . . أنت لم تعملي فينا شيئاً . . الذي يجب أن يسامحك هو « سي ابراهيم » ! . .

وعندئذ انحدرت الدموع من عيني « سهير » وقالت :

ـ لقد ذهبت إليه وطردني . . كل الدنيا طردتني . . كل الأبواب أغلقت في وجهي ! . . الطريق الوحيد المفتوح أمامي هو . .

وقاطعها « المعلم سلطان » ضاحكاً ساخراً : « السد » !

وضحك الجالسون لنكتة « المعلم سلطان » ! ثم أحسوا أن هذه النكتة كانت خنجراً في قلب « سهير » لأنها أجهشت فجأة بالبكاء ، وغطت وجهها بيديها . . وتأثر « أبو عوف » وقال في صوت فيه أسى وعتاب :

ـ إننا حاولنا أن نقابلك عندما حدثت حكاية « سي ابراهيم » وطردونا ! . . البواب منعنا من الدخول !

وهز « عويس » رأسه وقال ساخراً :

ـ ولكن حارة السد ليس فيها بوابون !

وأطرقت « سهير » برأسها خجلاً وعاراً وقالت :

ـ ومن أجل هذا جئت إليكم ! . . جئت لناس لا يقف على قلوبهم بوابون ! . . قلوب مفتوحة ليس لها أسوار ولا أبواب ! قلوب تفتح لكل مظلوم . . أنا وقعت من السما وأنتم اللي استلقيتوني !

وتهز هذه الكلمة قلوبهم . ويسرع « صميدة » ويقف إلى جوار « سهير » . ويتحرك « عويس » من مقعده وينزل ساقه من فوق ساقه الأخرى احتراماً . ويمد « المعلم سلطان » يده ويربت على كتف « سهير » . ويسرع « الحاج محمود » ويجيء بمقعد لتجلس فيه الست « سهير » .

وتجلس « سهير » تروي لأهل الحارة مأساتها . كيف خدعتها الممثلة « فهيمة » . كيف أوهمتها أنها زوجة « ابراهيم » وأنها مريضة بالسل . كيف ضحت « سهير » بسعادتها من أجل امرأة مريضة شقية . كيف حطمت سعادتها من أجل مستقبل « ابراهيم » . كيف اكتشفت الخدعة في الاسكندرية . كيف ذهبت إلى « ابراهيم » لتروي له حقيقة ما حدث فلم يصدقها وطردها . .

وتبكي « سهير » وتمضي تقول :

ـ إن الناس لا يصدقونني ! . . كل الناس يتصورون أنني أمثّل ! . . « ابراهيم » يعتقد أنني أخدعه . . يتوهم أنني عرفت طريقه بعد أن فشلت وتدهورت . كنت أريد أن أرمي نفسي في النيل . وفجأة سمعت صوتاً يقول : « يا رب » . . وتطلعت إلى فوق فرأيت اليافطة المكتوب عليها « حارة السد البراني » . في تلك اللحظة شعرت كأن باب الحارة هو أبواب السماء . . وأنكم أنتم الملائكة !

وكان « المعلم سلطان » يسمع هذه الكلمات ، وقد بدا عليه التأثر ، وكان يمسح دموعه بذراع الجلابية . . .

وكان « أبو عوف » يخرج منديله ويمخط فيه . .

وكان « الحاج محمود » يمسح عينيه بكفيه . .

أما « صميدة » فإنه انتهز الفرصة ووضع يده من جديد في صفيحة الزيتون الجديد . .

ولم تكن « سهير » تتطلع إلى وجوههم ! . . كانت الدموع تغطي عينيها ، وأخرجت منديلها وهي تقول :

ـ أنا أعذركم إذا لم تصدقوني ! إن أحداً لن يصدقني ! . .

وتقدم نحوها « المعلم سلطان » وراح يربت على كتفيها في تأثر ويقول : « كلنا نصدقك يا ست « سهير » ! . . » .

والتمعت عينا « سهير » بالسرور والدهشة وقالت :

ـ تصدقوني ؟ . . تصدقونني ؟ . . أبداً ! . . إنها أول مرة أسمع فيها أن أحداً صدقني ! . . إنني كنت أشعر أن الدنيا كلها تصيح حولي : كذابة . . كذابة . . كذابة !

وصاح « الحاج محمود » في احتجاج شديد :

ـ كلنا نقول أنك صادقة ! . . أنك مظلومة . . إن قلوبنا لا يمكن أن يخدعها أحد !

وقال « صميدة » في رفق وعطف :

ـ وسوف نساعدك . نحن معك . نحن ضعفاء وفقراء . ولكننا نؤمن الآن أنك على حق !

وارتجفت « سهير » وهي تسمع كلمة « الإيمان » . إنها كانت في حاجة لأن تسمع هذه الكلمة ! . . إنها كانت في حاجة إلى مؤمن واحد . . ولكنها الآن تجد عدداً من المؤمنين . . وتشجعت « سهير »

وقالت في ضراعة : « إني لا أجد أحداً أستشيره !.. إنني ضالة وأريد يداً تأخذ بيدي !.. ماذا أفعل؟.. ماذا تنصحون ؟

ولم يجب الجميع !.. إن رؤوسهم لم تفكر وإنما الذي فكر هو قلوبهم !.. إنهم لا يعرفون كيف سيأخذون بيدها . إنهم لا يعرفون كيف سينصحونها !.. كل ما يعرفون أنهم قرروا أن يساعدوا « سهير » !.. إن قرارهم صدر بالإجماع !.. لم يقترعوا بالتصويت ولا برفع الأيدي ، إنهم أحسوا جميعاً أنهم أجمعوا أن يقفوا إلى جوار « سهير » في أزمتها !

وخرج « صميدة » إلى باب محل البقالة ووضع أصبعين من أصابعه في فمه ، وخرجت منه صفارة هائلة كأنها صفارة الإنذار ، وكأن الأرض انشقت وخرج من الحارة نساؤها ، وأطفالها ، ورجالها ، وشيوخها ، وكل من فيها ! وما كاد يقول لهم « المعلم سلطان » هذه هي أختنا « سهير » حتى انهالوا عليها تحية وسلاماً وقبلات وعناقاً !.. إن أحداً منهم لم يسألها أين كانت ، ولا كيف جاءت ، ولماذا جاءت ؟.. إنهم جميعاً عاملوها كأنها بنت الحارة التي عادت فجأة من غياب طويل ..

ووجدت « سهير » نفسها تبكي .. إنها منذ وقت طويل لم ترَ جمهوراً !.. إن هؤلاء الناس الطيبين هم جمهورها ، هم شعبها ، هم الذين حرمت طويلاً من تصفيقهم وتحيتهم وهتافهم !.. ولأول مرة منذ وقت طويل أحست « سهير » أنها ليست وحدها في الدنيا

وتركها « المعلم سلطان » بين أصدقائها القدامى ، ودعا « صميدة ، و « الحاج محمود » ، و « أبو عوف » إلى اجتماع خطير ،

وتمايلت رؤوسهم وكأنهم قواد جيش يعدون خطة سرية خطيرة لمعركة رهيبة !

وبعد لحظات خرج « المعلم سلطان » من الاجتماع الرهيب ، وتقدم إلى « سهير » وانتزعها من بين جماهير الحارة التي كانت تعبر لها بكل لسان عن حبها وشوقها وإخلاصها ، وأعادها « المعلم سلطان » إلى دكان « الحاج محمود البقال » . . وقدم لها مقعداً وقال لها : « اجلسي هنا . . » .

وجلست « سهير » على المقعد ، وكأنها جندي ينفذ أوامر قائد صارم ! . . وقال « المعلم صميدة » :

ـ إننا قررنا أن نأتي إلى هنا بالممثلة « فهيمة » ، ونجعلها تشهد لمصلحتك . .

وقالت « سهير » في أسى :

ـ إنكم لن تستطيعوا ! . . إنها هربت ! . . اختفت ! . . أنا فشلت في العثور عليها !

وينهرها « الحاج محمود » ويقول :

ـ أنت فشلت ، ولكننا لن نفشل . . سوف نأتي بها !

قالت « سهير » : « أخشى أن تكون اختفت في مكان مجهول بعد أن افتضح سرها ! » .

وصاح « صميدة » : « سنأتي بها من تحت الأرض ! . . »

ولم تقتنع « سهير » بهذه الثقة التي يظهرها « صميدة » ، فقالت في صوت مترنح : « تجيبوها ازاي ؟ » .

واضطرم وجه « أبو عوف » بالبشر والابتهاج والثقة وقال :

ـ نجيبها ونجيب أبوها !

وفجأة تذكرت « سهير » شيئاً ، وفتحت حقيبة يدها وأخرجت منها صورة « فهيمة » التي انتزعتها من بين صور الممثلات ، وقدمتها لهم وهي تقول :

ـ هذه هي صورة « فهيمة » . . أو الممثلة « جمالات . . »

وأقبل الجميع على صورة الممثلة « جمالات » ينظرون إليها في غضب وحقد ومرارة وكأنها عدوة كل واحد منهم !

وصاح « المعلم سلطان الجزار » مشيراً إلى بقع الدم التي تغطي الصورة : « مالها كده زي المدبوحة ! . . »

وقالت « سهير » : « هذه بقع دم من يدي وأنا أنتزع الصورة من الفترينة الزجاجية » .

وقال « المعلم سلطان » في حدة :

ـ كان يجب عليك أن تذبحيها !

وهزت « سهير » رأسها في أسف وقالت : « إنها هربت مني ! »

وراح الجميع يربتون على كتف « سهير » وهم يقولون لها :

ـ لا تخافي ! . . سوف نجدها ! . . سوف نذبحها نحن ! . . سوف نسافر إلى الاسكندرية ونأتي بها !

وتحولت « سهير » فجأة كطفل صغير . ثم تحولت فجأة إلى امرأة حلوة ! لقد عادت لها ـ في لحظات ـ جاذبيتها العارمة ، وأنوثتها

الفاتنة ، وسحرها الناضج ، وفمها المليء بالحرارة ، وشفتاها المكتنزتان اللتان تخرج منهما الكلمات كاللهيب ، وابتسامتها الجميلة التي تدير رؤوس الرجال !.. في لحظات عاد الشبح وأصبح امرأة !.. ثم أصبح من جديد نجمة الجماهير !.. إن الجرعة الأولى التي شربتها من « أكسيد » الأمل حوّلتها من رماد إلى نار ..

وتعلقت « سهير » « بالمعلم سلطان » وقالت له :

ـ أريد أن أذهب معكم إلى الإسكندرية ..

وأزاحها « المعلم سلطان » وهو يقول :

لا .. ارجعي أنت إلى بيتك ! أصل احنا مسافرين في عربية « البهايم » .. ودي موش من مقامك يا ست « سهير » !

واستسلمت « سهير » لأوامر « المعلم سلطان » ، وعرض عليها « المعلم » أن يأتي لها « بعربة حنطور » أو « تاكسي » يحملها إلى بيتها .. ولكن « سهير » أبت أن تركب .. إنها تريد أن تمشي .. بل إنها تريد أن تطير !

وودعتهم « سهير » ، ومشت إلى بيتها !.. مشت تفكر في المعجزة التي حدثت . كيف قالت : « يا رب » .. فلبى الله النداء !

كيف أنه لم يرفعها إلى السماء لتلتقي بالملائكة ، وإنما جعل لقاءها بهم على الأرض .. وفي حارة السد بحي السيدة زينب ..

وكانت « سهير » تمشي وهي تحدث نفسها . ليس الناس أشراراً .. إن الطيبة فيهم أكثر من السوء . قد يعلو صوت الأشرار ويدوي فتضيع في ضوضائه همسات الخير ، ويتوهم المنكوب أن الدنيا مليئة بالذئاب ، والضباع ، والأفاعي ، والثعابين !.. ولكن

الكوارث أشبه بالزلازل ، فإنها تشق النفوس كما تشق الأرض ، فتخرج منها كنوزها ومعادنها . .

والناس في قرارة قلوبهم يحملون نبلاً وطيبة وخلقاً . . وقد لا يظهر هذا في الظروف العادية ، تماماً كما ترى الأرض مفروشة بالطين والتراب . . ولكن إذا تعمقت في باطن الأرض وجدت الذهب والماس . . وقد تسمع الناس يهاجمون شخصاً فتتصور أنهم يكرهونه ، ولكنهم يفعلون ما يصنع الأب عندما يرى ابنه ارتكب خطأً صغيراً . . فيقيم الدنيا ويقعدها . ويهاجم ابنه ويؤنبه ويلومه ، ويهدده بالويل والثبور . . وقد يضربه «قلماً» على وجهه ، ويقسم أنه لن يسمح له بدخول بيته . . وفجأة يسمع الأب أن ابنه أصيب في حادث ، وعندئذ يجد هذا الأب نفسه يجري إلى ابنه ، ويضمه إلى صدره ، ويحاول أن يفديه بحياته ، ويشعر كأن الدم الذي نزف منه إنما ينزف من قلبه !

وهكذا شعرت « سهير » أن الحارة أصبحت أبوها وأمها ، وهي التي عاشت يتيمة طول حياتها . هؤلاء الناس الذين لعنوها لأنهم توهموا أنها تخلت عن صديقهم « ابراهيم » صدقوها عندما كذبها كل الناس . . حتى الرجل الذي أحبته أكثر من الحب والمجد والهناء !

أحست « سهير » صدق مشاعرهم . إنهم فهموها بغير أن تشرح وتفيض . إنهم حكموا ببراءتها دون أن تترافع عن نفسها . إنهم فتحوا لها قلوبهم دون أن تدق على أبوابها الموصدة بالسلاسل والأقفال ! . . شعرت « سهير » أنهم يهتمون بها كأنها ابنة كل واحد منهم . كل فرد في الحارة ترك عمله واعتبر « سهير » هي عمله العاجل ، شعروا أنهم مسؤولون عنها ، أنهم مكلفون أن يجففوا

دموعها ، ويضمدوا جراحها ! . . وكان من حقهم أن يديروا لها ظهورهم ، فقد سبقتهم وأدارت لهم ظهرها !

ولكنهم لم يفعلوا . . وعندما عاتبوها لأنها أبت أن تقابلهم بعد انفصالها عن « ابراهيم » فعلوا ذلك بغير أن يحاولوا التشفي فيها . كان لوماً طيباً كقلوبهم ، وكأنهم أمسكوا أذنها يقرصونها ، ولم يحاولوا أن يغمدوا في جرحها خناجرهم . . لم يقولوا لها : الآن عرفت طريقنا بعد أن أغلقت الدنيا أبوابها كلها ، وسدت مسالكها في وجهك !

وأحست « سهير » وهي تمشي كأن الدنيا عادت فجأة تغني لها وتغني معها . الناس كلهم يتسمون . غصون الأشجار ترقص . البيوت فتحت نوافذها . المتاجر فتحت أبوابها ! . . ما أسعد الإنسان عندما يشعر أن الدنيا بخير . عندما يحس أنه ليس وحده فى هذا العالم . عندما يرى حوله مواسين يخففون عنه كارثته .إن أسرة الميت تشعر ببعض العزاء عندما ترى سرادق المأتم مليئاً بالمعزين . . وها هي ترى سرادق المأتم في قلبها قد امتلأ فجأة بأهل الحارة جميعاً ! . . وهي تشعر بشيء من العزاء ! . . إنهم لن يستطيعوا أن يعيدوا عقارب الساعة إلى الوراء . إنهم لن يستطيعوا أن يعيدوا الحب الميت إلى الحياة ، هذا الحب الذي فقدته في لحظة طيش وغباء ، ولكنها مع ذلك شعرت بالراحة ! كأنها كانت واقفة على قدميها طوال هذه السنين ، ثم وجدت فجأة جداراً تسند عليه نفسها ! ولكنه أكثر من جدار . إن هؤلاء السذج الطيبين كانوا الوسادة التي تضع عليها رأسها المتعب المليء بالهموم واليأس وبقايا الدموع !

وراحت « سهير » تحدث نفسها : إذا لم يستطع هؤلاء الضعفاء

أن يعيدوا لها حبيبها . . فإنهم استطاعوا أن يعيدوا لها الأمل ! . .
لقد عاشت هذه السنين بلا أمل وبلا أحلام . . ولكن هؤلاء الناس الطيبين المؤمنين قالوا أنهم يستطيعون أن يصنعوا المعجزة . إنهم غير متعلمين . ولكن من الذي قال أن العلم يفهم في العواطف ؟ إنها هي الفتاة الذكية المتعلمة سقطت في أول امتحان عاطفي لها . . قدّمت لحبيبها السم وهي تتصور أنها تقدم له الدواء ، طعنته بخنجر وهي تتوهم أنها تمنحه بركة . قتلت نفسها وهي تظن أنها تحافظ على حياة امرأة أخرى ! . . يا لها من غبية ! . . كيف أنها لم تر في النور ما رأته في الظلام ! . . كيف استطاعت هذه الممثلة المبتدئة أن تخدعها ، وهي التي خدعت الملايين ، وأوهمتهم أن تمثيلها حقيقة ، وجعلتهم يبكون معها ، ويضحكون معها !

ووصلت « سهير » إلى بيتها ، ودخلت إلى غرفة نومها ، وأقفلت الباب ، واستلقت على بطنها في الفراش وراحت تسائل نفسها :
« ماذا يستطيع أهل الحارة أن يفعلوا أكثر مما فعلت ؟ . . هل يستطيع منطقهم الساذج أن يقنع « ابراهيم » ببراءتها بعد أن عجز منطقها الساحر ؟ . . هل تستطيع ضحكاتهم الطيبة أن تنجح فيما فشلت فيه دموعها الغزيرة ؟! . . » .

وعادت « سهير » تحاول أن تطمئن نفسها . . وتقول :

- يوضع سره في أضعف خلقه . . لعل الله يعطي هؤلاء الضعفاء القوة التي يهزمون بها الظلم الجبار الذي أطاح بسعادتها وهنائها

وتطلعت في المرآة الكبيرة التي في غرفة النوم ، فرأت على شفتيها ابتسامة ! . . وأحست كأن غريباً دخل غرفة نومها ! . . وتذكرت أن

هذا الغريب هو ابتسامتها !. . إنها جاءت إلى غرفة نومها بعد غياب طويل !. . ولكن من الذي وضع هذه الابتسامة ؟! . . من الذي رسمها على الفم الحزين ؟. . إن هؤلاء الناس الطيبين الفقراء الضعفاء هم الذين رسموا هذه الابتسامة ، رسموها بطيبتهم وسذاجتهم وإخلاصهم وإيمانهم .

ووضعت « سهير » يدها على شفتيها ، وكأنها تريد أن تخبىء هذه الابتسامة من القدر !

ما أغرب سكان حارة السد البراني !.. هؤلاء البسطاء الفقراء المتفرقون ، تحولوا فجأة إلى جيش متحد يستعد للانقضاض ! إن نداء « سهير » مستنجدة بهم أن يقفوا بجوارها في محنتها حرك شهامتهم ، وأشعرهم أنهم أقوياء وقادرون، إن ثقة « سهير » فيهم أعطتهم الثقة التي كانوا يفتقدونها في أنفسهم .

إن «الاسطى عزيز الحلاق » كان يحلق ذقن زبونه « المعلم عطاالله أبو شادوف العجلاتي » . وكان الصابون يغطي ذقنه ، وكان « الاسطى عزيز » مهتماً بذقن « أبو شادوف » ، فإنه زبون سليط اللسان ، لا يكف عن الشكوى . ولكن ما كاد « الاسطى عزيز » يسمع صفارة « صميدة » حتى رمى الموسى جانباً ، ولم يكن انتهى إلاّ من حلاقة نصف ذقن « المعلم عطا الله أبو شادوف » وترك الصابون على ذقن « المعلم » ، ولم يحتج « المعلم أبو شادوف » . شعر أن الحارة مدعوة إلى اجتماع خطير ، ومسح الصابون بكمِّه ، وتحسس شعر لحيته الذي لم يصل إليه الموسى ، ومضى يساعد « الأسطى عزيز » على إغلاق صالون الحلاقة بالضبة والمفتاح ، ومضى مع الحلاق إلى بقالة « الحاج محمود » التي أطلقت صفارة الانذار !

أما « المعلم سلطان الجزار » فقد أرسل ولداً صغيراً إلى محل جزارته يخبر صبي الجزار أن « المعلم » مشغول ، وأنه لن يذهب إلى

محله اليوم لأنه مرتبط بأعمال هامة ، ولم ينس « المعلم سلطان » أن يوصي الصبي ألَّا يبيع « شككاً » للشيخ « أبو طاقية » المأذون لأنه متأخر في دفع الحساب!

وأسرع « أبو عوف أفندي » الساعي بالبوستة يرسل ابنته « سنية » إلى رئيسه في محل عمله تعتذر عن عدم استطاعته الحضور إلى العمل لإصابته بمغص مفاجىء . . ويحتج « الحاج محمود البقال » ، ويقول : « إن هذا العذر من حق « صميدة » بسبب كثرة ما أكل من صفيحة الزيتون ! . . » أما « عويس أفندي » الساعي بديوان المحاسبة فإنه يجري إلى أسرع تليفون ويطلب رئيس السعاة في الديوان ويعتذر عن عدم الحضور لأن زوجته تضع في المستشفى ، وبعد أن يضع السماعة على التليفون يتذكر أن زوجته توفيت منذ ثلاث سنوات ، وأن رئيس السعاة مشى في جنازتها!

ويخطر ببال « عويس أفندي » أن يبحث لنفسه عن اعتذار آخر . . ثم يهز رأسه ، بغير اهتمام ، وينسى في خطواته السريعة إلى بقالة « الحاج محمود » مشكلته الصغيرة أمام المشكلة الكبرى التي أصبحت مشكلة حارة السد البراني كلها !

ويتحول محل بقالة « الحاج محمود » إلى غرفة العمليات في هيئة قيادة جيش خطير . إن كل الموجودين يبحثون مشروع الخطة « الجهنمية » التي وضعها « الحاج محمود » لإثبات براءة « سهير » . وكان يبدو من همساتهم أنهم على اتفاق ، وأنهم معجبون بالخطة « الجهنمية » . وفجأة تعالت أصواتهم وارتفع ضجيجهم . إن القادة اختلفوا ! ولكنهم لم يختلفوا على الخطة ، وإنما اختلفوا على تمويلها ، وترتفع صرخات : « عليَّ الطلاق » . . و « قسماً بالله العظيم » . .

فإن « المعلم سلطان » يصر على أن يموِّل وحده العملية الحربية التي يريدون القيام بها . ولكن الباقين يعترضون . إن كل واحد فيهم يصر على أن يشترك في عملية التمويل . إنهم يرون أن ما يفعلونه من أجل « سهير » هو « ثواب » وهم يريدون أن يشاركوا في هذا الثواب . ويضعف « المعلم سلطان » ، ويقبل أن يشترك أهل الحارة جميعاً في شراء البنزين الذي سيوضع في سيارة المواشي ، التي ستكون هي سلاح الدبابات في المعركة الخطيرة . ويسارع أهل الحي جميعاً يتقدمون بالقروش والملاليم . إنهم لم يسألوا عن سر العملية الحربية ، ولا عن تفاصيلها ، وإن كل ما يعرفونه أنهم يدفعون هذه القروش من أجل المرأة التي أحبوها يوماً ، والتي اختفت من قلوبهم ، وكرهوها ، ثم عادوا يحبونها من جديد! . .

وفرد « المعلم سلطان » منديله المحلاوي الكبير ، وراحت أيدي النساء ، الرجال ، والأطفال تملأ المنديل بقطع النقود الصغيرة . وكانت المبالغ تافهة ، ولكنها كانت شيئاً كبيراً بالنسبة إلى هؤلاء الفقراء الضعفاء ! . . كان القرش الواحد يعني رغيف عيش بالنسبة « لصميدة » ، ويعني قطعة من الجبن بالنسبة « لعويس » ، وكان يعني قطعة شيكولاتة بالنسبة للولد « برهومة » ابن « المعلم أبو شادوف » . ولكنهم كانوا سعداء بهذه التضحية . كانت التضحية في أفواههم ألذ من طعم العيش ، والجبن ، والشيكولاتة ! . . وأقبلت « الست زوبة الخياطة » وخلعت فردة من أساورها الذهبية وألقتها في المنديل . وصاح « المعلم سلطان » : « هذا كثير « يا ست زوبة » ! » .

ولكن « ست زوبة » أقسمت بقبر المرحوم زوجها أنها لن تستعيد السوار الذهبي . واحترم الحاضرون ذكرى المرحوم ، وقرأوا الفاتحة على روحه . وصاح « عويس أفندي » الساعي بديوان المحاسبة أنه

أحصى المبالغ المجموعة . وأنها تكفي لشراء سيارة لا لشراء بنزين ! . . ويضحك الحاضرون لدقة ساعي ديوان المحاسبة في الحساب . ويقترح « الحاج محمود البقال » أن يصرف المبلغ لإقامة فرح « لسهير » ! . .

وكانت الحارة تتحدث كأنها كسبت معركتها ، وحققت انتصارها ، وخذلت أعداءها . إن هؤلاء اليائسين شعروا بالأمل يدخل قلوبهم ، أحسوا كأنهم تحولوا فجأة من أقزام إلى عمالقة . وكان يقويهم أنهم اتفقوا على هدف واحد ، وأن كل واحد منهم شعر أن هذا الهدف هو هدفه الشخصي ، وأن « سهير » ليست غريبة عنهم . إنها امرأة مظلومة ، وكل واحد منهم يشعر أنه مظلوم ، وأنه مضطهد ، وأن من حقه أن يقاوم الظلم والاضطهاد . إن « صميدة » يذكر أن باشجاويش القسم ضربه قلماً على وجهه . ضربه بغير ذنب جناه ، بغير جريمة ارتكبها . وهو اليوم يشعر أنه يريد أن يرد هذا القلم للباشجاويش ! . . ولكن القلم لن يصل إلى قسم السيدة زينب . إنه سيصل إلى شخص ظالم . ظلم « سهير » . « فصميدة » يريد أن ينتقم من أي ظالم ، ويتصور أن هذا الانتقام سوف يريح قلبه ، لأن قلبه يتعب لرؤية أي مظلوم ، و « عويس أفندي » الساعي بديوان المحاسبة يذكر أن أحد زملائه لفَّق له تهمة ، ووجد شهوداً يشهدون ضده ظلماً ، وصدر قرار من باشكاتب الديوان بخصم ١٥ يوماً من مرتبه .

وشعر « عويس أفندي » يومها بأنه أضعف من أن يصل إلى حقه ، وأحقر من أن يرفع صوته ، وتصور الظلم جباراً طاغية ، وأنه « برغوث » لا يستطيع أن يقاوم الطاغوت . . وها هو ذا اليوم يرى نفسه في « سهير » . ويشعر أن قضيتها قضيته ! . . إنها هي الأخرى

حكم عليها الناس حكماً ظالماً والحق معها . ولكن حقها لم يستطع أن يثبت أمام إعصار الكذب والافتراء . ويتذكر « عويس أفندي » الليالي التي أمضاها ساهراً معذباً ، ويقارن بين عذابه وعذاب « سهير » ، وينتفض غضباً ، ويخيل له أن المرأة « فهيمة » التي خدعتها إنما هي زميله في الديوان الذي افترى عليه . . وصوّر الضلال حقاً ، والخديعة حقيقة ! . . و « الحاج محمود البقال » هو الآخر تعرض في حياته لقصة تشبه قصة « سهير » . لقد لفّق له أحد زبائنه المماطلين تهمة بيع بأكثر من التسعيرة ، وسيق إلى المحاكمة ، وإذا بالحق أخرس والزور يتكلم . ولم يستطع « الحاج محمود » يومها أن يقنع أحداً ببراءته . كان كل شيء يدل على أنه مجرم . وصدر الحكم عليه بالغرامة والحبس . وأمضى مدة السجن يلعن الظالمين الملفقين . وهو اليوم يحس في قرارة قلبه أنه يفعل من أجل « سهير » ما كان يود أن يفعله من أجل نفسه . بل هو يقنع نفسه بأنه عندما يقاوم الظلم الذي وقع على « سهير » إنما هو يرفع الظلم الذي وقع عليه هو ، وهكذا عندما يتحمس كل هؤلاء الضعفاء للحق المهزوم يشعرون في عقولهم الباطنة أن هذا الحماس يرد لهم كرامة أهينت يوماً ، أو يرفع عنهم استبداداً ، أحسوا يوماً بوطأته على أنفاسهم ، أو يقاومون زوراً كان أكبر منهم ، فلم يستطيعوا له دفعاً ، ولم يقدروا على أن يصمدوا أمامه فانهاروا وانتصر ، وها هي ذي جاءت فرصتهم ليحطموا الظلم الذي أذل المرأة التي أحبوها في يوم من الأيام ! . .

ولكنهم لا يعتبرون « ابراهيم » ظالماً . إنهم يرونه مظلوماً مثل « سهير » . إنه هو الآخر ضحية الزور الذي دبرته الممثلة « فهيمة » عندما أرادت أن تحطم الحب العظيم الذي جمع بين « سهير وابراهيم » .

وجـاءت سيـارة المـواشي ، وقفـز إليهـا « صـميـدة » ، و « عويس » ، و « المعلم عطا الله أبو شادوف » و « الاسطى عزيز الحلاق » . وصعد « المعلم سلطان » و « الحـاج محمـود البقـال » وجلسـا إلى جـوار السـائق ، وتحـركت السيـارة وسط تصفيق أهـل الحي ، وزغـاريـد النسـاء ! . . إن أهـل الحي لا يعـرفـون إلى أين ستذهب هذه السيارة . وماذا ستفعل . ولكنهم أحسوا أنهم يضعون في سيارة المواشي آمالهم ! . . إنهم يثقون في الرجال البسـطاء الذين اختاروهم لينفذوا « الخطة الجهنمية » التي قررتها قيادة الحارة . وراح بعض أهل الحارة يصـلي ، وراحت نساء تـرفع أكفهـا إلى السماء في دعاء وابتهال .

* * *

ومضت عدة ساعات . .

وقـامت السيارة بـالعملية الحـربية أو « الخـطة الجهنميـة » كـما أسماها « صميدة » . .

ثم أسـرعت سيارة « البهـائم »تطوي الـطريق الصحراوي من الاسكنـدرية إلى المنصـورة ثم إلى القاهـرة . . ثم تسـير في شـوارع القاهرة وتقف أمام إحدى العمارات ، ويقفز منها عدد من ركابها ،

ثم يغيبون فترة ويعودون يحملون شيئاً في أيديهم لا يراه الناس في الظلام . . ثم تتحرك السيارة إلى شارع آخر ، وشارع ثالث ، وشارع رابع ، وتقوم بنفس العملية الغريبة الغامضة . . ولا نسمع في أثناء هذه التنقلات إلاّ صوت « صميدة » وهو يغني أغنية « سالمة يا سلامة . . رحنا وجينا بالسلامة » بينما يردد صوت الموجودين في سيارة المواشي الغناء ! . .

وتتجه سيارة « البهائم » إلى بيت الموسيقار « ابراهيم » في حي الدقي . .

إن بيت « ابراهيم » الجديد لا يقل فخامة ولا روعة ولا أناقة عن بيت « سهير » . إن الفنان المشرق حاول أن يجعل بيته تحفة فنية لا تقلّ جمالاً عن البيت الذي اشترته « سهير » عندما كانت نجمة الجماهير ، وقبل أن تبدأ شمسها في المغيب ! . .

ونزل أهل الحارة من السيارة اللوري ، وتقدموا إلى البواب النوبي الذي قفز من كرسيه في ذهول ، وقالوا له :

ـ قل للأستاذ ابراهيم أن حارة السد تريد مقابلتك ! . .

ودهش البواب النوبي وقال في عجب « للمعلم سلطان » :

ـ هل اسم حضرتك حارة السد ! . .

ويتمايل « المعلم سلطان » في زهو ويسأل البواب :

ـ ألم تسمع عن حارة السد ؟! . . إنك لا تعيش في مصر ! نعم يا سيدي احنا اسمنا حارة السد!

ويعجب البواب النوبي . . كيف أن عدة أشخاص لهم اسم واحد اسمه حارة السد !

ويتدخل « الاسطى عزيز الحلاق » ويقول:

ـ ألم تسمع عن عائلة المانسترلي . . أو عائلة ذو الفقار . . أو عائلة يكن ؟ . .

ويهز البواب رأسه ويقول . . إنه يعرف هذه العائلات . .

ويقول له « الاسطى عزيز » :

ـ ونحن اسمنا عائلة السد البراني . . إلا إذا كنت تريد اسم أجدادنا جميعاً !

ولكن البواب لا يظهر اهتماماً بهذه الأسرة الكبيرة ، ويهز رأسه في تأفف ويقول:

ـ إن الأستاذ عنده حفلة ساهرة ، والمدعوون كلهم من الكبراء.

ويضحك « المعلم سلطان » ضحكته العالية ويقول:

ـ لا . . خلاص . . ما دام كل المدعوين من الكبراء فنكون نحن مدعوين أيضاً!

ويزيح « المعلم سلطان » البواب النوبي جانباً ، ويندفع إلى داخل البيت ومعه أهل الحارة . ويصعدون درجات السلم ، ويفتحون الباب الزجاجي الذي تنبعث منه الأنوار وأنغام الموسيقى . .

ويذعر المدعوون والمدعوات وهم يرون أهل الحارة بملابسهم البلدية البسيطة ، وهم يخوضون بين أفخر الثياب ، وأغلى المجوهرات وأحدث الموضات ، ويتوقف الراقصون عن الرقص في ذهول ، وتخرج بعض السيدات الأنيقات نظاراتهن ويضعنها على عيونهن ليرين هذه المخلوقات الغريبة التي دخلت إلى صالون « ابراهيم » . وتتوقف الموسيقى عن عزف لحن الدانوب الأزرق ،

ويصطف المدعوون والمدعوات صفين ، بينما يمر بينهم هـذا الموكب العجيب . .

ويخرج « ابراهيم » من غرفة جانبية عـلى هذا الصمت المريب الـذي كـان أعـلى من صـوت الضـوضـاء . . . . ويتقـدم « المعلم سلطان » إلى « ابـراهيم » ويقـول لـه : « فـاضـي دقيقـة يـا « ابراهيم » ؟ . . »

ويضـع « ابراهيم » يـده على كتف « المعلم سلطان » في حنـان ويقـول : « دقيقـة فقط ؟ . . إنني تحت أمـركم . . سـاعـة . . ساعتين . . كما تشاءون !» .

ثم يـطلب « ابراهيم » إلى أهـل الحـارة أن يسبقـوه إلى غـرفـة المكتب . .

وتتقدم الفتاة الأنيقة الجميلة التي كانت تراقص « ابراهيم » منذ لحظات ، وتسأله وهي تنظر إلى أهل الحارة بازدراء :

ـ من هؤلاء يا « ابراهيم بيه » ؟ . .

ويبتسم « ابراهيم » لما أبدته الفتاة الارستقراطية من تأفف بهؤلاء المجهولين المغمورين الفقراء المساكين ويقول :

ـ هؤلاء ؟ . . هؤلاء أهلي . . هؤلاء أسرتي . . هؤلاء كل شيء لي في الحياة ! . . هؤلاء كانوا يعرفونني أيام كان أحد منكم لا يريد أن يعرفني ! . . هؤلاء كانوا يسمعونني أغني أيام كان أحد منكم لا يريد أن يسمعني ! . . هؤلاء أمي ، وأبي ، وأخي ، وعمي !

ويتقـدم « ابراهيم » أهـل الحارة إلى بـاب المكتب ، بينما تقف

الفتاة الأنيقة تشرح للمدعوين والمدعوات المذهولين حقيقة هؤلاء ، وهي تقول :

ـ دول بابا ، وماما . . و « أونكل » بتوع « ابراهيم » بك !

ويتناقل المدعوون والمدعوات شرح الفتاة الأنيقة لشخصيات أهل الحارة في ذهول واستغراب ودهشة واستنكار ، بينما يغلق « ابراهيم » باب غرفة المكتب من الداخل تاركاً المدعوين مجتمعين في حلقات ، وهم يتلفتون إلى الباب المغلق الذي أخفى خلفه هذا السر العجيب ! . .

***

وكان « المعلم سلطان » قد احتل أكبر كرسي في المكتب ، وقد وضع ساقاً على ساق ، وأخرج علبة سجائره وراح يدخن بشراهة . بينما جلس « صميدة » فوق المكتب الأنيق بعد أن أزاح علب السجائر الأنيقة ومنافض السجائر الجميلة التي تغطي المكتب ، وراح « عويس » الساعي في ديوان المحاسبة يبدي إعجابه بالصورة الزيتية المعلقة على الحائط ويؤكد أنها تشبه صورة « الزناتي خليفة » ، و « السفيرة عزيزة » المرسومة على حائط قهوة « دقدق » بحي الحنفي . . ويختار « الحاج محمود » مقعداً طويلاً « يتربع » فوقه واضعاً قدميه فوق الحرير الأنيق الذي كسيت به « الكنبة » الفاخرة . . .

ويختار « ابراهيم » مقعداً صغيراً ويجلس فيه بين أهل الحارة الذين احتلوا المقاعد الكبيرة في مكتبه ويقول :

ـ ماذا جرى ؟ . . ماذا جرى ؟ . .

ويتلفت أهل الحارة إلى بعضهم ، ثم يتركون « المعلم سلطان »

يتكلم . . ويطلب « المعلم سلطان » من « ابراهيم » أن يصلي على النبي ، ويردد الحاضرون جميعاً الصلاة!

ويقول « المعلم سلطان » : « إن الذي جرى كثير ! . . لقد ثبت لنا أن الست « سهير » مظلومة . . إنها ضحية خديعة ! . . إنها ضحية مؤامرة . . إننا جئنا إليك نقول أننا جميعاً مقتنعون ببراءتها ، مؤمنون بأنها سيدة عظيمة نبيلة » .

ويتلفت أهل الحارة إلى وجه « ابراهيم » ليروا فيه تأثير الحكم الذي أصدروه ببراءة « سهير » . وتصوروا أن « ابراهيم » سيقفز من كرسيه ، وسيغضب ، ويثوب . . ولكن « ابراهيم » لم يتحرك ، بل أن ابتسامة ساخرة ملأت وجهه وهو يقول هازئاً :

ـ هل ضحكت « سهير » عليكم أيضاً ؟! . . لقد تصورت أنني أنا « المغفل » الوحيد . ولكن لم أتصور أنكم أيضاً يمكن الضحك عليكم ، والسخرية بعقولكم !

وقال « صميدة » مقاطعاً : « يعني تقصد أننا « مغفلون » ؟!»

وتراجع « ابراهيم » وقال:

ـ لا سمح الله ! . . أقصد أن أقول أنكم طيبون ! . . إن الناس الطيبين يسهل خداعهم !

واحتج أهل الحارة في صوت واحد على هذا الاتهام ، وقال « الحاج محمود البقال » :

ـ نحن غير متعلمين ، وغير مثقفين ، ولكن قلوبنا متعلمة ، ونفوسنا مثقفة ! . . إننا لم نتعلم في المدارس ، وإنما تعلمنا في الحياة ! . . الناس هي الكتب التي قرأناها . . هي العلوم التي

درسناها . . ونحن نستطيع أن نفرِّق بين من يصدقنا ومن يخدعنا !

وهزَّ « ابراهيم » رأسه في أسف وقال :

ـ إنكم وقعتم جميعاً تحت تأثير « سهير » المغناطيسي !. . أنا لا ألومكم !. . أنا مثلكم وقعت تحت هذا التأثير !. . أنا صدقت يوماً قلبي ولم أصدق عقلي !. . وتصورت أنها أنبل امرأة في العالم ، وجاءت الأيام تؤكد لي أنها أسفل امرأة في العالم . . .

وتنمرت وجوه أهل الحارة . . شعروا كأن « ابراهيم » قد مزق العلم الذي يرفعونه وداس عليه بالنعال ، واحمرَّ وجه « المعلم سلطان » وقال في غضب مكتوم :

ـ اسمع يا « ابراهيم » . . . لقد ثبت لنا أن ممثلة ضحكت على « سهير » !

وقفز « ابراهيم » من مقعده وقال : « إن الممثلة هي « سهير » !. . أنا أعترف أنها لا تزال ممثلة عظيمة !. . » .

وأحس أهل الحارة أن « ابراهيم » جرحهم ، ولكنه لم يستطع أن يجرح عقيدتهم ، ولم يهز ثقتهم في « سهير » . . .

وقال « الحاج محمود البقال » في أسى وحزن :

ـ حرام عليك يا « ابراهيم » . . إن « سهير » روت لنا حقيقة ما حدث وقطعت قلوبنا!

ويشعل « ابراهيم » سيجارته ويقول:

ـ ما أكثر القلوب التي قطعتها « سهير » !. . إن هذه صناعتها إن مهنتها أن تمزق بتمثيلها قلوب الناس !. . ما أكثر الذين استطاعت « سهير » أن تبكيهم بتمثيلها البديع !. . إنها الممثلة الأولى في مصر بدون منازع !. .

وينتفض « الاسطى عزيز الحلاق » ويقول:

- إن « سهير » لا تمثل !.. إن « سهير » ضحية !

ويصيح « عم محمود البقال » في تصميم :

- إن « سهير » بريئة !

ويتدخل « عم معروف المكوجي » ويقول:

- إن « سهير » ملاك!

ويروح كل واحد من أهل الحارة يعبر عن عقيدته وإيمانه بأن « سهير » مجني عليها ..

ويغرق « ابراهيم » في الضحك ويقول:

- أنتم ناس طيبون !.. أنتم الملائكة والأبرياء والضحايا والمجني عليهم !. إن قلوبكم مثل اللبن الحليب!.. أنتم تصدقون التمثيل !.. إن « سهير » ممثلة شاطرة !.. إنها وجدت أن الناس لا يذهبون إلى مسرحها ، فنقلت المسرح إلى حارة السد !.. جعلتكم أنتم المتفرجين الذين يلهبون أكفهم بالتصفيق ويبحون حناجرهم بالهتاف!

ويتقدم « المعلم سلطان » إلى « ابراهيم » ويمسكه بيده من كتف الجاكتة ويهزه وكأنه يهز إيمانه بجريمة « سهير » ويقول له:

- إن ممثلة ضحكت على « سهير » . ذهبت إليها وادعت أنها زوجتك ، وأنها مريضة بالسل ، ولم تشأ « سهير » أن تقتل هذه المرأة البريئة ، وتتركك بعد ذلك لعذاب الضمير .. إنها ضحت بحبها لأنها تحبك !.. إن هذه الممثلة خدعتها وغررت بها !

وكان « المعلم سلطان » يعتقد أنه ألقى قنبلة ... إنه كشف أمام « ابراهيم » السر الخطير . ولكن « ابراهيم » لم يهتز ، ولم يتأثر ، ولم

ترتعش خلجة من خلجاته ، بل راح يتأمل اللوحة الزيتية المعلقة في الحائط ، ويتأمل بلا حياء ساقي المرأة الفاتنة اللتين تطلان من اللوحة الممتازة ، بينما جلس « المعلم سلطان » وقد وضع ساقه اليسرى فوق ساقه اليمنى ، وراح يحرك قدمه في حركات تشنجية عصبية ، وكأنه يتعجل « ابراهيم » أن يتكلم وأن يبدي رأيه في هذه القنبلة التي فجرها أمامه !

وأحس « ابراهيم » كأن شيئاً يضغط على صدره ، كأن هؤلاء جميعاً يجلسون فوق قلبه ويضغطون عليه ، وكان يحزن لهم ، ولا يحزن على « سهير » . . وفي صوت هادىء قال « ابراهيم » :

ـ آسف أن أقول لكم أن كلامكم فارغ ! . . كيف تصدقون أن ممثلة صغيرة تخدع كبيرة ممثلات مصر ! . . هل تصدقون أن « سهير » لا تعرف كل ممثلات مصر الصغيرات والكبيرات ؟ . . هل تتصورون أن المرأة التي مثلت للملايين وخدعت بتمثيلها الملايين يمكن أن تخدعها ممثلة مبتدئة ؟ . . إن « سهير » مثّلت كثيراً من الروايات المسرحية . . إنها تجيد التأليف إجادتها للتمثيل ! إنها سرقت لكم هذا الموقف الدرامي من قصة « غادة الكاميليا » ! كل ما فعلته أنها حولت دور الأب الذي كان يناشد « سهير » أن تضحي بحبها في سبيل « أرمان » إلى دور زوجة مريضة بالسل ! إن المجرم الذكي ينسى عادة ويترك بعض بصماته ! . . إن « سهير » كانت مريضة بالسل في قصة « غادة الكاميليا » ، فجعلت زوجة « ابراهيم » تمرض بالسل بدلاً منها ! . . يا لكم من بسطاء ! . .

وثار أهل الحارة في صوت واحد محتجين على اتهامهم بأنهم بسطاء ومغفلون ! . . وشعر « ابراهيم » أنه أهانهم جميعاً . . إنه

احتقر ذكاءهم . . إنه سخر من قدرتهم على التمييز بين الحقيقة والتمثيل!

وأراد « ابراهيم » أن يتحداهم فقال لهم :

ـ لو كانت حكاية هذه الممثلة التي قامت بدور زوجتي صحيحة فأين هي هذه الممثلة ؟ . . أين المستند ؟ . .

وصاح « المعلم سلطان » منتصراً :

ـ إن كلامك الآن مضبوط يا « ابراهيم » ! . . سؤالك مضبوط ! . سؤال في المليان ، سؤال في العظم ! . .

وابتهج « ابراهيم » وتصور أنه كشف لعبة « سهير » أمام أهل الحارة ، فقال لهم : « أين هي الممثلة ؟ . . أين المستند ؟ . . »

وابتسم « المعلم سلطان » وصفق بيديه وقال لأهل الحارة :

ـ اذهبوا يا أولاد . . احضروا المستند من عربة « البهائم » !

وانفجر « ابراهيم » ضاحكاً ، بينما انصرف أهل الحارة مسرعين إلى خارج الغرفة . .

وبقي « ابراهيم » صامتاً !

وراح « المعلم سلطان » يهز قدمه اليسرى في حركة عصبية . . .

وكان كل واحد منهم يحاول أن يتظاهر بأنه لا يتطلع إلى وجه الآخر . .

وفجأة انفتح الباب بعنف ، ودخل أهل الحارة إلى المكتب وهم يحملون جوالاً من الخيش !

ووضعوا الجوال على الأرض ، وأخرج « المعلم سلطان » الساطور الكبير ، وراح يقطع الحبال التي تحيط بالجوال!

وخرجت من الجوال الممثلة « جمالات جميل » وهي مكممة

ومربوطة اليدين . . وتعاون أهل الحارة على فك رباطهـا ، وراحت « فهيمة » تصرخ وتهدد بالحكومة والبوليس . .

وأمسك « المعلم سلطان الجزار » بالساطور في يده ولـوح به في وجه الممثلة « جمالات » وهو يقول :

ـ اعترفي يا « جمالات » ! . . وإذا لم تقولي الحق فسوف أذبحك بهـذا السـاطـور ، كـما سـأذبـح « البهـائم » التي كـانت معــك في السيارة ! . .

وصرخت « فهيمة » وركعت عـلى قدميهـا وهي ترتجف وتشهق وقالت :

ـ سأعترف . . سأقول الحقيقة . . أنا فعلاً تظاهرت بأنني زوجة « الأستــاذ ابـراهيم » . . وذهبت إلى « الست سهـــير » في بيتهـا ، وادعيت أنني مريضة بالسل ، وأنه طلقني ليتزوجها . .

وظهر الاهتمام على وجه « ابراهيم » وسألها :

ـ ومن الذي طلب اليك أن تقومي بهذا الدور ؟ . .

قالت « فهيمة » وهي ترتعش :

ـ إن الأستاذ « عطيـة » صاحب المسـرح هو الـذي كلفني بهذا الدور ، هو الذي كتب لي كلام الدور ، هو الذي دربني على تمثيله ، هو الذي كلفني أن أذهب إلى بيت « سهير » وأقوم بهذه التمثيلية . . هو الذي وعدني بأنه سيسند لي أدواراً في رواياته الجديدة وفي الرواية السينمائية التي سينتجها ، هو الذي أعطاني مائة جنيه ثمن تمثيلي دور « الزوجة المريضة بالسل » !

واتجهت « فهيمة » إلى « ابراهيم » وهي تبكي وتتضرع وتقول : « اغفر لي يا أستاذ « ابراهيم » لأنني قمت بهذا الدور الوضيع ! » .

وضحك « ابراهيم » وصفق بيديه وهو يقول:

- برافو . . برافو ! . . إنك ممثلة من الدرجة الثالثة ، ولكنك لديك استعداد للتمثيل ! . . غير أن هناك أخطاء فنية ! . . إن طريقة ركوعك وتضرعك فيها صناعة ! . . إنك تمثلين على الطريقة المسرحية القديمة ! . . إن من الممكن أن تخدعي هؤلاء الناس البسطاء ، ولكن لا يمكن أن تخدعي فناناً مثلي ! . .

وبكت « فهيمة » . .

واحتج « المعلم سلطان » وقال غاضباً:

- يا « ابراهيم » إن « فهيمة » لا تمثل . . إنها تقول الآن الحقيقة . . هل لا تصدقني أنا يا « ابراهيم » ؟

وهز « ابراهيم » رأسه وقال:

- أنت رجل طيب يا « معلم سلطان » ! . . أنت رجل على نياتك ! . . أنا أصدقك أنت ، ولكنك وقعت في المقلب ! . . إن الذي لا تعلمه أن « سهير » اتفقت مع هذه الممثلة المجهولة لتمثل عليكم أنتم ! . . إن التمثيل لا بأس به ، الإخراج لا بأس به ، إنما التأليف درجة ثالثة . . « ترسو » ! . .

ويحتج « صميدة » ويثور ويقول محتداً:

- أين عقلك يا « ابراهيم » ؟ . . هل هذا تمثيل ؟ . .

ويبتسم « ابراهيم » ويتقدم إلى « فهيمة » ويربت على كتفيها وهو يقول:

- برافو . . برافو . . يا آنسة « جمالات » . . سأوصي مدير مسرحي أن يسند لك أحد الأدوار في روايتي الجديدة !

وتبكي « فهيمة » وتقول « لابراهيم » :

ـ أقسم لك أنني صادقة الآن . . أنا خدعت الست « سهير » !

ويشعل « ابراهيم » سيجارة جديدة ويقول :

ـ وكيف أن فنانة مثل « سهير » تستطيع أن تخدعها ممثلة من الدرجة الثالثة مثل « فهيمة » ؟

وقهقه « المعلم سلطان » وقال :

ـ تماماً كما خدعتك « سهير » ، وقالت لك إنها لا تحبك ، وأوهمتك أنها عدلت عن الخطبة !

قال « ابراهيم » : « وما هو الدليل على أنها لا تخدعني الآن ؟ » .

قال « صميدة » :

ـ الدليل هو « سهير » نفسها . . إنك رأيتها عندما جاءت إليك أمس . . إن المرأة التي رأيتها ليست « سهير » إنها بقايا « سهير » إن الدليل أنها انهدت وتحطمت ، ولو أنها لم تحبك لما اهتزت منها شعرة عندما تخلت عنك ! . . ماذا حدث لك يا « ابراهيم » ؟ . . إن المثل يقول : « من القلب للقلب رسول » أين ذهب هذا الرسول؟

وانفجر « ابراهيم » غاضباً وقال :

ـ إن الذي حدث لي هو العذاب الذي ذقته . . هو الألم الذي سبَّبته لي . . هو الصفعة التي لطمتني بها « سهير » على وجهي . . هو الحذاء الذي داست به على قلبي . . هو الإهانات التي مزقت قلبي وروحي وحياتي . . كيف أصدق المرأة التي خدعتني وهي بين ذراعي ؟ . . كيف أصدق امرأة شيَّعت جنازتي في يوم مولدي ؟! . .

وأحاط أهل الحارة « بابراهيم » ، وراحوا يهزونه بأيديهم ، وكأنهم يريدون أن يهزوا عقيدته . . أن يعيدوا الرجل الذي كفر بالحب إلى معبد الهوى من جديد!

ولكن « ابراهيم » تخلص منهم وقال في عنف:

ـ أنا غير مقتنع ! إن « سهير » فشلت في أن تجعلني أصدقها وهي تمثل ، ولكنها عرفت كيف تقنعكم ، أنتم هواة تمثيل وأنا محترف تمثيل ! هذا هو عملي . . هذه هي صناعتي . . إنني أستطيع أن أفرق بين التمثيل والحقيقة ! إن « سهير » سخرت بكم جميعاً . . إنني أصارحكم الآن بسر رهيب . . ان « الأستاذ عطية » صاحب المسرح الذي تتهمونه بأنه دبر هذا المقلب كان يزورني ويدافع عن « سهير » . كان يرجوني أن أسند إليها دوراً في روايتي الجديدة لأن فرقته لم تعد في حاجة إليها ، ولا يريد هو أن يرميها في الشارع ! . . إن هذا الرجل النبيل ليس هو الذي يدبر مثل هذا المقلب !

وهز « الحاج محمود » رأسه وقال:

ـ يقتل القتيل ويمشي في جنازته !

وضحك « المعلم سلطان » وقال:

ـ إذن من رأيك يا « أستاذ ابراهيم » أن « الأستاذ عطية » صاحب المسرح رجل شريف !

وقال « ابراهيم » بإيمان : « نعم . . رجل شريف . . ولا يمكن أن أغيِّر رأيي فيه إلاَّ بدليل . . !» .

وصفَّق أهل الحارة . . ! ونظر « ابراهيم » إليهم في دهشة ، وابتسم « المعلم سلطان » وقال:

ـ الآن تتكلم عال يا « أستاذ ابراهيم » ! تتكلم مضبوط ! كلامك صح مائة في المائة ، لا يمكن أن تغير رأيك في شرف « الأستاذ عطية » إلاَّ بدليل . .

وقاطعه « ابراهيم » قائلاً: « بدليل قاطع ! . . » .

والتفت « المعلم سلطان » إلى زملائه أهل الحارة وقال لهم :

ـ اذهبوا يا اولاد وهاتوا الدليل القاطع من عربة « البهايم » .

ويخرج أهل الحارة . .

وتتذكر الممثلة جمالات أنها نسيت نفسها أثناء المناقشة ، فتتجه إلى زجاج النافذة وتجعل منها مرآة تصلح فيها هندامها وشعرها الذي تهدل في غير نظام وفقد رونقه نتيجة حبسها داخل الجوال !

ويرفع « المعلم سلطان » يديه إلى السماء ، ويتلو آيات من القرآن ، وكأنه يبتهل إلى الله أن يهدي « ابراهيم » إلى سواء السبيل !

أما « ابراهيم » فإنه يجلس في كرسي المكتب ، ويروح يفتح أدراجه ويقفلها بحركة عصبية . وكأن هذه الأدراج هي ماضيه مع « سهير » ، فهو يريد أن يفتح هذا الماضي ، ثم لا يلبث أن يسرع ويغلقه بالضبة والمفتاح ! . . ويفتح أهل الحارة الباب ، ويدخلون وهم يحملون جوالاً كبيراً ، ويخرج « المعلم سلطان » ساطوره الكبير ، ويقطع حبال الجوال ، ويخرج من الجوال « الأستاذ عطية » صاحب المسرح ، وهو مكبل اليدين وعلى فمه كمامة . . ويتقدم أهل الحي ، ويفكون قيود « الأستاذ عطية » الذي ظهر في حالة رثة ، وراح ينظف ملابسه من التراب ، ويصلح شعره ، ويعنى برباط عنقه في غضب شديد . . وكان يصيح :

ـ أنا سأخرب بيتكم ! . . سأضعكم في السجن . . أنتم قراصنة ! . . أنتم لصوص تسرقون الآدميين !

وهنا يخرج « المعلم سلطان » من حزامه الساطور ، ويلوح به في وجه « الأستاذ عطية » . . وينهار « الأستاذ عطية » من الرعب ، ويستند إلى مقعد حتى لا يقع على الأرض مغشياً عليه . .

ويعيد « المعلم سلطان » الساطور إلى حزامه من جديد ويسأل « الأستاذ عطية » مشيراً إلى الممثلة « فهيمة »:

- هل تعرف هذه الممثلة ؟..

وينتفض « الأستاذ عطية » ويقف بحركة مسرحية ويصيح :

- أبداً !.. أنا لا أعرفها !.. أنا أحتج على هذه المعاملة .. هذا إجرام .. هذه عملية خطف يعاقب عليها قانون العقوبات ، ويضع « المعلم سلطان » يده على الساطور ، وينزعه من الحزام ، ويرفع الساطور في يده مهدداً « الأستاذ عطية » .. ويصيح « المعلم سلطان » في صاحب المسرح « الأستاذ عطية » :

- هل تعرفها أم لا تعرفها ؟..

وينظر صاحب المسرح إلى وجه « ابراهيم » الجامد ، ثم يتشجع ويقول : « لا أعرفها !.. ».

وهنا يصيح « المعلم سلطان » في أهل الحارة بلهجة قائد المعركة : « اربطوه .. ».

وأسرع أهل الحارة يقيدون صاحب المسرح من جديد ..

ويضع « المعلم سلطان » ساطوره على رقبة « الأستاذ عطية » صاحب المسرح ويتظاهر بأنه سيذبحه ويقول:

- الله أكبر .. الله أكبر ..

وترتعش مفاصل « الأستاذ عطية » ، ويصيح بصوت مرتجف مخنوق : « سأعترف .. سأعترف .. سأعترف .. ».

ويشير « المعلم سلطان » إلى أهل الحارة بأصبعه ، فيتقدمون ويفكون وثاق صاحب المسرح الذي اصفرَّ لونه ، وانهمر العرق من وجهه وتهدج صوته ، وهو يحني رأسه إلى الأرض ويقول:

ـ نعم أعرفها . . إنها الممثلة « جمالات جميل » . . إنني اتفقت معها على أن تمثل دور « فهيمة » وتدعي أنها زوجة « ابراهيم » وتذهب إلى « سهير » وتتظاهر أنها مريضة بالسل . . وأنا أخذتها من ممثلات الاسكندرية غير المعروفات حتى أضمن أن « سهير » لا تعرف حقيقتها . . ولكني اتفقت معها على أن تمثِّل هذا الدور لمصلحة « ابراهيم » . . إنني كنت أعتقد أن زواج « سهير » منه سيقضي على مستقبله ، أنا رجل فنان ويهمني مصلحة الفنان قبل كل شيء !

وهنا يخرج « المعلم سلطان الجزار » ساطوره من جديد ويتقدم نحو « الأستاذ عطية » ، ويضع الساطور على رقبته . . ويقول له :
« قل الحق . . ولا شيء إلَّا الحق ! . . لمصلحة من ؟ . . » .

ويرتعش الأستاذ عطية ويقول بصوت مرتجف :
ـ لمصلحة . . . لمصلحة « سهير » . . أنا أعترف أنني كنت أحب « سهير » . . أعترف أنني حاولت أن أقنعها ألَّا تتزوج « ابراهيم » فرفضت . . قلت لها إن هذا الزواج سيقضي على مستقبلها الفني ، فقالت إنها مستعدة أن تضحِّي بحياتها من أجل « ابراهيم » . . رفضت أن تستمع إلى منطقي وإلى حججي . . ظننت أنني أستطيع إنقاذها بإخراج هذه المسرحية . . والله يعلم أن غرضي كان شريفاً ! . . لم أكن أتصور أن نتيجة ما فعلت أن تنهار « سهير » كامرأة ، وتنهار كنجمة .

وراح « الأستاذ عطية » يروي في تفصيل كامل قصة المؤامرة ، كيف فكر فيها ، كيف دبرها ، كيف نفذها ، كيف تصور أنه سينتزع من « ابراهيم » نجمة الجماهير ؟ . . وعندما انتصر وجد بين يديه جثة نجمة الجماهير !

لم يصدق « ابراهيم » أذنيه . . كأن الفنان الأصيل فيه أوهمه أن الفنانين فوق مستوى البشر ! . . يمثلون ولا يكذبون . . بل أنهم إذا قاموا بتمثيل أدوار الملائكة اندمجوا فيها حتى يخيل إليك أنهم أصبحوا من الأولياء الصالحين . وكان يعتقد أن الفن يجعل روح الفنان شفافة ، بريئة ، حلوة ، ليس فيها خطايا البشر العاديين ! . . فالذين يعطون حياتهم للناس يكبرون عن الصغائر ، ويترفعون عن الدنايا ! . . وقد كان يرى الممثلين يقفون على المسرح ، وكان المسرح يعلو دائماً متراً على الأقل من المستوى الذي يجلس فيه المتفرجون ، وكان يتوهم أن الفكرة في هذا أن الممثل أعلى من المتفرج ! . . ولهذا كان يؤمن في قرارة نفسه أن الفنانين ملائكة ، يكذبون فوق خشبة المسرح ، ولا يكذبون وراء الكواليس ! يخدعون ويقتلون ويتآمرون أمام المتفرجين ، ولكنهم يتعانقون ويتحابون بعد أن يسدل الستار . . وعندما شعر أن « سهير » خدعته حكم عليها أنها ليست فنانة ! . . ولو أنها كانت فنانة لأخلصت في هواها ولكنه الآن يرى صورة المسرح الحقيقية . . هذا المسرح الذي أعطاه حياته وقلبه وروحه ، فأعطاه المسرح المكائد والمؤامرات والمقالب ! . . ثم يغري « ابراهيم » نفسه بعد أن سمع كل هذه الحقائق بأن الفنان واحد من البشر ، فليست الكلمات النبيلة الشاعرية التي ينطق بها على المسرح إلّا دوراً يمثله . . فإذا خلع ملابس الدور عاد إلى شخصيته الواقعية ، وكذب كما يكذب بعض الناس ، وغدر كما يغدرون ! . . وكما أن بين الناس الطيب والشرير ، فإن بين الفنانين من يمثل دور الفارس وهو لا يصلح إلّا لدور الحصان ! . . وبين الفنانات من تجيد تمثيل الغانية ولها روح قديس ! . . وليس الماكياج طلاء يستعمل على المسرح فقط . . إن بعض الفنانين يطلون وجوههم في حياتهم

الخاصة بالبودرة ، والأحمر ، والأسود ، والأخضر ، والأصفر ليخفوا حقيقة نفسياتهم الصغيرة ، و « الأستاذ عطية » واحد من الممثلين على مسرح الحياة ! . . فقد مزج بين المسرح والحياة وألّف رواية ، واختار ممثلين لها ، ولقنهم أدوارهم ، ولكنه اختار لتمثيل روايته قلباً لا مسرحاً ! . . ولم يبال بأن يحطم حياة « سهير » وسعادتها ليحتفظ بها نجمة ! . .

وعندما هوت تخلى عنها ، وجاء « لابراهيم » يطلب إليه أن يجد لها دوراً في روايته . . لا شفقة بها ، ولكنه فعل ما يفعله الواحد منّا بالآنية الثمينة الجميلة التي كان يحتفظ بها في صالونه ، فإذا تحطمت الآنية حملها وألقى بها بعيداً عن الصالون في غرفة المهملات!

ويسائل « ابراهيم » نفسه ما الذي أعماه حتى أنه لم ير كل هذا ؟ . . هل الحب الذي أعماه ؟ . . أم أن كفاحه الفني اختلط عليه ، فكان يضرب في « سهير » وهو يتوهم أنه يشق طريقه إلى المجد ! . . هل كان يكافح ويعمل ويسهر الليالي ليبني لنفسه مجداً ، أم كان يفعل ذلك ليبني « لسهير » قبراً يدفنها فيه ؟ . . هل كان صراعه من أجل الوصول إلى القمة بدافع الحب ، أم بدافع الانتقام ؟ . . إننا عندما نبدأ نشق طريقنا نرسم أهدافنا ، ولكننا في أثناء معركتنا مع الحياة ننسى الأهداف ولا نذكر سوى المعركة ، وبعد وقت طويل نحاول أن نذكر سبب المعركة فلا نستطيع أن نذكره ! . . ونحن الذين نصنع أعداءنا بأوهامنا ، نحن نخلقهم لنضربهم ، وفي بعض الأحيان نخلق لأنفسنا أشباحاً ، وننسب إليها أسباب فشلنا ، ونحاربها عقاباً لها على ذنوب ارتكبناها نحن ! . .

وقد مكث « ابراهيم » طويلاً يشعر أن « سهير » هي عدوته

وحبيبته في وقت واحد ، يحبها ويقاومها ، يعبدها ويلعنها ، وها هو ذا الآن يكتشف أنه كان يحطم المعبد الذي كان كل ركن فيه يصلي من أجله هو !

وعندما انتهى « الأستاذ عطية » من اعترافاته سكت ، وراح يتطلع إلى الساطور في يد « المعلم سلطان » ، كما يتطلع المتهم إلى القاضي الذي سيصدر عليه حكم الإعدام . .

ويتلفت « المعلم سلطان » إلى « الأستاذ عطية » ويقول بلهجة القاضي وكأنه فهم المعنى الذي يطل من عيني صاحب المسرح :

ـ المتهم . . انتهت أقواله . . طيب متشكرين يا « أستاذ عطية » . . اتفضل ! . .

ويشير « المعلم سلطان » إلى أهل الحارة مصدراً أوامره :

ـ اربطوا « البهيمة » . . ضعوها في الجوال . . انقلوها إلى السيارة .

ولم يتصور « الأستاذ عطية » صاحب المسرح أن « المعلم سلطان » يعنيه بكلمة « البهيمة » إلاّ عندما يتقدم أهل الحارة نحوه ، ويبدأون في ربطه لوضعه في داخل الجوال ! . .

ويصرخ « الأستاذ عطية » مستغيثاً « بابراهيم » . . وفي أول الأمر لا يسمع « ابراهيم » استغاثة صاحب المسرح ! . . لقد كان في هذه اللحظة يسمع استغاثة أعلى صوتاً ! . . إنها استغاثة صوت ضميره . إنه أحسَّ كأن يقينه في إجرام « سهير » بدأ يهتز ! . . كان قلبه يقول له إنها بريئة ! . . ولكنها لم تكن المرة الأولى التي أصدر فيها قلبه حكم البراءة ! . . إن قلبه كان دائماً يصدر حكم البراءة ، وكان عقله يصدر حكمه دائماً بنقض البراءة ! . . إنه كان يحبها ، ولذلك كان لا يصدقها ! . . إنه كان يهواها كثيراً ومن أجل ذلك كان يكرهها

كثيراً ! . . إنه في بعض الأحيان كان يتمنى أن يتصور أنها لم تخدعه . ولكنه لا يلبث أن يتذكر الأيام السود التي أمضاها في سعير هجرانها . لا يلبث أن يذكر الدموع التي سكبها ، والأعصاب التي حرقها ، والليالي التي أمضاها ساهراً يتقلب على أشواك الذل والهوان ! . . إنه لم يكن في حاجة إلى كل هذه الأدلة ليصدق « سهير » .

كان يكفيه لو لبَّى نداء قلبه ! . . كان يسعده أن يغمض عينيه حتى لا يرى المرأة التي أحبها تدوس قلبه بقدميها ! . . ولكنه كان في كل مرة يفتح عينيه على الحقيقة البشعة ! . . بل إن هذه الحقيقة كانت تخترق جفنيه المغلقين لتؤكد له أن « سهير» خائنة وغادرة . . وهو الآن يرى أن تمثال المرأة الغادرة قد تهاوى تحت مطرقة الحقيقة ، وهو يرى أن هؤلاء السذّج لم يكونوا مغفلين عندما آمنوا ببراءة المرأة التي أحبها ، ولكنه كان مغفلاً عندما وقع في كمين أعده له صاحب المسرح الذي ليس أذكى منه ، ولا أكثر منه حرصاً ودهاء ! . . ولكننا عندما نحب نفقد قدرتنا على الحكم ، نظلم الأبرياء ، ونبرىء الظالمين ، يفقدنا الهوى توازننا واتزاننا فلا نرى الحقيقة في ظلام الأكاذيب والشكوك والأوهام .

وكما أن الحب يعمي العيون فلا ترى العيوب ، فإنه في بعض الأحيان يعمي القلوب فلا تستطيع أن تميز بين الحقيقة والخديعة ، وكلما كان الهوى كبيراً كان الشك أكبر من الهوى . وكما أن الواقف على القمة لا يحتاج لمجهود كبير ليهوي إلى الحضيض ، فإن الذين يصلون إلى قمة الحب يتدحرجون منه إلى هاوية الشك بخطأ بسيط في التقدير . .

إن « عطيل » القائد العبقري المنتصر قتل « ديدمونة » بسبب

منديل سخيف ، و « أرمان دوفال » تخلى عن « مارجريت جوتيه » «غادة الكاميليا » لسبب تافه هو أنه تصور أنها هجرته لتعشق رجلاً آخر ، بينما أرادت هي أن تضحي بحياتها من أجله ! . . والحب العادي لا يتعرض للأزمات التي يتعرض لها الحب العظيم ، وما الحب إلاَّ بشر ! . . يجري عليه ما يجري على البشر من مقادير ، وكما أن غلطة صغيرة تكلف الرجل العظيم مستقبله ، ولا تكلف الرجل العادي مستقبله ، فإن الحب العظيم يسهل القضاء عليه أكثر مما يسهل القضاء على الحب العادي . . !

واستيقظ « ابراهيم » من فلسفته على صوت استغاثة « الأستاذ عطية » صاحب المسرح ، وأهل الحارة يحملونه ليضعوه في الجوال!

ويبتسم « ابراهيم » وكأنه يوافق على عقاب صاحب المسرح الذي تدخل في قصة حبه ، وأنهى خاتمتها على الطريقة التي يريدها ! . . ولكنها لم تكن قصة حب فقط ، وإنما كانت هي حياته وسعادته وأحلامه في الهناء الجميل ! . . ثم تتغلب عليه مروءته ، ويشعر أنه يريد أن يعفو عن الرجل الذي أساء إليه لأنه عرف أنه ارتكب هذه الجريمة ضده بدافع الحب ، وهو في هذه اللحظة أكثر من أي وقت آخر يريد أن يعفو عن كل جرائم المحبين ! . . لأنه هو الآخر أجرم ! . . أجرم في حق الحب ، ولأنه في ثورة الحب وشكوك الحب انسحب من قلب « سهير » ، مع أنه كان يجب أن يبقى ويقاوم إلى آخر قطرة من دمه الذي اختلط بحبها وهواها ! . . وتتنازعه هذه العواطف المتناقضة ثم يتقدم إلى « المعلم سلطان » ويرجوه أن يفك وثاق «الأستاذ عطية » ، ويدعه في الصالون . .

ويصدر « المعلم سلطان » أوامره بفك وثاق « الأستاذ

عطية »صاحب المسرح . . ويتنفس « ابراهيم » نفساً طويلاً . . ويحس كأن هذه الأدلة التي رآها بعينيه وسمعها بأذنيه كانت حبالاً ربطه بها أهل الحارة ، وأنه الآن تخلص من هذه القيود . . وتعود إليه شكوكه من جديد ! . . إن الذين يعيشون في ظلام الشك طويلاً لا يستطيعون بسهولة أن يفتحوا أعينهم في نور اليقين ! . . تماماً كما أن الذين يبقون فترة طويلة في الظلام يشعرون بالعمى إذا خرجوا فجأة إلى النور ، ولهذا يعود « ابراهيم » يحاول أن يجادل أهل الحارة من جديد ! . . وهو في الواقع لا يجادلهم هم ، إنما هو دون أن يشعر يحاول أن يدافع عن كرامة الخطأ الذي وقع فيه ! . . وهو في قرارة نفسه قد حكم ببراءة «سهير» ، ولكنه في الوقت نفسه حكم على نفسه بأنها مذنبة ، وهو لهذا يريد أن يبرىء نفسه أمام ضميره ، أو يبحث عن أسباب لتخفيف الحكم عليها ، ولهذا يتجه إلى أهل الحارة ويقول لهم :

ـ إنني أكاد أجن ! . . إنني لا أصدق هذا ! . . إن كل ما سمعته لا يبرىء « سهير » ! . . كيف أن فتاة متعلمة « كسهير » تقع في هذا الشرك الساذج ؟ . . كيف تصدق أية امرأة تحب ، امرأة أخرى غريبة عنها تذهب إليها وتقول لها : أنا متزوجة من « ابراهيم » فتصدقها بغير مناقشة ؟ . . كيف يمكن أن حباً عظيماً خالداً تقضي عليه أكذوبة تافهة كهذه ؟ . . كان يجب على « سهير » أن تطلب من الممثلة « فهيمة » الدليل ! . . كان يجب أن تقول لها : « أين ورقة زواجك من « ابراهيم » ! . . أين وثيقة طلاقك ؟» .

ويصفق أهل الحارة تصفيقاً حاداً وكأنهم يسمعون خطاباً رائعاً ، ويضحك « المعلم سلطان » ويقول :

ـ بس ! . . غلبتنا يا « أستاذ ابراهيم » ! . . نحن قوم نحب الحق ، الحق لا نستطيع أن نقول فيه شيئاً ! . . لو كانت «سهير» تحبك حقيقة لطلبت أن تطلع على وثيقة الطلاق قبل أن تصدر الحكم بالإعدام على هذا الحب العظيم ، . .

وتصفق الشكوك في قلب « ابراهيم » فرحاً بهذا الاعتراف، ويقول « ابراهيم » : « مضبوط ! . . » .

ويصيح « المعلم سلطان » في أهل الحارة قائلاً :

ـ يا اولاد . . هاتوا المستند الكبير!

ويعود أهل الحارة في لحظات يحملون جوالاً ضخماً ، ويخرج « المعلم سلطان » ساطوره ، ويفتح الجوال ، ويخرج منه شيخ معمم ، غليظ الجثة ، وهو مكمم ومقيد بالحبال . .

ويبدأ أهل الحارة في فك القيود،ويتقدم « المعلم سلطان » الجزار إلى الشيخ ملوحاً بالساطور !

ويقع الشيخ مغشياً عليه على الأرض، ويتعاون أهل الحارة على إفاقته ، ثم يساعدونه على الوقوف . .

ويصيح « المعلم سلطان » :

ـ قل ما هي معلوماتك في القضية . . ؟

ويستعيذ الشيخ من الشيطان الرجيم . . ثم يقول :

ـ أنا محمود ابراهيم مأذون البحر الجديد في المنصورة . . حضر إلي هذا الأفندي . . « ويشير إلى الأستاذ عطية صاحب المسرح » ومعه هذه السيدة . . و « يشير إلى الممثلة جمالات » وطلبا مني أن أطلقها . . ودفعا لي مبلغ عشرة جنيهات . . وقالت السيدة أن اسمها « فهيمة » . . وقال هذا الأفندي أن اسمه « ابراهيم » .

ويتقــدم « المعلم سلطان » إلى الممثلة « جمالات » ويســألهــا والساطور في يده: « هل حصل هذا ؟ . . » .

وتنكس الممثلة رأسهـا وتقـول في صــوت خـافت: « نعم . . حصل » .

ويعود « المعلم سلطان » ويتجه بساطوره إلى « الأستاذ عطيـة » ويسأله : « هل حصل هذا ؟ . . » .

ويـرتعش « الأستاذ عـطية » ويقـول في صـوت كـرنـين القـدم المشروخ: « نعم . . حصل» .

ويتقــدم « المعلم سلطان » وهـو يلوح بــالسـاطــور في وجــه « ابراهيم » ويقول له: « احكمي يا محكمة ! . . » .

ويتهدج صوت « ابراهيم » ويقول:

ـ إن المحكمة حكمت قبل أن تسمـع الشهود ! . . إنها اكتفت بسماع « سهير » ! . . إنني أحسست أن قلبي حكم لها عندما رأيتها في غرفة نومي تبكي ! . . ولكني لم أجد شجـاعة الحكم بـالبراءة في تلك اللحظة ! . . حكمت لها قبل أن أسمعها تتكلم ! . . بل أقسم لكم أنني حكمت لها وأنا أشعر بخنجرها تغمده في قلبي ! . .

كان قلبي يناديها دائماً ، وكنت أرفـع صوتي ألعنهـا، لأخفي في صرخات فمي نـداء قلبي ! . , . كنت أخشى أن أضعف أمام هـذا الحب، فـأقاوم هـذا الضعف بأن أذكـر عذابي معهـا وأنسى سعادتي بجوارها، وقـد كنتم يا أهـل الحارة تقـولون مـا أتمنى أن أقولـه ولا أستطيع ! . . كنتم أنتم صوت قلبي الذي رفضت أن أستمع إليه ، ولما سمعتكم تصورت أنكم « كورس » يردد نفس الأغنية التي يغنيها قلبي ! . . وكان صوت قلبي ضعيفاً لأنه كـان مهزومـاً ، فلما جئتم

ترددون أغنية قلبي شعرت كأن همسات قلبي تتحول إلى أنغام عالية يسمعها قلبي، وتطرب لها روحي!

وكانت كلمات « ابراهيم » أشبه بالزفرات والعبرات منها بالكلمات ، كانت مكونة من الدموع ، وكان أهل الحارة يستمعون اليها وهم يبكون . . كانت الممثلة « جمالات » تبكي بحرارة ، وكان « الأستاذ عطية » منكس الرأس لا يستطيع أن يرفع وجهه ليواجه « ابراهيم » !

وجفف « المعلم سلطان » دموعه بكم « جلابيته » ، وصاح في حزم: « كيف نبكي في يوم انتصارنا ؟ . . هيا نذهب إلى بيت الست « سهير » لنبلغها الحكم !. .

ودفع باب المكتب بيديه ، فانفتح على مصراعيه ، وخرج أهل الحارة ، يتقدمهم « ابراهيم » ، ويسير معهم « الأستاذ عطية » ، والممثلة « جمالات » ، والمأذون ، وانقسم المدعوون والمدعوات في الصالة الكبيرة إلى صفين . . ويمر بينهم الموكب ، وهم حيارى لا يعرفون ما يجري في هذا البيت الغريب. .

وعندما يصلون إلى باب الفيللا يركبون جميعاً « عربة البهائم » بين دهشة المدعوين وصراخ « البهائم » !

وتمضي السيارة في شوارع القاهرة إلى أن تصل إلى بيت « سهير » ، ويقول البواب: « إن الست « سهير » مريضة !».

ويزيحه « المعلم سلطان » بيده، وهو يصيح :

ـ افتح يا جدع .!! نحن أحضرنا للست أحسن طبيب في البلد !

ويندفع أهل الحارة إلى غرفة نوم « سهير » . .

وترى « سهير » في دهشة « ابراهيم » يتقدم نحوها في بطء ويسرع إليها « المعلم سلطان » ويقول مشيراً إلى « ابراهيم » :

ـ أقدم لك الدكتور « ابراهيم » الذي سيشفيك من مرضك !

ثم يلتفت « المعلم سلطان » إلى « الأستاذ عطية » ، والممثلة « جمالات » ، والمأذون ، ويقول « لسهير » :

ـ وأقدم لك الجراثيم التي حملت هذا المرض إليك!

ويمسك « ابراهيم » بيد « سهير » كما يفعل الطبيب عندما يقيس نبض المريض ويقول وهو يضع رأسه على قلبها ، وكأنه يسمع دقات نبضها :

ـ أنا أعرف يا « سهير » أنك تريدين أن تكلميني على انفراد ! . . أنا أعرف أنك تريدين أن تقولي أنك تحبينني . . وأريد أن تعرفي أنني أريد أن أقول لك أنني أحبك . .

وتغمض « سهير » عينيها لتحلم ! . . ثم تفتحهما وتقول في صوت حالم خافت ، وكأنه يخرج من باب العدم :

ـ هذه الكلمات قلتها لك أنا يوم اعترافنا بالحب!

وكانت« سهير » في ثوب نومها الأبيض ، وجدائل شعرها الجميل تتألق في ضوء الكهرباء ، وكانت أشبه بميت يعود تدريجياً إلى الحياة ، على صوت أنغام مجهولة ، كأنه صوت إلهي عذب يرتفع رويداً رويداً ، ويجيء من آلاف السنين ، وكانت عينا « سهير » تقول أشياء كثيرة . . وبسطت ذراعيها ، كأنها لا تريد أن تعانق « ابراهيم » وحده ، وإنما كانت تريد أن تضم أهل الحارة جميعاً إلى صدرها . .

واقتـرب رأس « ابراهيم » من رأس « سهـير » ، ولم يشعـرا في تلك اللحظة أن أحداً معهما في الغرفة . !! كأن أهل الحارة عصبـوا عيونهم لا يرون شيئـاً ، وكأنهم أغلقـوا آذانهم لا يسمعون شيئـاً ، وكـان الصمت مخيماً عـلى الجميع ، بينـما ارتفعت تنهداتهم في رهبـة وخشوع !

وأمسكت « سهير » يد « ابراهيم » في يدها وكأنها تصحح كلام الممثل الذي يقوم بدوره أمامها :

ـ نعم . . إن هـذه الجملة التي نطقت بهـا يا « ابـراهيم » هي جملتي أنا ! . . أنا بدأت بها الرواية عندما اعترفت لك بحبي !

وقال « ابراهيم » في صوت هامس :

ـ والآن جـاء دوري لأقول نفس الجملة ! . . إنني أعتـرف لك الآن أنني كنت أخاف التاريخ عندما يروي قصة حبنا ، فيقـول أن القصـة بدأت بـك أنت تفاتحينني في الحب قبـل أن أفـاتحـك ! إن الأجيال القادمـة سوف تعجب كيف تجـرؤ المرأة وتقـول للرجل أنـا أحبك ، قبل أن يقول لها هو أنا أحبك ! . . أنا الآن جئت أصحح التاريخ ! . .

ثم ينحني « ابراهيم » أمام « سهير » بطريقة مسرحية ويقول :

ـ آنسة « سهير » . . هل تسمحين لي بشرف الزواج منك ؟

وتقفز « سهير » من فراشها وتصيح :

ـ أنا لا أسمح ! . . أنا أريد ! . . أنا أتمنى ! . .

ويضمها « ابراهيم » إلى صدره في عناق طويل!

واشرأبت الأعناق ، وإذا بالعيون كلها تبكي فرحـاً ! . . وشعر الذين لم يحبوا أبداً أنهم عرفوا الحب لأول مرة !

وأغضى « المعلم سلطان » ببصره ، وقال « لسهير وابراهيم » :
ـ أظن أنه يجب أن نترككما الآن . . ونعود إلى الحارة ! . .

وصرخت « سهير » :
ـ تتركوننا ؟ . . كيف تتركوننا ؟! . . إننا سنذهب معكم إلى الحارة ! . .

وفتحت « سهير » دولاب ملابسها ، وأخرجت معطفاً ارتدته فوق ثياب نومها ، واتكأت على ذراع « ابراهيم » ونزلت معه درجات السلم . .

وعند الباب تقدم « الأستاذ عطية » إلى « المعلم سلطان » وقال له مشيراً إلى الممثلة والمأذون :
ـ أظن أنكم سوف تطلقون سراحنا الآن !
وصاح « المعلم سلطان » ضاحكاً :
ـ كيف نطلق سراحكم . . وندبح مين في الفرح ؟ . .
وركب « ابراهيم وسهير » في « عربة البهائم » مع أهل الحارة وهم يغنون وينشدون ! . . بينما كانت « البهائم » في السيارة « تمأماً » على نغمات الموسيقى . . وتصل السيارة إلى الحارة ، ويخرج أهل الحارة من أطفال ، ونساء ، ورجال ينشدون أغنية الانتصار !

* * *

وتضيء الأنوار في شارع المجد وتنطفىء . . وتتلألأ وتخبو . . وتحترق . . وما الناس الذين يعيشون في شارع المجد إلاّ لمبات كهربائية كهذه الأنوار . .

كتب أخرى للمؤلف

- **أمريكا الضاحكة**

حياة طالب مفلس في أمريكا
الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ ـ (نفدت).
الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ ـ (نفدت).
الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ ـ (نفدت).
الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥ «أمريكا الضاحكة.. زمان»
الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة.

- **فاطمة**

مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدي سنة ١٩٤٧م.

- **عمالقة وأقزام**

ساسة مصر قبل الثورة
سنة ١٩٥١ ـ (نفدت).

- **ليالي فاروق**

قصة حياة الملك السابق
الجزء الأول سنة ١٩٥٤ ـ (نفدت).
الجزء الثاني سنة ١٩٥٤ ـ (نفدت).

- **نجمة الجماهير**

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ ـ (نفدت).
مثلها للسينما عبد الحليم حافظ وشادية.
الطبعة الثانية ١٩٨٩
[العصر الحديث للنشر والتوزيع ـ بيروت]

● **صاحبة الجلالة في الزنزانة**

قصة الصحافة المصرية في الأغلال والصراع بين الصحافة والطغيان.

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٥ - (نفدت).

الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥

[العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

● **سنة أولى سجن**

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ - (نفدت).

الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ - (نفدت).

الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ - (نفدت).

الطبعة السادسة يناير ١٩٧٨.

الطبعة السابعة ابريل ١٩٨١.

● **الكتاب الممنوع**

أسرار ثورة ١٩١٩.

الطبعة الأولى ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثانية ١٩٧٥.

● **سنة أولى حب**

الطبعة الأولى يناير ١٩٧٥.

الطبعة الثانية ١٩٨٥ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

مثلها للسينما محمود ياسين ونجلاء فتحي.

● **ست الحسن**

الطبعة الأولى ١٩٧٦ - (نفدت).

الطبعة الثانية ١٩٨٧. [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

- **من واحد إلى عشرة**
  الطبعة الأولى ١٩٧٧
  الطبعة الثانية ١٩٨١
- **سنة ثانية سجن**
  الطبعة الأولى ١٩٧٧ .
- **سنة ثالثة سجن**
  الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- **لا . . .**
  الطبعة الأولى ١٩٧٧ (نفدت) .
  الطبعة الثانية ١٩٨٥ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]
- **لكل مقال أزمة**
  الطبعة الأولى ١٩٧٩ .
  الطبعة الثانية ١٩٨٧ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]
- **الـ ٢٠٠ فكرة**
  الطبعة الأولى ١٩٧٩ .
  الطبعة الثانية ١٩٨٧ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]
- **تحيا الديمقراطية**
  الطبعة الأولى ١٩٨٠ .
- **من عشرة لعشرين**
  الطبعة الأولى ١٩٨١
- **سنة رابعة سجن**
  الطبعة الأولى ١٩٨١
- **صاحب الجلالة الحب**
  الطبعة الأولى ١٩٨٢ .
  الطبعة الثانية ١٩٨٥ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

- من فكرة إلى فكرة
  الطبعة الأولى ١٩٨٤
- الآنسة هيام
  الطبعة الأولى يناير ١٩٨٥
  الطبعة الثانية يونيه ١٩٨٥ [منشورات العصر الحديث]
- الآنسة كاف
  الطبعةُ الأولى ١٩٨٥
- الفكرة الممنوعة
  الطبعة الأولى ١٩٨٥
- اسماء لا تموت
  الطبعة الأولى ١٩٨٧ .
  [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]
- أفكار ممنوعة
  الطبعة الأولى ١٩٨٦
  الطبعة الثانية ١٩٨٩
  [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

العصر الحديث
للنشر والتوزيع